تصدر عن مركز الهدى للدراسات الحوزوية

مجلة
فصلية علمية
دينية سياسية
تعنى بشؤون حوزتي
النجف الأشرف
وقم المقدسة

الحوزة

مجلة علمية فصلية

تصدر عن مركز الهدى للدراسات الحوزوية

العدد الرابع والثلاثون / السنة الثامنة / ١٤٤٣هـ

المشرف العام

السيد قاسم هاشم مولى

رئيس التحرير

أ. عباس النوري

هيئة التحرير

حيدر النجار

إبراهيم الأسدي

التصميم والإشراف الفني

أحمد الهاشمي

info@markazalhuda.net

www.markazalhuda.net

دعوة للكتّاب

تود هيئة تحرير مجلة الحوزة ان ترحب بالأخوة والأخوات الباحثين والمتخصصين في الدراسات الدينية الحوزوية والذين يرغبون بنشر بحوثهم ودراساتهم العلمية والاكاديمية في مجلة الحوزة وفق المعايير التالية:

- ❖ أن تتناول البحوث والدراسات الشؤون الحوزوية المعاصرة وكل ما له علاقة بتطوير الحوزة والدفاع عنها وعكس صورتها المثلى
- ❖ تعتمد المجلة الأساليب العملية الراهنة في الكتابة والتوثيق والحيادية والموضوعية والدقة والإشارة إلى المصادر حسب القواعد العلمية المتعارف عليها.
- ❖ أن لا تكون البحوث قد نشرت في مجلات أخرى
- ❖ تقدم البحوث إلى المجلة مطبوعة وعلى (CD) مع موجز خالي من الأخطاء الطباعية.
- ❖ تخضع البحوث والدراسات إلى التحكيم العلمي المتعارف عليه أكاديميا ولا تعاد البحوث إلى أصحابها في حالة الاعتذار عن نشرها
- ❖ تنشر البحوث والدراسات وفق خطة هيئة التحرير والنشر

لا تمثل بالضرورة آراء الباحثين والكتاب رأي مجلة الحوزة

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

من عبق الفكر المقاوم

❖ **نهضة الاصلاح الحسيني ... معطياتها، أهدافها، والدروس المستفادة في كلمات الامام الخامنئي**

الشيخ فاضل راضي ٥

❖ **منهج الإمام الخميني وأثره في إيجاد روح الإقدام والتصدّي في الأمة بعد حالة الخمول والاستسلام القضية الفلسطينية أُنموذجاً**

أ. فراس الشحماني ١٧

❖ **حقيقة عاشوراء وأهداف الثورة الحسينية في كلمات الإمام الخميني**

السيد عباس النوري ٣١

محور العدد: النهضة الحسينية خلود الدم وانتصار الحق

❖ **أثر الخطاب العاشورائي في إصلاح الأُمّة وتوحيدها.. الشباب أُنموذجاً**

أ. م. د. سلام ناجي باقر الغضبان / م. م. إيثار عبد المحسن المياحي ٣٧

❖ **الأهداف السياسية وانتماؤها التاريخي لمحيط النهضة الحسينية**

الشيخ قيصر التميمي ٦٩

❖ **محاربة الأنظمة المستبدة للشعائر الحسينية عبر التاريخ.. الأساليب والدواعي**

محمد الدومي ٩٩

❖ **نشأة المراسم الحسينيّة في كتاب (تراجيديا كربلاء).. نقدٌ وتحليل**

الشيخ صباح عبّاس الساعدي..... ١١٧

❖ **العنف والإرهاب في أصول الإسلام الوهابي ــ الهجوم على مدينة كربلاء أُنموذجاً.**

الشيخ ماهر الحكاك ١٣٧

محطات فكرية معرفية

❖ **الوزير ابن العلقمي المفترى عليه في سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ**

د. محمد العبادي..... ١٥٥

❖ **الأسس المنهجية لتقسيم المدارس الاستشراقية نقد وتأصيل**

أ. حسن علي الهاشمي ١٦٩

من عبق الفكر المقاوم

الشيخ فاضل راضي
باحث اسلامي / حوزة النجف الأشرف

نهضة الاصلاح الحسيني

معطياتها، أهدافها، والدروس المستفادة في كلمات الامام الخامنئي

الإمام الحسين عليه السلام لدى خروجه من المدينة كتب وصيته التاريخية لأخيه محمد بن الحنفية والتي قال فيها: «**إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي**».

فأبو عبد الله عليه السلام قد أوصى أخاه محمداً بن الحنفية، مرّتين: الأولى عند خروجه من المدينة، والثانية عند خروجه من مكّة، وأتصوّر أنّ هذه الوصيّة كانت عند خروجه من مكّة في شهر ذي الحجّة ـ فبعد الشهادة بوحدانية الله ورسالة النبي صلى الله عليه وآله و... يقول الإمام عليه السلام: «**وإنّي ما خرجت أشراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مفسداً وإنّما خرجت أريد الإصلاح في أمّة جدّي**» أي أريد الثورة لأجل الإصلاح لا للوصول إلى الحكم حتماً أو للشهادة حتماً، والإصلاح ليس بالأمر الهيّن، فقد تكون الظروف بصورة بحيث يصل الإنسان إلى سدّة الحكم ويمسك بزمام السلطة وقد لا يمكنه ذلك ويستشهد، وفي كلتا الحالتين فالثورة تكون لأجل الإصلاح. ثمّ يقول عليه السلام: «**أريد أن آمر بالمعروف**

وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدّي».

والإصلاح يتمّ عن هذا الطريق، وهو ما قلنا إنّه مصداق للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إنَّ الحسين بن علي عليه السلام لم يتوجه إلى كربلاء بهدف القتال؛ فالذي يذهب إلى ميدان القتال لابد له من الجنود؛ ولكن الإمام الحسين بن علي عليه السلام كان قد حمل معه أهل بيته من النساء والأطفال، مما يعني أن حادثة ستقع في ذلك المكان وستدغدغ عواطف البشرية على طول التاريخ حتى تتضح عظمة ما قام به الإمام الحسين.. لقد كان الإمام الحسين يعلم أن أعداءه حقراء وسفهاء، وكان يرى أن الذين جاؤوا لقتاله ليسوا سوى شرذمة من أراذل وأوباش الكوفة طمعاً في الحصول على عطية تافهة وحقيرة هي التي دفعتهم إلى هذا المسلك وارتكاب مثل هذه الجريمة العظمى، وكان يعلم بما سيحلّ بنسائه وأبنائه. فالإمام الحسين لم يكن غافلاً عن كل هذا، ولكنه لم يكن مستعداً للاستسلام والعودة عن قراره، بل كان يحثّ على مواصلة السير مما يدل على أهمية هذا الطريق وعظمة هذا العمل.

لقد وردت عبارة في زيارة أربعين الإمام الحسين (عليه الصلاة والسلام) تنطوي على مغزى عميق وهي جديرة بالتأمل والتدبر كسواها من العبارات الكثيرة الواردة في مثل هذه الزيارات والأدعية... وإنها ناظرة إلى أهداف النهضة الحسينية. وهذه العبارة هي «**وبذل مهجته فيك**». وقد وردت في زيارة الأربعين التي تأتي فقراتها الأولى على صورة دعاء يناجي به المتكلم المولى سبحانه وتعالى فيقول «**وبذل مهجته فيك**» أي الحسين بن علي عليهما السلام «**ليستنقذ عبادك من الجهالة وحيرة الضلالة**». فهذا هو أحد جوانب القضية وهو المتعلق بصاحب النهضة أي الحسين بن علي عليه السلام. وأما الجانب الآخر فيرد في الفقرة التالية التي تقول «**وقد توازر عليه من غرّته الدنيا وباع حظه بالأرذل الأدنى**» في وصف للواقفين على الجبهة المضادة، وهم الذين غرتهم الدنيا بالمطامع المادية والزخارف والشهوات والأهواء النفسية فباعوا حظهم من السعادة الدنيوية والأخروية بالأرذل الأدنى. وهذه هي خلاصة النهضة الحسينية.

أبعاد حركة الإمام الحسين عليه السلام

يدرك المرء أن بإمكانه النظر إلى النهضة الحسينية بمنظارين في الواقع، وكلاهما صحيح، سوى أن مجموعهما يكشف عن الأبعاد العظيمة لهذه النهضة؛ فالنظرة الأولى

تكشف عن الحركة الظاهرية للحسين بن علي عليهما السلام، والتي قام بها في مواجهة حكومة فاسدة ومنحرفة وظالمة وقمعية وهي حكومة يزيد. وأما باطن القضية وعمقها فتكشف عنه النظرة الثانية، وهي الحركة الأعظم والأعمق، لأنها ضد جهل الإنسان وضلالته. فمع أن الإمام الحسين قام بمقارعة يزيد في الواقع، إلا أن هذه المقارعة الواسعة التاريخية لم تكن ضد يزيد الفرد الفاني الذي لا يساوي شيئاً، بل كانت ضد جهل الإنسان وانحطاطه وضلالته وذلّه، وهو ما يكافحه الإمام الحسين في الحقيقة.

لنهضة الإمام الحسين بعدان آخران يمكن أن يسفر كل منهما عن نتيجة طيبة؛

الأول: أن يستطيع الإمام الحسين عليه السلام التغلب على حكومة يزيد واسترداد السلطة من يد أولئك الذين يقمعون الناس ويتلاعبون بمصيرهم ووضع الأمور في نصابها الصحيح؛ فلو كان قد حدث ذلك لتغيرت مسيرة التاريخ.

وأما الثاني: عدم تمكن الإمام الحسين من إحراز هذا النصر السياسي والعسكري لأي سبب من الأسباب، وعندئذ لم يكن أمامه سوى استبدال القول بالدم والمظلومية وتحمّل الخسارة التي لن ينساها التاريخ على مدى الزمان، لتبقى كلمته تياراً جارفاً لا ينقطع إلى أبد الدهر. وهذا هو ما فعله الإمام الحسين.

وفي الحقيقة لو كان الذين يدعون الإمام قد وقفوا موقفاً آخر غير الذي اتخذوه مع الإمام الحسين عليه السلام لتحقق البعد الأول للثورة ولاستطاع الإمام إصلاح الدنيا والآخرة في ذلك الوقت، ولكنهم قصروا في حقه!

أما لماذا قصروا، وكيف قصروا، فإن ذلك من الأبحاث الطويلة والمريرة، وقد تحدثت عن بعض جوانبه منذ عدة سنوات تحت عنوان (الخواص والعوام)؛ أي من الذين قصروا، وعلى من يقع هذا التقصير، وكيف كان، وأين كان؟ وهو ما لا أريد الخوض فيه مرة أخرى.. وعلى هذا الأساس فقد وقع التقصير من البعض وهو ما حال دون تحقق الهدف الأول، بينما تحقق الهدف الثاني، وهو ما لم يكن بوسع أية قوة كانت سلبه من الإمام الحسين عليه السلام، حيث إن قوة التوجه إلى ميدان الشهادة، والتضحية بالنفس والأعزة، هو ذلك الحدث العظيم الذي تضاءلت وتلاشت أمام عظمته قوة العدو وجبروته، وهو الذي يمنح الشمس المزيد من الازدهار والتألّق يوماً بعد آخر في عالم الإسلام ويحيط بكل البشرية.

خصائص واقعة كربلاء

علينا الإمعان والتأمّل قليلاً في قضية الإمام الحسين عليه السلام.

لقد ثار الكثيرون في العالم وقتلوا وكان لهم قادة، وكان بينهم الكثير من أبناء الأنبياء والأئمة عليهم السلام، لكن سيد الشهداء عليه السلام فرد واحد، وواقعة كربلاء فريدة في نوعها، ومكانة شهداء كربلاء منحصرة بهم، لماذا؟

يجب البحث عن الإجابة في طبيعة هذه الواقعة لتكون لنا درساً.

إن إحدى خصائص هذه الواقعة هي أنَّ خروج الإمام الحسين عليه السلام كان خالصاً للّه، ولإصلاح المجتمع الإسلامي، وهذه خصيصة هامّة.. فعندما يقول الإمام عليه السلام: «**إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مفسداً**» فمعناه أن ثورتي لم تكن للرياء والغرور وليست فيها ذرّة من الظلم والفساد، بل «**إنّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي**» أي أن هدفي هو الإصلاح فقط ولا غير.

إن القرآن الكريم حينما يخاطب المسلمين في صدر الإسلام يقول: ﴿**ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس**﴾، وهنا الإمام عليه السلام يقول: «**إني لم أخرج أشراً ولا بطراً**». تأمّلوا جيداً، فهنا نهجان وخطّان.. القرآن يقول لا تكونوا مثل الذين خرجوا «**بطراً**» أي غروراً وتكبّراً، ولا أثر للإخلاص في تحرّكهم، وإنّما المطروح في هذا المنهج الفاسد هو «**الأنا**» و«**الذات**»، و«**رئاء الناس**»، أي انّه تزيَّنَ ولبس الحلي وامتطى جواداً غالياً وخرج من مكّة وهو يرتجز، إلى أين؟ إلى الحرب، التي يهلك فيها أمثال هؤلاء أيضاً، فهذا خطّ.

وهناك خطّ ونهج آخر ومثاله ثورة الإمام الحسين عليه السلام، والتي لا وجود للـ «**أنا**» وللـ «**ذات**» والمصالح الشخصية والقومية والحزبية فيها أبداً، إذاً هذه أول خصّيصة من خصائص ثورة الحسين بن علي عليه السلام.

فكلّما ازداد الإخلاص في أعمالنا كلّما ازدادت قيمتها، وكلّما ابتعدنا عن الإخلاص كلّما اقتربنا من الغرور والرياء والعمل للمصالح الشخصية والقومية، وكلّما ازدادت الشوائب في الشيء كلّما أسرع في الفساد، فلو كان نقيّاً وخالصاً لما فسد أبداً.

وإنْ أردنا إعطاء مثال بالأمور المحسوسة، نقول: إذا كان الذهب خالصاً ونقياً فلا يقبل الفساد والصدأ أبداً، وإنْ كان مخلوطاً بالنحاس والحديد وبقية المواد الرخيصة الثمن، احتمل الفساد أكثر، فهذا في المادّيات.. أمّا في

المعنويات فانّ هذه المعادلة أكثر دقّة، إنما نحن لا نفهمها بسبب نظرتنا المادية، لكن يدركها أهل الفن والبصيرة، وانّ اللّه تعالى هو الناقد في هذه الواقعة، «**فانّ الناقد بصير**»، فوجود شائبة بمقدار رأس إبرة في العمل يقلّل من قيمة العمل بالمقدار نفسه، وحركة الإمام الحسين عليه السلام من الأعمال التي ليست فيها شائبة ولو بمقدار رأس إبرة، لذا هو باقٍ إلى الآن وسيبقى خالداً إلى الأبد.

فمن توقّع خلود اسم وذكر أبي عبد اللّه الحسين عليه السلام وأنصاره في التاريخ؟ أولئك الذين قُتِلوا غرباء في تلك الصحراء وحيث دفنوا فيها رغم كلّ الإعلام المعادي في ذلك الوقت، وكيف أنهم أحرقوا المدينة بعد استشهاد هذا العظيم بسنة في واقعة الحرّة، أي أنهم نتفوا الورود بعد أن خرّبوا الروضة، فمن توقّع أن يفوح عطرها؟ وبأيّة قاعدة مادّية يُتصور بقاء وردة في هذه الروضة؟ لكن تلاحظون انّه كلما مرّ الزمان عليها كلّما أصبحت تلك الروضة أكثر عطراً.

فهناك أناس لا يعتقدون بالنبى صلى الله عليه وآله الذي هو جدّ الحسين عليه السلام والحسين سائر على نهجه، ولا يعتقدون بأبيه على عليه السلام ولا يؤمنون بحرب الحسين عليه السلام، لكنهم يقبلون الحسين عليه السلام ويعظّمونه، فهذا هو الخلوص.

وفي ثورتنا العظيمة كان الإخلاص سبباً لبقائها، ذلك الجوهر الخالص الذي كان الإمام مظهره. ارجعوا إلى تلك الذكريات وتلك التضحيات في سوح الحرب، ذلك الحر المهلك في الصحاري والبراري، ذلك الشتاء القارس في الجبال، ذلك الرعب والخوف والخطر المستمر في سوح القتال، تلك المحاصرة، قلة القوات التي كنّا نتحمّس كثيراً لإعداد عدد قليل منها، عدم امتلاك الأسلحة حيث كنا نركض وراء مسدس أو قذيفة.. تذكّروا كلّ هذا واستشعروا تلك الأيام، لتدركوا لماذا كانت كلّ هذه المؤامرات ضدّ الثورة؟ ولماذا تستمر إلى الآن؟ لكن بقيت هذه الشجرة راسخة.

إن هذا الجوهر (الإخلاص) هو الذي حفظها، إن إخلاص الإمام الخميني (رض) والشعب خاصة إخلاص أولئك المقاتلين في سوح القتال... هو الذي حفظ الثورة ودعم استمرارها، إذاً هذه نقطة يجب الاهتمام بها دائماً، وأنا أحوج من غيري إلى هذا الاهتمام.

إن النقطة الأخرى في ثورة الحسين عليه السلام ـ وهي مهمة أيضاً ـ وهذه النقطة وإنْ كانت ترجع إلى قوة الإخلاص، لكنها فى نفسها مهمة نظراً لوضعنا اليوم.. هي غربة الحسين عليه السلام، فلا يوجد في أيّة واقعة من الوقائع الدامية في صدر

الإسلام غربة ووحدة كما في واقعة كربلاء، فمن رغب فليتأمل في تاريخ الإسلام.

إنني أمعنت جيداً فلم أجد واقعة كواقعة كربلاء.. ففي حوادث صدر الإسلام وغزوات النبي ﷺ وحروب أمير المؤمنين عليه السلام كانت حكومة ودولة وجنود يشاركون في الحرب، ومن ورائهم أدعية الأمهات، آمال الأخوات، تقدير الحضور وتشجيع القيادة العظيمة للنبي ﷺ أو لأمير المؤمنين عليه السلام، كانوا يضحّون بأنفسهم أمام النبي ﷺ، وهذا ليس صعباً.

فكم من شبابنا قدّموا أرواحهم لدى سماعهم نداءاً من الإمام الخميني، وكم منّا من يأمل في إشارة من الولي الغائب عجل الله فرجه لنضحّي بأنفسنا.. فعندما يرى الإنسان القائد بعينه ويشاهد تقدير وثناء من خلفه ويعلم انه يقاتل ليهزم العدو ويأمل بالنصر، فإنّه يقاتل براحة أكبر، وهكذا حرب ليست صعبة، طبعاً هناك حوادث فى التاريخ فيها الغربة نسبياً كحوادث أبناء الأئمة والحسنيّون في عصر الأئمة عليهم السلام، لكن هؤلاء كانوا يعملون فى ظلّ إمام كالإمام الصادق عليه السلام، والإمام موسى بن جعفر عليهما السلام، والإمام الثامن عليه السلام، وقائدهم وسيّدهم حاضر يسندهم ويتفقّد عيالهم، فكان الإمام الصادق عليه السلام يأمرهم بقتال الحكام الفسدة ويقول «**وعليّ نفقة عياله**» وكان المجتمع الشيعي ظهراً لهم، وبالنهاية كان لهم أمل خلف ساحات الحرب، لكن في واقعة كربلاء، فانّ أس القضية ولب لُباب الإسلام المقبول من الجميع أي الإمام الحسين عليه السلام في ميدان الحرب، ويعلم هو وأصحابه انه سيستشهد ولا أمل له في أي أحد في هذا العالم الواسع وهو غريب ووحيد. ومن "رجالات الإسلام" ذلك اليوم من لا يغتمّ لقتل الحسين عليه السلام بل يعتبر وجوده مضراً بحاله، ومنهم من لا يبالي بالقضية وإن حزن لقتله عليه السلام (كعبد اللّه بن جعفر وعبد اللّه بن عباس وأمثالهم).

فلم يكن للإمام عليه السلام أدنى أمل بمن هم خارج ميدان القتال المليء بالمحن، فما كان موجوداً فهو في ميدان القتال فقط. والأمل مقتصر على هذا الجمع، والجمع مسلّم للشهادة، وبعد الاستشهاد لا يقام لهم مجلس فاتحة حسب الموازين الظاهرية، فيزيد متسلّط على كلّ شيء، وتُساق نسائهم أسرى ولا يُرْحَم أطفالهم «**لا يوم كيومك يا أبا عبد اللّه**» فلولا الإيمان والإخلاص والنور الإلهي في قلب الحسين ابن علي عليهما السلام والذي بعث الحرارة في قلوب الصفوة المؤمنة حوله لما تحقّقت تلك الواقعة، فانظروا إلى عظمة هذه الواقعة.

منزلة شهداء واقعة كربلاء

يمكن مقارنة شهدائنا بشهداء بدر وحنين وأُحد وشهداء صفين والجمل، بل شهدائنا أرفع منزلة من كثير من هؤلاء الشهداء، لكن بشهداء كربلاء، فلا..

فلا يقارن أحد بشهداء كربلاء، لا اليوم ولا في الماضي، لا في صدر الإسلام ولا أبداً إلى أن يشاء اللّه.. إنّ هؤلاء هم صفوة الشهداء، فلا نظير لعلي الأكبر ولحبيب بن مُظاهر. فهذه واقعة كربلاء وهذه هي القاعدة الراسخة والمتينة التي حفظت الإسلام على مدى ألف وثلاثمائة وعدّة سنوات رغم كلّ العداء له.. فهل تتصورون أن الإسلام يبقى لولا تلك الشهادة وذلك اليوم وتلك الواقعة العظمي؟

تيقّنوا بمحو الإسلام في أتون الأحداث، نعم قد يبقى العنوان كدين تاريخي مع عدد قليل من الأتباع في زاوية من زوايا العالم، وقد يبقى اسم وذكر للإسلام لكن تمحى حقيقته.. انظروا إلى الإسلام في هذا العصر كيف انّه حيّ وبنّاء.. وكيف تتفاءل الشعوب بأنواره الساطعة بعد (١٤٠٠) سنة، وكلّ هذا من بركات واقعة كربلاء ومن استشهاد الإمام الحسين عليه السلام.

عزة وشموخ الإمام الحسين عليه السلام

إن سلوك الإمام الحسين منذ خروجه من المدينة وحتى يوم استشهاده في كربلاء كان منطوياً على المعنويات والعزة والشموخ وفي نفس الوقت مغموراً بالعبودية والتسليم المطلق لأمر الله، وهكذا كان دائماً وفي كل المراحل.

ففي ذلك اليوم الذي جاءته مئات وربما آلاف الرسائل تحمل نداء القائلين بأنهم شيعته وأنصاره وأنهم في الكوفة والعراق بانتظار وصوله، فإنه لم يصب بالغرور. وعندما قال «**خطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة**» فإنه كان يتحدث عن الموت ولم يهدد الأعداء وينذرهم بالويل والثبور، كما أنه لم يقم بترغيب أصحابه ولم يقم بتقسيم مناصب الكوفة بينهم.

لقد كانت حركته حركة إسلامية مفعمة بالعلم والمعرفة والعبودية والتواضع في ذلك اليوم الذي مد فيه الجميع إليه أيديهم وأظهروا له الود والإخلاص. وحتى في كربلاء عندما حاصره ثلاثون ألفاً من الأراذل والأوباش مع أصحابه الذين لم يبلغوا المائة وهددوه هو ومن معه من أعزائه بالموت، كما هددوا نساءه وحرمه بالأسر، فإن هذا الرجل الإلهي والعبد الرباني العزيز في الإسلام لم تبد عليه ذرة من

الاضطراب.

يقول ذلك الراوي الذي ينقل أحداث يوم عاشوراء التي تناقلتها الألسن والكتب «**فو الله ما رأيت مكسوراً أربط جأشاً من الحسين**». فالإنسان يلتقي الكثيرين في ميادين الحرب المختلفة وفي الساحات الاجتماعية والعرصات السياسية وسواها من المجالات الأخرى التي تضم ذوي الابتلاءات المختلفة؛ ولكن الراوي يحكي عن عدم مشاهدته لأحد مثل الحسين بن علي في موقفه هذا، حيث نزلت عليه شتى المصائب، غير أنه واجهها بوجه مستبشر قاطع، مما يدل على قوة العزيمة ورسوخ الإرادة والتوكل على الله.. فهذه هي العزة الإلهية، وهذا هو الموقف الذي خطّه الإمام الحسين في سجل التاريخ.

إن الحسين عليه السلام مصباح الهدى وسفينة النجاة

لقد قيل الكثير عن نهضة هذا العظيم، لكنّ الإنسان كلّما فكّر وتدبّر في هذا الموضوع، كلّما اتّسع مجال التفكير والبحث والتحقيق والمطالعة عنده، فقد بقي الكثير ممّا لم يقال عن هذه الحادثة العظيمة والعجيبة الّتي لا نظير لها. فعلينا أن نتدبّر ونتفكّر فيه ثمّ نقوله للآخرين.

لو نظرنا الحادثة منذ أن خرج أبو عبد الله عليه السلام من المدينة وتوجّه نحو مكّة إلى أن استُشهد في كربلاء، لأمكننا أن نقول إنّ الإنسان يستطيع عدّ مائة درس مهمّ في هذا التحرّك الّذي استمرّ شهراً فقط. ولا أودّ القول آلاف الدروس وإن أمكن قول ذلك حيث تعتبر كلّ إشارة من ذلك الإمام العظيم درساً، لكن عندما نقول مائة درس أي لو أردنا أن ندقّق في هذه الأعمال لأمكننا استقصاء مائة عنوان وفصل، وكلّ فصل يعتبر درساً لأمة وتاريخ وبلد ولتربية النفس وإدارة المجتمع وللتقرّب إلى الله.

هكذا هو الحسين بن علي (أرواحنا فداه وفداء اسمه وذكره) كالشمس الساطعة بين القديسين، أي إن كان الأنبياء والأئمّة والشهداء والصالحين كالأقمار والأنجم، فالحسين عليه السلام كالشمس الطالعة بينهم.

وإلى جانب المائة درس هذه، هناك درس رئيسى فى هذا التحرّك، سأسعى لتوضيحه لكم وهو لماذا ثار الحسين عليه السلام؟ لماذا ثرت يا حسين رغم كونك شخصيّة لها احترامها في المدينة ومكّة، ولك شيعتك في اليمن، إذهب إلى مكان لا عليك بيزيد ولا ليزيد عليك شيء، تعيش وتعبد الله وتبلِّغ؟

هذا هو السؤال والدرس الرئيسي، ولا نقول

إنّ أحداً لم يشر إلى هذا الأمر من قبل، فقد حقّقوا وتحدّثوا كثيراً في هذه القضيّة، وما نودّ قوله اليوم ـ وفي رأيي ـ هو استنتاج جامع ورؤية جديدة للقضيّة.

إنّ البعض يقول: إنّ هدف ثورة أبي عبد الله الحسين عليه السلام هو إسقاط حكومة يزيد الفاسدة وإقامة حكومة بدلها.

هذا القول شبه صحيح وليس خطأ، لأنّه لو كان القصد من هذا الكلام هو أنّ الحسين عليه السلام ثار لأجل إقامة حكومة وعندما يرى عدم إمكانيّة ذلك، يقول لم نتمكّن من ذلك، فلنرجع.

إنّ من يثور لأجل إقامة حكومة، سيستمرّ مادام يرى إمكانية ذلك، فإن احتمل عدم الإمكان أو عدم وجود احتمال عقلائي، فوظيفته أن يرجع. فالّذي يقول إنّ هدف الإمام عليه السلام من هذه الثورة هو إقامة الحكومة العلويّة الحقّة، فهذا غير صحيح؛ لأنّ مجموع هذا التحرّك لا يدلّ على ذلك. وسأبين ذلك لاحقاً.

والبعض على العكس من ذلك، قالوا: ما الحكومة؟ إنّ الحسين كان يعلم بعدم تمكّنه من إقامة الحكومة، إنّه جاء لأجل أن يقتل ويستشهد.. لقد شاع هذا الكلام على الألسن كثيراً فترةً من الزمن، وكان البعض يصنع ذلك بتعابير جميلة، ثمّ رأيت أنّ بعض كبار العلماء قد قالوا ذلك أيضاً، فهذا لا يعتبر كلاماً جديداً وهو أنّ الإمام عليه السلام ثار لأجل أن يستشهد، لأنّه رأى أنّه لا يمكنه عمل شيء بالبقاء، فقال يجب أن أعمل شيئاً بالشهادة.

هذا الرأي أيضاً لا يوجد في المصادر الشرعيّة الإسلاميّة ما يؤيّد حجّة إلقاء الإنسان نفسه للقتل. إنّ الشهادة الّتي نعرفها في الشرع المقدّس والآيات والروايات معناها أن يتحرّك الإنسان ويستقبل الموت لأجل هدف مقدّس واجب أو راجح، هذه هي الشهادة الإسلاميّة الصحيحة. أمّا أن يتحرّك الإنسان لأجل أن يقتل فلا، إذن هذا الأمر وإن كان فيه جانباً من الحقيقة لكن لم يكن هدف الحسين عليه السلام.

إذن ــ باختصار ـ لا يمكننا القول: إنّ الحسين عليه السلام ثار لأجل إقامة الحكومة، ولا أن نقول: إنّه ثار لأجل أن يستشهد. وإنّني أتصوّر أنّ القائلين بأنّ الهدف هو الحكومة أو الهدف هو الشهادة قد خلطوا بين الهدف والنتيجة. فالهدف لم يكن ذلك، بل كان للإمام الحسين عليه السلام هدف آخر، كان الوصول إليه يتطلّب طريقاً وحركة تنتهي بإحدى النتيجتين: الحكومة أو الشهادة، وكان الإمام مستعدّاً لكلتا النتيجتين، فقد أعدّ مقدّمات الحكم وكذا مقدّمات الشهادة،

فإذا تحقّق أيّ منهما، كان صحيحاً، لكن لم يكن أيّ منهما هدفاً، بل كانا نتيجتين.

إذن ما هو الهدف؟ أقول باختصار ثم أبدأ بتوضيحه قليلاً.

لو أردنا بيان هدف الإمام الحسين عليه السلام، فينبغي أن نقول هكذا: إنّ هدف ذلك العظيم كان أداء واجب عظيم من واجبات الدين لم يؤدّه أحد قبله، لا النبي صلى الله عليه وآله ولا أمير المؤمنين عليه السلام ولا الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، واجب يحتلّ مكاناً مهمّاً في البناء العام للنظام الفكري والقيمي والعملي للإسلام. ورغم أنّ هذا الواجب مهمّ وأساسي، لكنّه لماذا لم يُقَمْ بهذا الواجب حتّى عهد الإمام الحسين عليه السلام؟ كان ينبغي على الإمام الحسين عليه السلام القيام بهذا الواجب ليكون درساً على مرّ التاريخ، مثلما أنّ تأسيس النبي صلى الله عليه وآله للحكومة الإسلاميّة أصبح درساً على مرّ تاريخ الإسلام، ومثلما أصبح جهاد النبي صلى الله عليه وآله في سبيل الله درساً على مرّ تاريخ المسلمين وتاريخ البشريّة إلى الأبد. فكان ينبغي أن يُودّي الإمام الحسين عليه السلام هذا الواجب ليصبح درساً عمليّاً للمسلمين على مرّ التاريخ.

ولماذا قام الإمام الحسين عليه السلام بهذا الواجب؟ لأنّ أرضية هذا العمل قد مُهِّدت في زمن الإمام الحسين عليه السلام، فلو لم تمهّد هذه الأرضيّة في زمن الإمام الحسين عليه السلام، كأن مُهّدت ـ وعلى سبيل المثال ـ في زمن الإمام علي الهادي عليه السلام لقام الإمام علي الهادي عليه السلام بهذا الواجب، لصار هو ذبيح الإسلام العظيم، ولو حدث ذلك في زمن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام لقام به، أو حدث في عصر الإمام الصادق عليه السلام لقام به الإمام الصادق عليه السلام، لكنّ لم يحدث ذلك في زمن الأئمّة حتّى عصر الغيبة إلاّ في عصر الإمام الحسين عليه السلام.

إذن كان الهدف أداء هذا الواجب، فعندها تكون نتيجة أداء الواجب أحد الأمرين إمّا الوصول إلى الحكم والسلطة وكان الإمام الحسين عليه السلام مستعدّاً لذلك؛ ليعود المجتمع كما كان عليه في عصر رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام، أو يصل إلى الشهادة وكان الإمام الحسين مستعدّاً لها أيضاً.

فإنّ الله قد خلق الحسين والأئمة بحيث يتحمّلون مثل هذه الشهادة لمثل لهذا الأمر، وقد تحمّل الإمام الحسين عليه السلام ذلك.. وهذا خلاصة الأمر.

وأمّا توضيح ذلك:

انظروا أيّها الإخوة والأخوات، إنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله عندما بعث، أتى بمجموعة من

الأحكام، بعضها فرديّة لإصلاح الفرد، وبعضها اجتماعية لبناء المجتمعات البشريّة وإدارة الحياة البشريّة. هذه المجموعة من الأحكام يقال لها النظام الإسلامي.

فعندما نزل الإسلام على القلب المقدّس للنبيّ الأكرم ﷺ، فجاء بالصلاة والصوم والزكاة والإنفاقات والحجّ والأحكام الأسرية والعلاقات الفرديّة، ثمّ جاء بالجهاد في سبيل الله وإقامة الحكومة والنظام الاقتصادي وعلاقات الحاكم بالرعيّة ووظائف الرعية تجاه الحاكم. هذه المجموعة من الأحكام عرضها الإسلام على البشر، وبيّنها النبي الأكرم ﷺ: «**ما من شيء يقرّبكم إلى الجنّة ويبعدكم من النار إلاّ وقد أمرتكم به**». ولم يبيّن النبيّ الأكرم ﷺ كلّ ما يسعد الإنسان والمجتمع الإنساني فحسب، بل طبّقها وعمل بها، فقد أقام الحكومة الإسلاميّة والمجتمع الإسلامي، وطبّق الاقتصاد الإسلامي، وأقيم الجهاد واستحصلت الزكاة، فشيّد نظاماً إسلاميّاً وأصبح النبيّ الأكرم ﷺ وخليفته من بعده معمار وقائد هذا النظام.

كان الطريق واضحاً وبيّناً، فوجب على الفرد وعلى المجتمع الإسلامي أن يسير في هذا الطريق وعلى هذا النهج، فإن كان كذلك بلغ الناس الكمال، أصبحوا صالحين كالملائكة، وذهب الظلم والشرّ والفساد والفرقة والفقر والجهل بين الناس، ووصل الناس إلى السعادة الكاملة ليصبحوا عباد الله الكُمّل.

حسناً، يبقى ـ هنا ـ سؤال وهو: لو قامت يد أو حادثة القطار الّذي وضعه النبي الأكرم ﷺ على سكته، فما هو التكليف؟.. لو انحرف المجتمع الإسلامي وبلغ الانحراف درجةً بحيث يخاف معه انحراف أصل الإسلام والمبادئ الإسلاميّة ـ لأنّ الانحراف على قسمين، فتارة ينحرف الناس، وهذا ما يقع كثيراً، لكن تبقى أحكام الإسلام سليمة، وتارة ينحرف الناس ويفسد الحكّام والعلماء ومبلّغو الدِّين، فيحرّفوا القرآن والحقائق، وتبدّل الحسنات سيّئات والسيّئات حسنات، ويصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً، ويحرَّف الإسلام ١٨٠ درجة ـ فلو أُبتلي النظام والمجتمع الإسلامي بمثل هذا الأمر، فما هو التكليف حينئذ؟

لقد بيّن النبي ﷺ وحدّد القرآن التكليف (من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبّهم ويحبّونه أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم). إضافة إلى آيات وروايات كثيرة أخرى.

لكن هل تمكّن النبي ﷺ من العمل بهذا الحكم الإلهي؟ كلاّ، لأنّ هذا الحكم الإسلامي يُطبّق في عصر ينحرف فيه المجتمع الإسلامي ويبلغ حدّاً يخاف فيه من ضياع أصل الإسلام، والمجتمع الإسلامي لم ينحرف في عهد رسول الله ﷺ، ولم ينحرف في عهد أمير المؤمنين بتلك الصورة، وكذا في عهد الإمام الحسن عليه السلام عندما كان معاوية على رأس السلطة، وإن ظهرت الكثير من علائم ذلك الانحراف، لكنّه لم يبلغ الحدّ الّذي يخاف فيه على أصل الإسلام.. نعم، يمكن أن يقال إنّه بلغ في برهة من الزمن الحدّ، لكن في تلك الفترة لم تتاح الفرصة ولم يكن الوقت مناسباً للقيام بهذا الأمر.

إنّ هذا الحكم الّذي يعتبر من الأحكام الإسلاميّة لا يقلّ أهمّية عن الحكومة ذاتها، لأنّ الحكومة تعني إدارة المجتمع، فلو انحرف المجتمع وفسد، وتعطّل الحكم الإلهي، ولم يوجد عندنا حكم وجوب تغيير الوضع وتجديد الحياة أو بتعبير اليوم (الثورة)، فما الفائدة في الحكومة في الإسلام. فالحكم الّذي يرتبط بإرجاع المجتمع المنحرف إلى الخطّ الصحيح لا يقلّ أهمّية عن الحكومة ذاتها، ويمكن أن يقال إنّه أكثر أهمّية من جهاد الكفّار ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الطبيعيين في المجتمع الإسلامي، بل وحتّى من العبادات الإلهيّة العظيمة كالحج. لماذا؟ لأنّ هذا الحكم ـ في الحقيقة ـ يضمن إحياء الإسلام بعد أن أشرف على الموت أو مات وانتهى.. حسناً، مَنْ الّذي يجب عليه أداء هذا الحكم وهذا التكليف؟

خلود واقعة كربلاء

بلغ الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه ـ الذين نلطم على صدورنا ونبكي لأجلهم ونحبّهم أكثر من أبنائنا ـ قمة الغربة، وكانت نتيجة ثورته بقاء وحيوية الإسلام الى اليوم.. إذاً واقعة كربلاء حيّة وباقية ليس في قطعة من الأرض صغيرة فقط، وإنّما في مساحة مترامية الأطراف من محيط الحياة البشرية.

إنّ كربلاء موجودة في كلّ شيء؛ في الأدب، في الثقافة، في السنن والآثار، في الاعتقادات، في القلوب.

أ. فراس الشحمانى
باحث واكاديمي من العراق

منهج الإمام الخميني
وأثره في إيجاد روح الإقدام والتصدّي في الأمة بعد حالة الخمول والاستسلام القضية الفلسطينية أُنموذجاً

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، واللعن الدائم على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين، وبعد:

فيعد السيد الإمام الخميني ﷺ من الشخصيات الهامة والكبيرة، التي غيرت مجرى التأريخ، ورسمت ملامح المستقبل للأجيال القادمة، في نجاحه وانتصاره في قيادة أعظم ثورة إسلامية في تأريخنا المعاصر، وما زالت الأجيال تجني ثمار تلك الثورة المباركة، وما زالت الشعوب المستضعفة تدرك أهميتها.

فكل متابع لشخصية الإمام الخميني ﷺ وحركته يجد أنه يمتلك نظرة شاملة بعيدة المدى، وإيماناً راسخاً، وثباتاً منقطع النظير، ومشروعاً إصلاحياً متكاملاً للأمة عامة، ولم يقتصر نظره على إيران فقط، بل تعدى وتجاوز كل الحدود التي وضعها الاستعمار، حاملاً هموم الشعوب المستضعفة في العالم أجمع سيما في عالمنا الإسلامي على نحو الخصوص، بعد أن قبعت الأمة تحت ركام الانهيار، وحطام الانهزام.

ومن هذا المنطلق تحرك الإمام الخميني ﷺ للوصول إلى غايته ومبتغاه، متغلباً على جميع الصعوبات والتحديات التي عرضت له في طريقه الشائك المملوء بالعقبات، إذا ما لحظنا التفاصيل الدقيقة التي واكبت مسيرته.

ولا يسعنا في هذه العجالة الوقوف على كل تفاصيل التحديات التي رافقت حركته الإصلاحية، وإنما نكتفي بالإشارة إليها إجمالاً، فقد واجه الإمام الخميني ﷺ تحديين في غاية الصعوبة والخطورة:

الأول: القيام بالثورة الإسلامية المباركة وتحقيق الانتصار

فالتحدي الأول يكمن في قيادته لثورة انتصر فيها على نظام قوي، يعد آنذاك من أقوى الأنظمة في المنطقة، والمدعومة من أمريكا وإسرائيل وكل دول الاستكبار العالمي، ومع ذلك تغلب عليهم جميعاً، وانتصرت ثورته المباركة، لتنعكس آثارها على جميع الشعوب المستضعفة.

قال الإمام الخامنئي دام ظله: إن قوة الإيمان وقوة الإرادة وقوة القيادة الحكيمة وقوة الثبات والصبر واليقظة لم تتغلب على قوة النظام الطاغوتي فحسب، بل إنها تغلبت أيضاً على قوة أمريكا التي كانت تسانده.[١]

وقال دام ظله أيضاً: الثورة لم تكن أمراً هيناً، بل أنها جاءت ثمرة لنهضة استمرت خمس عشر سنة..[٢]

وقال دام ظله: إن ما يشد الأنظار بالدرجة الأولى على صعيد العالم الإسلامي، هو أن الثورة الإسلامية وبعد مضي ثماني عشرة سنة[٣] على انتصارها غدا الانجذاب إليها وانعكاساتها التاريخية الكبرى أعمق.[٤]

فلم تقتصر ثورة الإمام الخميني ﷺ على الإطاحة بنظام الشاه وحسب، بل كانت تستهدف جميع الأنظمة الظالمة والمهيمنة والمتسلطة على الشعوب الإسلامية، بل على الاستكبار العالمي بنحو عام ومن ضمن ذلك إزالة إسرائيل من الوجود.

قال الإمام الخامنئي دام ظله: ثورتنا لم تدعُ المسلمين فقط للعودة إلى الإسلام، بل كانت مفيدة للمسيحية أيضاً، فكانت هذه مقدمة لسقوط الإمبراطورية الشرقية، وانهيار الحكومة الماركسية في العالم.[٥]

وقال دام ظله أيضاً: لقد بلغت ثورتنا الإسلامية الكبرى، مرحلة من النضوج الكبير هذا اليوم، فإنها إعصار عاصف زعزع قصور الجور في العالم.[٦]

الثاني: الحفاظ على مكتسبات ومنجزات الثورة الإسلامية

التحدي الثاني يكمن في الحفاظ على بقاء وديمومة الجمهورية الإسلامية، وصمودها بوجه كل المؤامرات والاعتداءات والضغوطات التي واجهها الإمام الخميني ﷺ والتي تهدف إلى إسقاط دولته الفتية، وقتل المولود الجديد للنظام الإسلامي في مهده، وكل هذه المخططات كانت من ورائها أمريكا وإسرائيل ودول الاستكبار العالمي، ومن جملة المخططات دفع النظام الصدامي إلى الاعتداء على الجمهورية الإسلامية وجرها للحرب المفروضة، وفي الوقت نفسه التصدي والصمود أمام العمليات الإرهابية التي نفذها المنافقون العملاء ضد رجال الثورة الإسلامية، يصاحب ذلك كله حرباً شاملة في مختلف المجالات تهدف إلى إضعاف الجمهورية الإسلامية وعزلها عن محيطها والعالم أجمع، وحرباً اقتصادية مستمرة إلى يومنا هذا بنحو أشد وأكبر، ولكننا نجد حكمة القيادة في الجمهورية الإسلامية في عصر السيد الإمام الخميني ﷺ وعصرنا الحاضر المتمثلة بسماحة السيد القائد الإمام علي الخامنئي دام ظله قد أفشلت كل المخططات واستطاعت اجتياز كل هذه الصعوبات والوصول بالجمهورية الإسلامية إلى بر الأمان.

وبذلك يكون السيد الإمام الخميني ﷺ قد انتصر على أمريكا ودول الاستكبار مرتين، الأولى في التحدي الأول، والثانية في التحدي الثاني.

قال الإمام الخامنئي دام ظله: إمامنا الكبير ﷺ حذا أولاً حذو الإمام الحسين عليه السلام بالكامل، ولذلك نجح في ايصال الثورة إلى شاطئ النصر، وكان ثانياً سبباً في ضمان ديمومتها من بعده.(٧)

فبعد انتصار الثورة الإسلامية انتقلت إيران من حالة الرضوخ والخضوع والتبعية للإملاءات الأجنبية التي كانت عليها في الأنظمة السابقة إلى حالة الاستقلال الحقيقي والسير في طريق اتخاذ القرار وصنع المستقبل، ولا نريد في هذه العجالة تسليط الضوء على منجزات الثورة الإسلامية المباركة في إيران، فهي واضحة للعيان أمام القاصي والداني، وإذا ما أراد أحدهم أن يقصر نظره، ويرى تنامي قدرتها وقوتها وازدهارها حالياً فهو خير شاهد ودليل على منجزاتها.

وإنما نريد أن نسلط الضوء على أهمية انتصار الثورة الإسلامية العظيمة في إيران وآثارها على كل الشعوب المستضعفة في العالم، والصحوة الإسلامية التي أحدثتها الثورة وبث روح الأمل والمقاومة والدعم الكامل لقضايا الأمة لتحقيق الصمود والانتصار لهذه الشعوب

كما هو واقع في العراق ولبنان وسوريا واليمن وفلسطين وانتصار محور المقاومة على محور الشر الأمريكي في الميادين كافة.

لذلك يعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران بقيادة الإمام الخميني ﷺ نقطة التحول الاستراتيجية الكبرى في المنطقة والعالم، فكل الموازين العالمية اضطربت وتغيرت، وكانت إيران محطة التحول الأولى، فبعدما كانت ترزح تحت نظام ملكي فاسد وعميل وتابع للقوى الاستعمارية تحولت بانتصار الثورة إلى مركز وقاعدة لكل عناوين المواجهة والتحدي والمقاومة والدعم الكامل لكل القضايا العادلة للأمة.

ومن بين هذه القضايا القضية الأم وهي القضية الفلسطينية التي كانت من أولويات السيد الإمام الخميني ﷺ قبل انتصار الثورة الإسلامية في إيران وبعده كما هو موثق في تصريحاته وخطاباته، وسنذكر بعض الشواهد على ذلك لاحقاً.

القضية الفلسطينية

مازال اليهود يحيكون المكائد والدسائس والمؤامرات للمسلمين ويتربصون بهم الدوائر، وعداؤهم للأمة الإسلامية عداءٌ تاريخيٌ، وهذا هو موقفهم أيضاً من سائر الأمم، ولا غرابة اليوم في أفعالهم فماضيهم وحاضرهم واحد في الأحقاد والأنانية والتعصب والمكائد.

وقد تفاقم الصراع المتجذر بين المسلمين واليهود بعد أن اغتصب الصهاينة فلسطين، تلك المساحة من الأرض التي اقتطعوها من جسد الأمة الإسلامية ليعلنوها كياناً صهيونياً لهم، ثم يحاولون بسط سيطرتهم على سائر البلدان الإسلامية.

فصراعنا – المتجذر – مع اليهود لم يكن صراعاً سياسياً وإن ألقى بتداعياته على الجوانب السياسية كما هو الغالب ليكون – فيما بعد – ثمناً في صفقاتها عند حكام البلدان الإسلامية، بل هو صراع يشتمل على أبعاد متعددة أهمها البُعد الديني والعقدي.

ومما تقدم يتضح أننا لا يمكننا التعايش مع هذا الكيان الصهيوني الغاصب الذي زرعته قوى الاستكبار العالمي في جسد الأمة الإسلامية، وأن صراعنا معه صراع مصيري لما يمثله من صراع ديني وعقدي كما تقدم، ولذلك كانت لعلمائنا ومراجعنا العظام مواقف واضحة تجاه الاحتلال الصهيوني والأحداث المتعلقة بالقضية الفلسطينية.

وقد برزت وتميزت مواقف الإمام الخميني ﷺ من بين مواقف العلماء – أعلى الله مقامهم –

إتجاه القضية الفلسطينية بحضورها الدائم والمستمر – قبل انتصار الثورة الإسلامية وبعده – في مواقفه وتصريحاته، وكانت لمواقفه المتتابعة الآثار الكبيرة في اندفاع المسلمين، وإيجاد روح الاقدام والتحدي في الأمة، بعدما وصلت إلى حالة من الضعف والهوان والاستسلام بسبب سياسات ومساومات الأنظمة الحاكمة.

وفيما يأتي نذكر نص البيان الذي أدلى به الإمام المجاهد السيد روح الله الخميني ﷺ إلى وكالة الأنباء العراقية إبان إقامته في النجف الأشرف كما ورد في بعض الصحف العراقية:

أدلى سماحة آية الله العظمى السيد الخميني بتصريح لمراسل وكالة الأنباء العراقية في كربلاء قال فيه: لقد سبق أن دعونا الدول الإسلامية مراراً عديدة إلى الاتحاد والتآلف ورفع الخلافات فيما بينها ليكونوا يداً واحدة في وجه الدول الأجنبية المعادية للأمة الإسلامية وعملائها، كما سبق وأن حذرنا الحكومة الإيرانية بالذات من الانصياع لدويلة اسرائيل الكافرة، وطلبنا إليهم أن يقتلعوا هذه النبتة السامة التي زرعت في قلب الدول الإسلامية وأن يستأصلوا جذور عبثها وفسادها التي تهدد العالم الإسلامي في كل يوم.

وأضاف: أما الآن وبعد أن شنت هذه الطغمة الفاسدة حملتها القاسية ضد الدول الإسلامية وشعوبها على اختلاف قومياتها ولغاتها، أن تتوحد وتبذل كل جهودها وامكانياتها في استئصال الغاصب المعتدي، وأن تكف عن مساعدة اسرائيل والسائرين في ركابها ومناصريها وأن تقطع عنها كل معونة مادية أو معنوية بجميع أشكالها، فتحرم عليها النفط والأسلحة وأن تقطع عنها كل رابطة تجارية وسياسية، وأن تمتنع عن استعمال المنتوجات الاسرائيلية كافة.

وقال سماحته: لتعلم الأمة الإسلامية جمعاء أن المتحالف كما نوهنا به يعتبر عدواً مناهضاً للإسلام والمسلمين، وأننا لنبتهل إلى الله تعالى أن ينصر الأمة الإسلامية على أعدائها في كل مكان.[٨]

فكان الإمام الخميني ﷺ يرفض كل أنواع العلاقات والتطبيع مع الكيان الصهيوني البغيض، وكان ينبه الأمة مراراً على أن قوى الاستكبار العالمي وعلى رأسهم أمريكا هي الداعم الرئيس لإسرائيل سياسياً وعسكرياً واقتصادياً، ويقتضي ذلك اتخاذ المواقف الموحدة التي يصطف فيها كل المسلمين لمواجهة أمريكا ودول الاستكبار والاستعمار، وأنهم السبب في وجود وبقاء إسرائيل، فلا يمكن الركون إليهم أو الوثوق بهم.

ففي خطاب له ﷺ ألقاه عام ١٩٦٤ م قال:

أمريكا هي التي تقف وراء إسرائيل، وأمريكا هي التي تساند إسرائيل لدحر وتشريد العرب والمسلمين.[٩]

وطالما كان الإمام الخميني ﷺ يحذر حكام العرب وشعوبهم من النوايا والمخططات التوسعية للصهيوأميركية، وبين لهم مراراً أن احتلال فلسطين هو بداية لمخطط أكبر، وأن أطماع الصهاينة لا تتوقف عند هذا الحد، بل تتجه أنظارهم إلى أبعد من ذلك، ليحدّوها من النيل إلى الفرات أو أكثر.

فمن أقواله ﷺ في هذا الصدد، قال: يجب أن يعلموا (الزعماء العرب) بأن هدف الدول الاستعمارية الكبرى من إيجاد إسرائيل ليس احتلال فلسطيذن فحسب، بل إن جميع البلدان العربية سوف تبتلى بمصير فلسطين – والعياذ بالله – إن سنحت لهم الفرصة.[١٠]

وقال ﷺ أيضاً: منذ سنوات طوال وأنا أذكر وأحذر المسلمين دائماً في الخطب والمقالات من إسرائيل وجرائمها، ومن أن هذه الغدة السرطانية الموجودة في إحدى زوايا الدول الإسلامية لن تكتفي فقط بالقدس.[١١]

وقال ﷺ في موضع آخر: على الجميع أن يعلموا أن هدف الدول الكبرى من إيجاد إسرائيل لا يتحدد باحتلال فلسطين، فهم – والعياذ بالله – يحاولون عبر هذا المخطط إيصال البلدان العربية لنفس المصير الذي انتهت إليه فلسطين.[١٢]

وقال ﷺ: على قادة الدول أن ينتبهوا إلى أن جرثومة الفساد التي زُرعت في قلب العالم الإسلامي لا يراد من خلالها القضاء على الأمة العربية وحسب، بل إن خطرها وضررها يشمل الشرق الأوسط بأسره، فالمخطط المرسوم يقضي بقيام الصهيونية بالسيطرة والاستيلاء على العالم الإسلامي، واستعمار أوسع للأراضي والمنابع الغنية للبلدان الإسلامية.[١٣]

وقال ﷺ: لا يخفى بأن على قادة الدول الإسلامية – وخصوصاً العربية منها – أن يبذلوا مساعيهم لتوحيد كلمتهم في التصدي لإسرائيل – بؤرة الفساد – وإذا ما تساهلوا في هذا الأمر فقد يجري هذا المخطط – لا سمح الله – على بقية البلدان.[١٤]

وقال ﷺ: لقد كررت القول مراراً بأن إسرائيل لن تتوقف عند حدود معينة، فهي تتقدم خطوة خطوة، وكلما تقدمت خطوة قالت: هذه حدودنا، ثم تخطو في الغد خطوة أوسع، اليوم لبنان وغداً – لا سمح الله – سوريا وبعد غد العراق وهكذا.[١٥]

وقال ﷺ: إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات، أي كل المنطقة التي يسكنها العرب بما فيها الحجاز ومصر، كل ذلك يجب أن يكون جزءً منها، وهؤلاء يتفرجون، بل أن الكثير منهم يبرم الاتفاقيات معها أيضاً، وينوي الاعتراف بها رسمياً إلى غير ذلك.[١٦]

عمل الإمام الخميني ﷺ جاهداً على إحياء روح الإقدام والتصدي في الأمة بعد إصابتها بحالة الخمول واليأس والاستسلام بمجانبة ومواجهة مخططات ومقررات قوى الاستكبار العالمي، لتلتفت الشعوب إلى خطورة تلك المخططات وتستيقظ من سباتها، لأنه كان يعقد آماله على صحوة الشعوب المسلمة، فيخاطبهم ويناديهم ليستنهض هممهم ويوقظ ضمائرهم، كما في قوله ﷺ: " يا مسلمي العالم، ويا أيها المستضعفون الناهضون، ويا أيها البحر البشري اللامتناهي، انهضوا ودافعوا عن كيانكم الإسلامي والوطني، لقد أخذت إسرائيل من المسلمين بيت القدس، وقوبلت بتساهل الحكومات "[١٧] وأمثال ذلك كثير.

فلم تكن القضية الفلسطينية من القضايا المرحلية والآنية العابرة لدى الإمام الخميني ﷺ، بل كان يعدها القضية المحورية الأولى للمسلمين، وتمثل التحدي الأكبر لهم، والأساس الذي جعله يتصدر قائمة أولوياته قبل انتصار الثورة الإسلامية وبعده، وانتصار الثورة يعد بمثابة الانطلاقة العملية الأولى نحو القدس، فبعد انتصار الثورة الإسلامية وكسر إرادة الاستكبار العالمي كانت أنظار الإمام الخميني ﷺ متجهة نحو تحرير فلسطين والقضاء على مخططات ومشاريع الصهاينة، حيث جعلها من الأهداف الثابتة والمرتكزات التي لا تحتمل التسويف ولا تخضع للمساومات مهما كانت العواقب.

فرفض الإمام الخميني ﷺ كل أنواع السلام والتطبيع مع الكيان الصهيوني، وتساهل الحكام العرب وعدم مبالاتهم أو خيانتهم بل تخليهم الصريح عن فلسطين، وهرولتهم نحو التطبيع مع العدو الصهيوني البغيض أو ما يعرف بالسلام مع إسرائيل.

وبدأت وتيرة العمل تتصاعد وتتسارع بعد انتصار الثورة الإسلامية أكثر فأكثر وتجسدت بمجموعة من المواقف العملية والتصريحات، تهدف إلى إخراج ذلك الكيان الغاصب لتلك الأرض الإسلامية على الرغم من كل التحديات التي واجهتها الجمهورية الإسلامية الفتية آنذاك؛ ولذلك بعد أن أدرك أعداء الثورة خطورتها على كيانهم الغاصب عمدوا إلى مواجهة وإشغال

الجمهورية الإسلامية بأساليب وطرق متنوعة، منها: الحرب المفروضة والهدف هو الحيلولة دون الوصول إلى التفرغ الكامل لدعم المقاومة والقضية الفلسطينية.

وهذا ما أشار إليه الإمام الخميني ﷺ بقوله: إن مما يدعو لبالغ الأسف هو أن القوى الكبرى وخصوصاً أمريكا أجبرت إيران القوية – وبتغريرها بصدام للهجوم علينا – أن تتوجه نحو الدفاع عن نفسها لتفسح المجال لإسرائيل المحتلة المجرمة لتنفيذ مخططها المشؤوم...[١٨]

إلا أن كل المخططات والمؤامرات لم تثن الإمام الخميني ﷺ عن دعمه وتأييده للمستضعفين والشعوب المحرومة في كل مكان، ولقضايا الأمة المصيرية وفي مقدمتها القضية الفلسطينية، وقد كانت للإمام الخميني ﷺ مجموعة من المواقف والقرارات الهامة في هذا الخصوص نذكر منها موقفين خالدين:

الموقفان الخالدان

الأول: قطع العلاقات واستبدال السفارة

فمن المواقف الخالدة للقائد العظيم الإمام الخميني ﷺ التي رسمت الملامح الجديدة لإيران بعد انتصار الثورة الإسلامية غلقه للسفارة الإسرائيلية في طهران، واستبدالها بالسفارة الفلسطينية، وتسليمها إلى الفلسطينيين بعد إخلائها من الإسرائيليين، وهي السفارة الفلسطينية الأولى في العالم؛ لأنه يرى حرمة الاعتراف بالكيان الغاصب أو إيجاد العلاقة معهم مهما كانت المسميات وتحت أي عناوين أخرى كالتطبيع والسلام وغيره كما تقدم، ولابد من المضي في طريق الجهاد والمقاومة والرد على جميع الاعتداءات من أجل تحقيق النصر على العدو الصهيوأمريكي، وأن خيار الجهاد والمقاومة هو السبيل الوحيد لتطهير فلسطين من دنس الصهاينة.

ففي الواقع إن صراعنا مع أمريكا وإسرائيل أكبر من القضية الفلسطينية، وإنهم يستهدفون المسلمين في كل مكان، وقد أشرنا إلى أبعاد هذا الصراع سابقاً، أنه صراع عقدي مصيري، وصراع بقاء ووجود.

قال الإمام الخميني ﷺ: إنني أعتبر مشروع الاعتراف بإسرائيل بمثابة الكارثة بالنسبة للمسلمين، وبمثابة الانفجار بالنسبة للحكومات، وإنني أعتبر الإعلان عن معارضة ذلك فريضة إسلامية كبيرة.[١٩]

وقال ﷺ أيضاً: لقد ولدت إسرائيل بفكر مشترك، وتواطؤ بين الشرق والغرب، من أجل

استعمار الشعوب الإسلامية والقضاء عليها، واليوم فإنها مدعومة ومحمية من قبل جميع المستعمرين.[٢٠]

وقال ﷺ: أمريكا تعطي الإمكانيات لإسرائيل من أجل تشريد العرب والمسلمين.[٢١]

الثاني: يوم القدس العالمي

ومن المواقف الهامة والخالدة، التي أراد منها تنبيه الشعوب الإسلامية وتوعيتها ثقافياً وسياسياً إلى أهمية القضية الفلسطينية وتحذيرهم من الخطر الصهيوني الذي يداهم الأمة الإسلامية ولبقاء هذه القضية حاضرة في عقلية الفرد المسلم عمد الإمام الخميني ﷺ إلى إعلان يوم القدس العالمي، وهو يوم الجمعة الأخير من شهر رمضان المبارك في كل عام، حيث يجتمع فيه المسلمون والأحرار عامة أينما كانوا لإحياء ونصرة القضية الفلسطينية، وتجديد العهد معها، لتكون حاضرة لدى الأجيال المتعاقبة، ولتبقى صرخة مدوية تزلزل كيان الصهاينة الغاضب، وعروش الظالمين والمستكبرين؛ ولذا يعد يوم القدس مسيرة للحق في صراعه ضد الباطل، ومسير إلى الخير ضد الشر.

وفيما يأتي نذكر بعض الكلمات للإمام الخميني ﷺ في يوم القدس، منها:

قال ﷺ: أدعو جميع مسلمي العالم إلى اعتبار آخر جمعة من شهر رمضان المبارك التي هي من أيام القدر – ويمكن أن تكون حاسمة في تعيين مصير الشعب الفلسطيني – يوماً للقدس، وأن يعلنوا من خلال مراسم الاتحاد العالمي للمسلمين دفاعهم عن الحقوق القانونية للشعب الفلسطيني المسلم.[٢٢]

وقال ﷺ أيضاً: يوم القدس يوم عالمي، ليس فقط يوماً خاصاً بالقدس، إنه يوم مواجهة المستضعفين مع المستكبرين.[٢٣]

وقال ﷺ: إنه يوم مواجهة الشعوب التي عانت من ظلم أمريكا وغيرها...[٢٤]

وقال ﷺ: إنه اليوم الذي يجب أن يتجهز فيه المستضعفون في مقابل المستكبرين ليمرغوا أنوف المستكبرين في التراب.[٢٥]

وقال ﷺ: في يوم القدس سنتعرف على المتآمرين وعلى الأنظمة التي تساند المؤامرات الدولية وتعارض الإسلام، فمن لا يشارك في هذا اليوم هو معارض للإسلام ومؤيد لإسرائيل، ومن يشارك فهو من المخلصين والمؤيدين للإسلام، والمعارضين للكفار وعلى رأسهم أمريكا وإسرائيل.[٢٦]

وقال ﷺ: على المسلمين أن يعتبروا يوم

القدس يوماً لجميع المسلمين بل لجميع المستضعفين، وأن ينطلقوا من هذه النقطة الحساسة لمواجهة المستكبرين الناهبين للعالم، وألا يسكتوا حتى تحرير المظلومين من ظلم الأقوياء، وعلى المستضعفين الذين يشكلون الغالبية الساحقة من سكان البسيطة أن يتأكدوا أن تحقيق الوعد الإلهي قريب.[٢٧]

وقال ﷺ: يوم القدس مناسبة للتذكير بهذا الهدف، وهو إعلان تقدم المسلمين وتطورهم في جميع دول العالم، يوم القدس ليس يوم فلسطين فحسب، بل هو يوم الإسلام ويوم الحكومة الإسلامية.[٢٨]

وقال ﷺ: يوم القدس هو اليوم الذي يجب أن ننذر القوى العظمى بأن الإسلام لم يعد تحت سيطرتكم ولا تحت سيطرة عملائكم الخبثاء.[٢٩]

وقال ﷺ: إن يوم القدس يوم يجب أن تلتفت فيه كل الشعوب المسلمة إلى بعضها، وأن يجهدوا في إحياء هذا اليوم فلو انطلقت الضجة من كل الشعوب الإسلامية في الجمعة الأخيرة من شهر رمضان المبارك الذي هو يوم القدس، ولو نهضت كل الشعوب وقامت بنفس هذه التظاهرات ونفس هذه المسيرات، فإن هذا الأمر سيكون مقدمة إن شاء الله للوقوف بوجه هؤلاء المفسدين والقضاء عليهم في جميع أرجاء بلاد الإسلام.[٣٠]

المقاومة سبيلنا الوحيد

ومن أبرز النقاط التي ذكرها الإمام الخميني ﷺ وأكد عليها، والتي اختصر فيها المسافات، وحدد بها العلاج الناجع، هو عدم التساهل والانشغال بالمفاوضات السياسية التي لا طائل منها، وترك طريق الجهاد والمقاومة الذي يعد الطريق الوحيد المؤدي إلى استرجاع الحقوق من الصهاينة، وإليكم بعض كلماته التوجيهية التي تمثل رؤيته المتعلقة بهذا الخصوص.

قال الإمام الخميني ﷺ: إن أكثر الحكومات مشغولة بالقيام والقعود والمفاوضات التي لا نتيجة منها تاركين المجاهدين الفلسطينيين الشجعان الذين يقاومون إسرائيل برجولة لوحدهم.[٣١]

وقال ﷺ أيضاً: إن جميع المشاكل التي يعاني منها أخواننا في القدس طوال هذه المدة إنما هي نتيجة لتساهل الرؤساء العرب.[٣٢]

وقال ﷺ: إن إسرائيل غاصبة ويجب أن تغادر بأسرع وقت، وطريق الحل الوحيد هو أن يقوم الأخوة الفلسطينيون بالقضاء على مادة

الفساد هذه بأسرع وقت.[٣٣]

وكان الإمام الخميني ﷺ يعارض وقف اطلاق النار مع الصهاينة ويمنع الاعتراف بكيانهم الغاصب، ويوجب استمرار الجهاد والقتال والتسلح بالإيمان ضدهم ودعم الانتفاضة الفلسطينية، وهذا أيضاً نجده في توجيهاته وخطاباته وبياناته، ونذكر بعضاً منها على سبيل المثال.

قال الإمام الخميني ﷺ: لا تصغوا إلى كلام الداعين إلى وقف اطلاق النار وما شابه ذلك من اطروحات، فكل ذلك من أجل منع الفلسطينيين من التقدم، إن الشعب الفلسطيني يوشك أن يسحق اليهود الصهاينة، وأتمنى أن يتم ذلك.[٣٤]

وقال ﷺ أيضاً: على الشعوب الإسلامية أن تفكر بإنقاذ فلسطين، وأن تعلن للعالم عن غضبها واستنكارها للممارسات التساومية الاستسلامية للحكام العملاء والخونة الذين ضيعوا آمال وجماهير مسلمي الأرض المحتلة.[٣٥]

وقال ﷺ: ألا يعلم قادة القوم بأن المفاوضات السياسية مع السياسيين المتجبرين ومجرمي التاريخ لن تنقذ القدس وفلسطين، وسوف تزيد من وتيرة الجرائم والمظالم كل يوم؟![٣٦]

وقال ﷺ: يجب ومن أجل تحرير القدس الاستفادة من المدافع الرشاشة المتكلة على الإيمان وقدرة الإسلام، وترك اللعب بالسياسة التي يشم منها رائحة الاستسلام، والتخلي عن فكرة إرضاء القوى الكبرى.[٣٧]

خاتمة

إن الإمام الخميني ﷺ قائد عظيم، ذو نظرة ثاقبة، نهض بالمسؤولية الكبيرة، وحمل مشعل النور لترى الشعوب طريق العزة والكرامة بالوعي والبصيرة، وخلاصة الكلام أن الإمام الخميني ﷺ حمل هموم الشعوب المستضعفة وتابع قضايا الأمة قبل انتصار الثورة الإسلامية وبعده، وواكب جميع الأحداث وسايرها، واتخذ منها المواقف المناسبة لها بما يضمن عزة الأمة وكرامتها.

وفي مقدمة هذه القضايا كانت القضية الفلسطينية التي تصدرت قائمة أولوياته، ولم يكتف بإصدار البيانات الاستنكارية الشجبية فقط، بل ترجمها على أرض الواقع عملاً مؤثراً باعثاً لروح الأمل والاقدام والتصدي في قلوب المسلمين، فإحياء ذكرى الإمام روح الله الموسوي الخميني ﷺ هو إحياء لتلك المبادئ والقيم والأفكار التي مضى عليها، لتكون مناراً ونبراساً تستضيء به الأمة في طريق العزة والكرامة.

وفي الختام أود أن أوجه كلمتي لشبابنا الأعزاء، وأقول لهم: إن الصراع بين الحق والباطل، أو بين قوى الخير والشر مستمر ومتواصل في جميع الأزمان، ففي كل حقبة تاريخية نجد معسكرين متقابلين، أحدهما يمثل جبهة العدل والنور والحق والخير، والآخر يمثل جبهة الظلم والظلام والباطل والشر، فمن لديه الوعي والبصيرة يستطيع أن يحدد ويشخص معسكر الحق ليلتحق به، ويعيِّن معسكر الباطل ليعاديه.

وهذا الصراع القائم – بين الحق والباطل – يدعونا إلى التسلح بالوعي والبصيرة وبكل الإمكانات، لدحر معسكر الباطل والقضاء عليه، ولكي لا تنطلي علينا خدعهم ومكائدهم، سيما وأن هجمة الباطل الذي تقوده أمريكا وإسرائيل متنوعة، فتارة تكون عسكرية، وتارة ثقافية أو فكرية، وأخرى عقدية وهكذا تستدعي منا الوقفة الجادة وعدم التهاون والتسامح إذا ما أردنا المواجهة والانتصار.

فنحن اليوم أمام معسكرين أحدهما يمثل الحق والدين والإسلام بقيادة الجمهورية الإسلامية، والآخر يمثل الباطل والظلم والاستكبار بقيادة أمريكا وإسرائيل؛ ولذلك على شبابنا أن يدركوا أهمية الموقف الذي يشتمل على أبعاد عقدية خطيرة، وأهمية الحفاظ على مكتسبات الثورة الإسلامية التي فجرها الإمام الخميني ﵀، ويعملوا على دعمها ومساندتها، متحلين بالوعي والبصيرة التي تؤهلهم للوقوف بوجه كل الاعتداءات وصدها بمختلف أشكالها.

وما زالت الجمهورية الإسلامية بقيادة سماحة آية الله العظمى السيد القائد الإمام الخامنئي دام ظله داعمة لقضايا الأمة كافة وفي مقدمتها القضية الفلسطينية، حيث نجدها اليوم في طليعة البلدان القوية المتطورة والمتقدمة، ترتقي من نجاح إلى نجاح آخر، تخوض غمار التحديات بشجاعة وانتصار، ببركة حكمته وحنكته وقيادته، ونسأل الله تعالى أن يأخذ بيده الكريمة، ويوفقه ويسدده في إكمال المسيرة التي ابتدأها الإمام الخميني ﵀.

وأخيراً كنت أحرص منذ البداية في أثناء كتابة هذه الوريقات على أن تكون مختصرة، تعطي فكرة إجمالية للقارئ الكريم عن الآثار التي تركها الإمام الخميني ﵀ في إحياء ودعم القضية الفلسطينية، تاركاً المجال لمن أراد الإحاطة بهذا الموضوع بنحو أوسع مراجعة الكتب والأبحاث الموسعة المتعلقة به، سائلاً المولى عز وجل أن يتقبل مني هذا القليل، ويعفو عن الكثير، إنه سميع مجيب، والحمد لله رب العالمين.

الهوامش

[١] الكلمات القصار للإمام الخامنئي: ص ٢٥٨.
[٢] المصدر نفسه: ص ٢٦٨.
[٣] كلامه دام ظله بتاريخ: ١ شوال ١٤١٧ هـ.
[٤] المصدر نفسه: ص ٢٦٧.
[٥] المصدر نفسه.
[٦] المصدر نفسه: ص ٢٦٨.
[٧] المصدر السابق: ص ٢٦٥.
[٨] موقف علماء الإسلام من اليهود: ص ٦٨.
[٩] إمام في أمة وأمة في إمام – إشراف الشيخ الدكتور علي البغدادي: ص٢٠٦.
[١٠] الكلمات القصار للإمام الخميني: ص ٣٤٥.
[١١] إمام في أمة وأمة في إمام – إشراف الشيخ الدكتور علي البغدادي: ص ٢١١.
[١٢] القضية الفلسطينية في كلام الإمام الخميني: ص ٣٥.
[١٣] المصدر نفسه: ص ٣٧.
[١٤] المصدر نفسه: ص ٣٨.
[١٥] المصدر السابق: ص ٣٩.
[١٦] المصدر نفسه: ص ٤٠.
[١٧] المصدر نفسه: ص ٢١٨.
[١٨] المصدر السابق: ص ١١، نقلاً عن صحيفة النور ج ١٨.
[١٩] القدس في فكر الإمام الخميني: ص ٢٥.
[٢٠] إمام في أمة وأمة في إمام – إشراف الشيخ الدكتور علي البغدادي: ص ٢٠٩.
[٢١] المصدر نفسه.
[٢٢] القدس في فكر الإمام الخميني: ص ٣٩.
[٢٣] المصدر نفسه: ص ٣٩.
[٢٤] المصدر نفسه.
[٢٥] المصدر نفسه: ص ٤٠.
[٢٦] الكلمات القصار للإمام الخميني: ص ٣٤٩.
[٢٧] المصدر نفسه: ص ٢٥٠.
[٢٨] المصدر نفسه: ص ٢٤٩.
[٢٩] المصدر نفسه.
[٣٠] القدس في فكر الإمام الخميني: ص ٤٢.
[٣١] المصدر السابق: ص ١٨.
[٣٢] المصدر نفسه.
[٣٣] المصدر نفسه: ص ٢٤.
[٣٤] المصدر نفسه: ص ٢٥.
[٣٥] المصدر السابق: ص ٢٦.
[٣٦] المصدر نفسه.
[٣٧] المصدر نفسه: ص ٢٨.

السيد عباس النوري
باحث واكاديمي من العراق

حقيقة عاشوراء وأهداف الثورة الحسينية في كلمات الإمام الخميني

حقيقة عاشوراء حقيقة عاشوراء بحسب ما ورد من أقوال الإمام الخميني ﵀ باعتبارها حدثاً يتخطى حدود الزمان والمكان حيث إن مؤثرية شهادة الإمام الحسين ﵇ وأهل بيته وأصحابه وتضحياتهم لا زالت تفعل فعلها بكل أرض وكل زمن مهما اختلفت الألسن والألوان والأعراق وحتى الأديان. لذا فإن النهضة الحسينية في عاشوراء إلهية بكل تفاصيلها، وإنسانية بمحض شمول مفاعيلها وتأثيراتها لكل حرّ. وعن ذلك يقول الإمام ﵀: «**ينبغي لنا أن ندرك أبعاد هذه الشهادة ونعي عمقها وتأثيرها في العالم ونلتفت إلى أن تأثيرها ما زال مشهوداً اليوم أيضاً**».

وبحسب قول الإمام الخميني ﵀ فبالإضافة إلى كون النهضة الحسينية قياماً لله ـ وأداء للتكليف الإلهي ـ لكنها أيضاً حركة سياسية كبرى بكل تفاصيلها من أول خطوة فيها حتى الشهادة وعن ذلك تحدث ﵀: «**إن مجيء سيد الشهداء ﵇ إلى مكة وخروجه منها بتلك الحال يعد حركة سياسية كبيرة ففي الوقت الذي كان فيه الحجيج يدخلون مكة كان الحسين ﵇ يغادرها وهي حركة سياسية، فكل سلوكيات الحسين ﵇ وأعماله كانت سياسية إسلامية وهي التي قضت على بني أمية ولو لا تلك الدم لكان سحق الإسلام وانتهى**».

ويقول عن كون نهضة سيد الشهداء قياماً لله: «**والرسول الأكرم هو الوسيط. ليست أكثر من موعظة واحدة هو ﴿إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ قوموا لله عندما تشاهدون الخطر يحدق بدين الله. قام أمير المؤمنين لله عندما شاهد دين الله في خطر وان معاوية يحرّف دين الله ونفس الشيء بالنسبة لسيد الشهداء فقد قام لله وهذا أمر لا يختص بزمن معين إن موعظة الله دائمية...**».

وهي تكليف إلهي يقول ﷺ: «**عندما يرى سيد الشهداء عليه السلام أن حاكماً ظالماً جائراً يحكم الناس فإنه يصرّح ويقول إن من يشاهد حاكماً جائراً يحكم بين الناس ويظلمهم فيجب عليه أن يقف بوجهه ويمنعه بقدر استطاعته.**

إن بضعة أنفار لم يكونوا شيئاً يذكر إمام ذلك الجيش، ولكنها المسؤولية والتكليف إذ كان يجب عليه أن ينتفض، ويقدم دمه حتى يصلح هذه الأمة وحتى يقضي على راية يزيد، وهذا ما قام به فعلاً فقد قدم دمه ودم أولاده وأنفسهم، وكل ما يملك من أجل الإسلام».

أسباب النهضة الحسينية:

بعد هذا العرض دعنا نتلمّس رؤية الإمام الخميني ﷺ لأسباب هذه النهضة بحسب الوارد في كلماته وخطاباته.

١. عداء الحكام للإسلام:

ويقول ﷺ عن يزيد وبني أمية: «**... فهم لم يكونوا يؤمنون بالإسلام منذ البداية وكانوا يكنون الحسد والحقد لأولياء الإسلام**».

٢. التآمر على الإسلام:

ويقول الإمام ﷺ: «**وأنقذ (أي الإسلام) من تآمر العناصر الفاسدة وحكم بني أمية الذين أوصلوا الإسلام إلى حافة الهاوية**».

٣ـ العمل على محو الإسلام وإضاعة جهود النبي صلى الله عليه وآله:

«**لقد أوشكت حكومة يزيد وجلاوزته الجائرة أن تمحو الإسلام وتضيّع جهود النبي صلى الله عليه وآله المضنية وجهود مسلمي صدر الإسلام ودماء الشهداء وتلقي بها في زاوية النسيان، وتعمل ما من شأنه أن يضيع كل ذلك سدى**».

٤.القضاء على الإسلام وطمس معالمه:

«لقد هدف بنو أمية للقضاء على الإسلام».

«لقد رأى سيد الشهداء عليه السلام أن معاوية وابنه لعنة الله عليهما يعملان على هدم الدين وتقويض أركانه وتشويه الإسلام وطمس معالمه...».

٥.تشويه الإسلام وقلب حقيقته:

«لقد أوشك حكم بني أمية المنحط أن يظهر الإسلام بمظهر الحكام الطاغوتي ويشوه سمعة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وقد فعل معاوية وأبنه الظالم الأفاعيل ضد الإسلام وارتكب ما لم يرتكبه جنكيز خان فقد بدلاً أساس عقيدة الوحي ومعالمها إلى نظام شيطاني».

«فقد حاولا (أي معاوية ويزيد) قلب حقيقة الإسلام، فقد امتلأت مجالسهم بشرب الخمر ولعب القمار».

٦.تحويل الحكم الإسلام إلى ملَكية:

«إن الخطر الذي كان يمثله معاوية ويزيد ضد الإسلام لم ينحصر في كونهما غاصبين للخلافة فهو أهون من الخطر الأكبر الآخر وهو أنهما حاولا جعل الإسلام عبارة عن سلطنة وملكية وأرادا أن يحولا الأمور المعنوية إلى طاغوت».

«لم تكن القضية غصب الخلافة فحسب، لقد كان قيام سيد الشهداء عليه السلام وثورته قياماً ضد السلطة الطاغوتية».

٧.الإساءة إلى سمعة الإسلام والحكم:

يقول دام ظله: «عندما رأى سيد الشهداء عليه السلام أن هؤلاء يسيؤون باعمالهم سمعة الإسلام ويشوّهون صورته باسم خلافة الرسول ويرتكبون المعاصي ويحكمون بالظلم والجور وأن انعكاس ذلك على الصعيد العالمي هو أن خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله يمارس هذه الأعمال، فرأى من واجبه أن ينهض ويثور حتى لو أدى الأمر إلى مقتله، المهم هو إزالة ما تركه معاوية وابنه من آثار على الإسلام».

ويقول دام ظله كذلك: «عندما يرى سيد الشهداء عليه السلام أن حاكماً ظالماً يحكم في الناس بالجور والعدوان فإنه يقول: من رأى حاكماً جائراً يحكم في الناس بالظلم والجور فعليه أن يقوم بوجهه ويمنعه من الظلم بمقدار ما يستطيع ولو كان معه بضعة أنصار فقط يقفون معه بوجه ذلك الحاكم ذي الجيش

العظيم الجرار».

٨.الانغماس في المعاصي ومخالفة سنّة الرسول الله صلى الله عليه وآله:

يقول قدس سره: «... إنه (أي يزيد) يقترف المعاصي ويخالف سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله... فهو يسفك الدماء ويهدر الأموال ويبذرها وهي ذات الأفعال التي كان يقوم بها أبوه معاوية أتى أمير المؤمنين علياً عليه السلام إلى معارضته».

أهداف النهضة الحسينية

من خلال ما تقدم يمكن القول بإجمال أن أسباب النهضة الحسينية بحسب رؤية الإمام الخميني قدس سره تتلخص بوجود حكومة طاغوتية آثمة جائرة وغاشمة تستغل الحرمات وتشوه الدين ومفاهيمه وتلحق أذية كبرى بصورة الإسلام وسمعته وسمعة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله لذلك فإن حركة الإمام الحسين بحسب ما يراه الإمام قدس سره هي إزالة كل هذا الواقع وقلعه واستنفاذ الإسلام وصورة نبيّه وتنظيف سمعة الإسلام والنبي من التشوه والتلوث الذي ألحقته بهما ممارسات بني أمية ولنعد إلى تلمس أهداف الثورة الحسينية من أقوال الإمام الخميني قدس سره.

١.أحياء الإسلام واستنقاذه:

يقول قدس سره: «وقد قتل سيد الشهداء عليه السلام ولم يكن طامعاً في الثواب، فهو عليه السلام لم يعر هذا الأمر كثير الاهتمام، لقد كانت نهضته لإنقاذ الدين ولإحياء الإسلام ودفع عجلته إلى الأمام».

«محرم هو الشهر الذي أحيي فيه الإسلام على سيد المجاهدين والمظلومين عليه السلام وأنقذ من تآمر العناصر الفاسدة وحكم بني أمية، الذين أوصلوا الإسلام إلى حافة الهاوية».

ويقول كذلك: «في صدر الإسلام وبعد رحلة النبي صلى الله عليه وآله ــ مُرسي أُسس العدالة والحرية ـ أوشك الإسلام أن ينمحي ويتلاشى بسبب انحرافات بني أمية وكاد يسحق تحت أقدام الظالمين ويبتلع من قبل الجبابرة، فهبّ سيد الشهداء عليه السلام لتفجير نهضة عاشوراء العظيمة».

٢.صون مستقبل الإسلام والمسلمين:

عن ذلك يقول الإمام قدس سره: «لقد كان الحسين عليه السلام يفكر بمستقبل الإسلام والمسلمين باعتبار أن الإسلام سينتشر بين الناس نتيجة لتضحياته ولجهاده المقدس وإن نظامه السياسي والاجتماعي سيقام في

مجتمعنا، فرفع لواء المعارضة والنضال والتضحية».

ويقول ﷺ: «... فسيد الشهداء عليه السلام قتل وأولئك الشبان والأنصار في سبيل الإسلام ضحوا بأرواحهم وأحيوا الإسلام».

ويقول كذلك: «إن سيد الشهداء عليه السلام لبى صرخة الإسلام واستجاب لاستغاثته وإنقاذه».

٣.كسر عقدة الخوف:

لقد كان المجتمع غارقاً في حالة من الرعب مستسلماً للطاغية نتيجة ممارساته الجائرة وكان على أحد أن يواجهه ليبث الشجاعة والإقدام وعن ذلك يتحدث الإمام ﷺ: «لقد علم عليه السلام الناس أن لا يخشوا قلة العدد فالعدد ليس هو الأساس بل الأصل والمهم هو النوعية، والمهم هو كيفية التصدي للأعداء والنضال ضدهم والمقاومة بوجههم فهذا هو الموصل إلى الهدف».

ويقول ﷺ: «لقد أفهمونا أنه لا ينبغي للنساء ولا للرجال أن يخافوا في مقابل حكومة الجور».

«فسيد الشهداء قد حدد تكليفنا فلا تخشوا من قلة العدد ولا من الاستشهاد في ميدان الحرب».

٤ـ مقاومة الظلم والفساد (روح المقاومة):

«لقد ضحى سيد الشهداء عليه السلام بجميع أصحابه وشبابه وبكل ما يملكه في سبيل الله ولتقوية الإسلامية ومكافحة الظلم، ومعارضة الإمبراطورية التي كانت قائمة آنذاك...».

«وكان الواحد منهم يزعم أنه خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله ويشرب الخمر في مجلسه ويلعب القمار! ثم يبقى خليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله ويتوجه إلى الصلاة ويؤم صلاة الجماعة.

إن هذا خطر كبير واجه الإسلام مما دفع سيد الشهداء عليه السلام للقيام لرفضه».

«... هنا اقتضى التكليف أن ينهض عظماء الإسلام بمهمة المعارضة والمعاهدة وإزالة التشويه الذي يوشك أن يلحقه هؤلاء بسمعة ومكانة الإسلام...».

٥.الثورة والنهي عن المنكر:

«لقد تحرك سيد الشهداء مع عدد قليل من الأنصار وثار بوجه يزيد الذي كان

حاكماً متجبّراً يرأس حكومة غاشمة جائرة ويتظاهر بالإسلام ويستغل قرابته وصلته العائلية بالإمام عليه السلام قد كان رغم تظاهره بالإسلام وزعمه أن حكومته حكومة إسلامية وأنه خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله كان امرءاً ظالماً يهيمن على مقدرات بلدٍ دون حق لذا فإن الإمام أبا عبد الله الحسين عليه السلام ثار بوجهه مع قلة الأنصار لأنه رأى أن واجبه وتكليفه يقتضي ذلك، وإن عليه أن يستنكر ما يحدث وأن ينهى عن المنكر».

ويقول دام ظله: «لقد أعلن سيد الشهداء عليه السلام بصراحة أن هدفه من قيامه هو إقامة العدل فالمعروف لا يعمل به والمنكر لا يتناهى عنه لذا فهو يريد إقامة المعروف ومحو المنكر فجميع الإنحرافات منشؤها المنكر وما عدا خط التوحيد المستقيم فكل ما في العالم منكرات ويجب أن تزول».

«لقد ضحى سيد الشهداء بكل حياته من أجل إزالة المنكر ومحوه ومكافحة حكومة الظلم والحيلولة دون المفاسد التي أوجدتها الحكومات المنحرفة في العالم».

٦. إصلاح الأمة وتدمير حكومة الجور:

«ونحن الموالون لسيد الشهداء عليه السلام السائرون على نهجه ينبغي أن ننظر في حياته وفي قيامه الذي كان الدافع إليه النهي عن المنكر ومحوه ومن المنكر حكومة الجور وهي يجب أن تزول».

«فما سعى (سيد الشهداء) بجد للإطاحة بحكومة الجور وإزالتها» كان التكليف يوجب على سيد الشهداء عليه السلام أن يقوم ويثور ويضحي بدمه كي يصلح هذه الأمة ويهزم راية يزيد.

أ. م. د. سلام ناجي باقر الغضبان / م. م. إيثار عبد المحسن المياحي
جامعة الكوفة/كلّية التربية المختلطة/قسم علوم القرآن.

أثر الخطاب العاشورائي في إصلاح الأُمّة وتوحيدها.. الشباب أُنموذجاً

المقدّمة

صفحات التاريخ بخيرها وشرّها انطوت، إنّها مسؤولية الماضين، لا نُحاسب على سلبياتهم ولا نُكافئ على إيجابياتهم: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1][2].

والسؤال الذي يطرح نفسه اليوم: كيف يكون الموقف من التاريخ؟ هل نُدير الظهر لتاريخنا وتراثنا وفيهما من الغنى ما يُثري حاضرنا لمجرّد أنّ التاريخ مضى وانقضى؟

إنّ دروس التاريخ وعِبَره كثيرة، يمكن أن نستلهم منها أفكاراً وخبرات وتجارب جديدة، فقد أثبتت التجربة أنّ الذين أمعنوا النظر في التاريخ وتعمّقوا في دلالات أحداثه كانوا أقوياء في نظرتهم للواقع والمستقبل.

إنّ مسؤوليتنا التاريخية تتطلّب منّا أن نقرأ تاريخنا وتاريخ العالم بنظرة موضوعية غير انحيازية ولا متعصّبة ولا متطرّفة، بين رفضٍ لكلّ ما فيه وبين قبول لكلّ ما فيه؛ لأنّه نتاج بشر مثلنا، وقد يكون فيه الصحيح وفيه السقيم، وقد يكون فيه الموضوع الدخيل الذي ليس منه بشيء، وهذا الأمر يستدعي عدم النظر إلى التاريخ على أنّه قرآن منزل، أو تراث مقدّس - وهذا ما وقع فيه غيرنا للأسف - وقد يقول بعض الشباب: نحن أبناء اليوم فما لنا وللماضي؟ ونحن هنا لا ندعو إلى الاستغراق في الماضي، ولكنّنا نأخذ من ماضينا لحاضرنا ما ينفع ويغني، وتلك دعوة القرآن إلينا: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**﴾[٣]، و﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ**﴾[٤]، فهؤلاء الناس قد غادروا مسرح التاريخ، ولم يبقَ منهم سوى أفكارهم التي هي نتاج بحثٍ وتجربة، وأعمالهم التي يمكن أن نقتني بعضها ونطوّر بعضها الآخر، فكانت ثورة الإمام الحسين عليه السلام ممّا يمكن أن نقتدي بها وننهل منها الكثير، وكانت حركته نهضة في تاريخ الإنسانية، ومحطّة من محطّات الصراع بين الحق والباطل، وهي حركة متّصلة اتّصالاً وثيقاً بأعظم الرسالات السماوية على الإطلاق، تلك هي رسالة خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**حسينٌ منّي وأنا من حسين، أحبّ الله مَن أحبّ حسيناً...**»[٥].

وقد احتلّت سيرته المباركة عليه السلام وشهادته يوم الطف حيزاً كبيراً في التاريخ، وأخذت أشكالاً مختلفة من الاهتمام، تمثّل أحدها بالمجلس الحسيني، الذي يُعدّ من أهمّ الشعائر التي لا يزال إحياؤها قائماً منذ قرون مديدة.

فإحدى وظائف الخطيب الحسيني هي تعريف الناس بمفاهيم عاشوراء وتاريخ كربلاء، والتذكير بمحطّاتها المضيئة في حياة الإنسانية[٦]، وكان موضوع الشباب واحداً من تلك المحطّات المضيئة، والتي ما زالت طريقاً يسلكه أحرار العالم اليوم لينهلوا من نميره العذب؛ لكي يحوّل الضعف إلى قوّة، والصبر على البأساء والضرّاء مسألة يحتاجها أبناء الإسلام كافّة مع موجة المواجهات مع دين الله.

كم هو بليغٌ الأثر حين نسمع زينب الحوراء عليها السلام قدوة البطولة تقول: «... **ما رأيت إلّا جميلاً**»؛ إذ إنّ كلّ مأساتها ما دامت في عين الله فهي تهون؛ فهي امتحان واختبار جميل؛ لأنّه لله وفي الله ومع الله.

من هنا؛ ندعو الإخوة القائمين على

المناسبات الحسينية إلى استثمار ذكرى عاشوراء في توعية الشباب والشابّات بالقيم الأخلاقية العليا التي تحميهم من الانحراف والسقوط في الهاوية، لا سيما أنّ ذكرى استشهاد الإمام الحسين عليه السلام واحدة من أهمّ المناسبات؛ لما لها من تأثير روحي واسع، فضلاً عن أنّ استثمارها على هذا النحو يعطي المناسبة بُعداً مضافاً يخدم معانيها العظيمة، لا سيما في هذه المرحلة العصيبة التي تمرّ بها أُمّتنا الإسلامية، على أن لا يكون اقتصارنا على البعد العاطفي لتلك الواقعة، بل يجب أن نأخذ حياة الإمام الحسين عليه السلام نبراساً؛ لأنّ حياته عليه السلام كلّها عبرة وعِظة؛ لأنّه رجل الأخلاق والمُثل العليا.

المبحث الأوّل: أثر النهضة الحسينية في توعية الأُمّة

إنّ أخطر ما يُبتلى به شعب هو أن يُقضى على روح النضال فيه، فإنّه حينئذٍ يفقد شخصيته، ويذوب في خِضمّ الفاتحين، كما قُدّر لشعوب كثيرة أن اضمحلّت وذابت وفقدت كيانها؛ لأنّها فقدت روح النضال، واستسلمت، وفقدت شخصيتها ومقوّمات وجودها المعنوي، فأذابها الفاتحون. وإنّ هذه الشعوب التي لم يحفظ لنا التاريخ إلّا أسماءها لم تأتِ من ضعفها العسكري أو الاقتصادي، وإنّما أتت من فلسفة الهزيمة والتواكل والخنوع التي وجدت سبيلها إلى النفوس، بعد أن خَبت روح النضال في هذه النفوس.

ولو أنّها بقيت مؤمنة بشخصيتها وثقافتها ومقوّماتها، واحتفظت بروح النضال حيّة في أعماقها لما استطاع الغزاة إبادتها، ولشقّت لنفسها طريقاً جديداً في التاريخ، وهذا ما حقّقته ثورة الحسين عليه السلام.

لقد أجّجت هذه الثورة تلك الروح التي حاول الأُمويون إخمادها، وبقيت مستترة تُعبّر عن نفسها دائماً في انفجارات ثورية عاصفة ضدّ الحاكمين، مرّة هنا ومرّةً هناك، وكانت الثورات تفشل دائماً ولكنّها لم تخمد؛ لأنّ الروح النضالية كانت باقية تدفع الشعب المسلم إلى الثورة دائماً، وإلى التمرّد والتعبير عن نفسه قائلاً للطغاة: إنّني هنا[٧].

إذن؛ أهمّ إنجاز حقّقته الثورة الحسينية هو انبعاث الروح النضالية في الأُمّة؛ إذ لولا ثورة الإمام الحسين عليه السلام لنامت الأُمّة في سباتٍ عميق؛ لأنّ الأُمويين سلكوا مع الأُمّة مسالك عجيبة من أجل إذلالها وتحطيم شخصيتها المعنوية؛ لغرض السيطرة عليها وتمكين قبضتهم منها، وتصفية

كلّ حالات المعارضة والتمرّد ضدّ نظام حكمها، يقول الوليد بن يزيد:[٨]

فدَع عنك ادّكارك آل سعدي
فنحن الأكثرون حصى ومالاً
ونحن المالكون الناس قسراً
نسـومهم المذلّة والنكالا
ونوردهم حياض الخسف ذلاً
وما نألوهم إلّا خبالاً.

وهذه الأبيات تكشف بدقّة عن توجّه بني أُميّة السياسي في قهر الأُمة وإذلالها، وفرض نفوذهم وسلطانهم عليها.

ولا تحسب أنّ هذا التصوّر المتطرّف يخصّ الوليد بن يزيد من بين حكام بني أُميّة، فقد كان جلّ بني أُميّة وعمّالهم يرون مثل هذا الرأي أو قريباً منه.

هذا بالنسبة للأُمّة بصورة عامّة، أمّا موقفهم من بني هاشم بصورة خاصّة، فقد كانوا منهم في موقف الحاسد؛ لأنّ الأُمّة والمسلمين عامّةً كانوا يرون الفارق الكبير والبون الشاسع بين أهل البيت عليهم السلام وبين بني أُميّة في الماضي والحاضر، وكان على بني أُميّة لكي يستقرّ حكمهم ونفوذهم أن يعملوا على القضاء التامّ على نفوذ أهل البيت عليهم السلام الروحي في المسلمين، وعلى تصفية شيعتهم والقضاء عليهم، وملاحقتهم ومطاردتهم؛ ليصفو لهم الجو السياسي في العالم الإسلامي، وبشكلٍ خاصّ في العراق والحجاز.

فالأُمويون عندما استولوا على الحكم حُرّفت الحقائق، وفقد الإيمان معناه الحقيقي؛ لذا كان من الواجب أن يكون هناك رادعٌ لهؤلاء، على أن لا تنام الأُمّة وتنتظر أن يرسل لها المولى عز وجل ملائكة من السماء تقاتل دونهم، فكانت الثورة الحسينية التي وقفت بوجه الأُمويين لتحوّل مجرى التاريخ؛ لذا قيل: إنّ الإسلام محمديّ الوجود حسينيّ البقاء.

فهذا الدين مَدين للإمام الحسين عليه السلام ببقائه، فلولاه لما بقي من الإسلام إلّا اسمه، فكانت الأهداف الحسينية تتحقّق واحداً تلو الآخر، ونستطيع حصرها بما يأتي:

١. تحرير إرادة الأُمّة

فالطواغيت متّفقون على استخدام سلاحَين مؤثِّرَين في وجه تحرك الأُمّة وتمرّدها ورفضها للظلم، «**وهما: سلاح (الإرهاب)، و(الإفساد). ومن خصائص هذين السلاحين أنّهما يسلبان الأُمّة الإرادة والقدرة على التحرّك والوعي والإدراك**»[٩].

وهذه سنّة الطغاة في كلّ عصرٍ ومصر ـ من باب التاريخ يُعيد نفسه ـ وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بقوله: ﴿**فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ**﴾[10]. ففرعون قد سلب الأُمّة إرادتها ووعيها وقيمها بالإرهاب والإفساد، فمسخ الأُمّة بشخصها كاملاً، واستأصل كلّ قدرةٍ لها على التفكير، كذلك فعل بنو أُميّة، وقد وضعوا الأحاديث النبوية لإضلال الأُمّة وتخديرها وإطاعتها للحاكم الظالم إطاعةً عمياء، من ذلك أنّهم نسبوا إلى رسول الله ﷺ القول: «**يكون بعدي أئمّة لا يهتدون بهداي ولا يستنّون بسنّتي، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس، فقال السائل: كيف أصنع يا رسول الله؟ قال: تسمع وتطيع للأمير، وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك، فاسمع وأطِع**»[11].

وهذا الفكر قد أعطى الحاكم حصانة حتى لو كان ظالماً؛ بحجّة أنّ الخروج عليه يؤدّي إلى مفسدة أكبر من السكوت على ظلمه، ودور العلماء ينحصر عند انحراف الحاكم بالذهاب إلى المساجد والدعاء له بالهداية.

وربّ سائل يسأل: لماذا اختار الحسين عليه السلام تلك الموتة الفجيعة على يد أُمّة ادّعت الانتماء للإسلام، واختار مشهداً أصبحت الأُمّة كلّها شاهداً عليه، مَدينةً بكسلها واستسلامها وخضوعها لدولة الانحراف؟

الجواب: لأنّ ذلك الأمر الوحيد الذي كان كفيلاً بإيقاظ الأُمّة وتنبيهها إلى خطر الانحراف المستشري، وكان هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يهزّها ويعيدها إلى صوابها، وكان لا بدّ من مشهد مثل ذلك المشهد الذي جرى على أرض كربلاء، وأمام أنظار شريحة كبيرة من الأُمّة التي ادّعت ولاءها وحبّها للرسول ﷺ وآله عليهم السلام، ثمّ تخلّت عنهم، فهذه الأُمّة لا بدّ أن تنهض، ولا بدّ أن تثور كلّها بوجه النظام المنحرف، وبوجه كلّ نظام منحرف آخر[12] إلى يوم القيامة، ولا تصدّق بحفنةٍ من الأحاديث الموضوعة التي وضعها حكّام الجور لأجل استمرار حكمهم وظلمهم للعباد.

٢.سلب الشرعية من النظام

أعطى الأُمويون لأنفسهم صبغةً شرعية، وكانوا يوحون للناس بطريقٍ وبآخر أنّ موقع الخلافة أقوى من موقع الرسالة، فيقول قائلهم: «**إنّ خليفة أحدكم أفضل من رسوله**»[13]، وقد أخذوا من إمارتهم أداةً لتنفيذ طموحاتهم ورغباتهم، فكان هذا الموقع الشرعي الذي حرصوا عليه أكبر الأخطار التي تلحق أُمّة

الإسلام، فقد كانت انحرافات أُمرائهم تنحدر إلى الناس من قصور الخلفاء في أُطر شرعية، وكانت حركته عليه السلام لكسر هذا الإطار الشرعي، وقد أعلن هذا الموقف علناً أمام الوليد بن عتبة، عندما دعاه لمبايعة يزيد، فقال له: «**يزيد رجلٌ فاسق، شارب الخمر، قاتل النفس، معلنٌ بالفسق، فمثلي لا يبايع مثله**»[١٤].

وكان هذا الموقف، ثمّ بعده الخروج على حكم بني أُميّة وذلك بإعلان الحرب، كلّ هذه الأسباب كان لها الأثر الفاعل في إثارة سخط المسلمين ضدّ سلطان بني أُميّة، وبالتالي الخروج وإعلان التمرّد وذلك بتوسيع دائرة المعارضة إلى قيام ثورات عدّة كردّ فعل على ما حصل في كربلاء، وقد تحقّق هذا الهدف أيضاً.

٣ـ استعادة الدور القيادي والريادي للدولة الإسلامية

وقد تمثّل بتحمّل رسالة الإسلام بكلّ ما تتضمّنه كلمة الإسلام من معنى التوحيد الخالص لله تعالى، وجعلها أمينة على تحمّل هذه الرسالة؛ لتكون أُمّةً وسطاً، ويكون أفرادها المؤمنون شهداء على الناس بكلّ ما تتضمّنه هذه التعابير من مضامين عالية وغالية، الأمر الذي لا يتهيّأ لها من دون تمثّلها لكل القيم التشريعية والعقائدية التي تضمّنتها عقيدة الإسلام فكراً وسلوكاً، وعلماً وعملاً، وعقيدةً وتشريعاً.

٤. تعريف الإيمان وحقيقة العبودية

أراد الإمام الحسين عليه السلام بثورته الباسلة أن يُثبت للناس أنّ حبّ الله هو ضروري للإيمان، فكان مصداق قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ**﴾[١٥]، فقد ضحّى عليه السلام بعياله وأصحابه، ثمّ بنفسه الزكية، فهام في الحبّ الإلهي.

هذه أهمّ الأهداف التي يمكن استيفاؤها من الواقعة، ونحن نلقي نظرةً على وصيته لأخيه محمد بن الحنفية قبل الخروج من المدينة متوجّهاً إلى مكّة، والوصية هي كالآتي: «**بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به الحسين بن علي إلى أخيه محمد ابن الحنفية: أنّ الحسين يشهد أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمداً عبده ورسوله، جاء بالحقّ من عنده، وأنّ الجنة حقٌّ والنار حقٌّ، والساعة آتيةٌ لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث مَن في القبور، وأنّي لم أخرج أشراً ولا بَطِراً ولا مُفسداً ولا ظالماً، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدي صلى الله عليه وآله، أُريد أن آمر بالمعروف وأنهى**

عن المنكر، وأسير بسيرة جدّي وأبي علي بن أبي طالب، فمَن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحقّ، ومَن ردّ عليَّ هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم وهو خير الحاكمين»[١٦]، ثمّ طوى الكتاب وختمه ودفعه إلى أخيه محمد.

فهذه الوصية تحمل معاني كثيرة وأهدافاً عالية للخروج على الحاكم الظالم، فإذا أضفنا إلى هذا رسالتَه إلى وجوه البصرة، والتي كان من ضمن كلماته: «**أنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيه، فإنّ السنّة قد أُميتت والبدعة قد أُحييت، فإن تسمعوا قولي أهدِكم سبيل الرشاد**»[١٧]، أضف إلى ذلك كتابه الذي أرسله مع مسلم بن عقيل إلى أهل الكوفة، والذي حدّد فيه رسالته: «... **فلعمري، ما الإمام إلّا العامل بالكتاب، والآخذ بالقسط، والدائم بالحقّ، الحابس نفسه على ذات الله**»[١٨]، ومن هذه الوصايا يمكن أن نستلهم أهدافاً أُخرى للثورة:

١ـ إحياء الإسلام.

٢ـ إحياء السنّة النبوية والسيرة العلوية، وإماتة البدعة.

٣ـ توفير القِسط والعدالة الاجتماعية، وتطبيق حكم الشريعة.

٤ـ إزالة البِدع والانحرافات.

٥ـ كسر عقدة الخوف من الحكّام الظلمة عند أبناء الأُمّة.

٦ـ إنشاء مدرسة تربوية رفيعة، وإعطاء المجتمع دوره وشخصيته.

ففي كلّ هذا وذاك كان هدفه السامي هو التغيير، والتغيير هنا ليس جانباً واحداً، بل تغييرٌ سياسيٌّ واجتماعيٌّ واقتصاديٌّ، فكانت ثورته عليه السلام فريدةً في نوعها، ولا نبالغ إذا قلنا: لا يوجد مثلها حتى في تاريخ الأنبياء وأوصياء الأنبياء، ولا توجد عملية أو حركة اجتماعية تشابه تلك العملية التي قام بها الإمام الحسين عليه السلام، عملية فريدة في نفسها، ومختصّة بخصائص تميّزها عن غيرها؛ لذا صارت رسالة موجّهة إلى كلّ العالم، لا تخصّ طائفةً دون أُخرى، ولا قوميةً دون أُخرى، ولا ديناً دون آخر، بل أصبح جميع البشر مكلّفين بأن يأخذوا منها الدروس والعبر، ولا نتعجّب إن قال (غاندي) الهندوسي: «**تعلّمت من الحسين كيف أكون مظلوماً فأنتصر**»[١٩]، وكذلك ما قاله الرئيس الصيني (ماو تسي تونغ) لياسر عرفات ـ عندما طلب منه أن يعلّمه دروساً في التضحية من دروس الثورة الصينية ـ: «**عندكم تجربة ثورية قائدها الحسين، وهي تجربة**

إنسانية فذّة، وتأتون إلينا لتأخذوا التجارب؟!»[٢٠].

وقد حقّقت ثورة الإمام الحسين عليه السلام أهدافها، سواء كان ذلك على المديات القريبة أم البعيدة، فعلى المديات القريبة كانت أوّل ثورة بعد واقعة الطف هي ثورة سليمان ابن صرد الخزاعي، وبعدها ثورة المختار، ثمّ ثورة زيد بن علي عليهما السلام، وهكذا توالت الثورات «**إلى أن سقط الحكم الأُموي، وليس المهم أن يسقط الحكم الأُموي أو لا يسقط، بمقدار أنّ المهم هو أنّ الشارع بقيَ محافظاً على القيم الإسلامية الأصيلة بدرجةٍ كبيرة، والعالم اليوم يهتزّ لحضارتنا ولأُمّتنا الحية المتقدّمة، من هنا من الشرق ومن العراق، ومن هذه المنطقة منطقة أتباع أهل البيت** عليهم السلام»[٢١].

أمّا على المديات البعيدة، فقد حقّقت الكثير الكثير، فما الصحوات في العالم الإسلامي إلّا ومضةٌ من تلك الومضات الربّانية، فالثورة الإسلامية التي قامت في إيران ما هي إلّا من إرهاصات تلك الثورة الحسينية، وما حصل في جنوب لبنان من دفع للعدو الصهيوني بعد ما كان يسرح ويمرح في لبنان إلّا شرارة من شرارات الحسين عليه السلام، وما حصل في العراق ويحصل اليوم من انتفاضة على الظلم والظالمين، وما سيحصل بعد آلاف السنين فهو من كربلاء، وقد صدق الإمام الخميني قائد الثورة الإسلامية الإيرانية عندما قال: «**كلّ ما لدينا هو من عاشوراء**»[٢٢]، وصدقت المقولة المشهورة القائلة: «**كلّ يوم عاشوراء، وكلّ أرض كربلاء**»[٢٣]، فعاشوراء ليست واقعة، بل هي ثقافة، ثقافة الملحمة، ثقافة الشهادة، ثقافة الصمود والمقاومة، ثقافة الولاية، ثقافة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثقافة الحب، ثقافة الإيثار، ثقافة التحمّل، ثقافة البصيرة والتدبير، ثقافة التسليم لأمر الله، ثقافة الوفاء للقرآن والعترة، ثقافة العزة والرفعة، ثقافة عدم الاهتمام بزخارف الدنيا، وثقافة جميع الخيرات[٢٤]؛ لأنّ عاشوراء عبارة عن مجابهة بين رؤيتين: رؤية الإسلام الأصيل ورؤية الإسلام الأُموي، عبارة عن اصطفاف مَن جذبتهم ملذات الدنيا أمام طلّاب الآخرة، هي ساحة اختبار الخواصّ والعوام، عاشوراء كانت حصيلة ضعف التبعية للقائد الذي اختاره الله، عاشوراء حصيلة انتشار الفساد والذنوب وعدم الالتزام في المجتمع وضعف الإيمان، إلى غير ذلك من حصائل[٢٥].

ولرُبّ سائلٍ يسأل: ما هو سرّ انشداد الناس لثورة الحسين عليه السلام؟ أي: ما هي أسباب هذا التفاعل الوجداني لجماهير الناس مع نهضة

الحسين عليه السلام؟ وإذا كنّا في مقام الإجابة فنقول: إنّ هذا الانشداد والتفاعل جاء من سببين:

الأول: مشيئة الله سبحانه وتعالى.

الثاني: أنّ جماهير الناس قد وجدت في عاشوراء شيئاً يتناغم مع ضمائرها وعقولها وعواطفها، كما وجدوا فيها ذاتهم وزادهم في المسير إلى الله تعالى[٢٦]، وقد وجد الناس في هذه الثورة الأُسوة في حياتهم.

وهكذا ستظلّ هذه الثورة مشعلاً للأحرار في بقاع الأرض إلى يوم القيامة.

المبحث الثاني: أثر المنابر الحسينية في توعية الأُمّة

المنبر الحسيني: هو ما يُطرح من أفكار وأحاديث ومفاهيم إسلامية، وفضائل قادة المسلمين، والبحث في مشاكل المسلمين، والسعي إلى إيجاد حلٍّ لها[٢٧]، وليس المقصود به هو الخشب الذي هُندس بطريقةٍ معيّنة.

إمّا الخطبة الحسينية، فهي: «**الخطبة التي يُلقيها الخطيب الحسيني في المجلس الحسيني، وتمتاز بمواصفات خاصّة بها، منها: ذكر الإمام الحسين وأهل بيته عليهم السلام وأنصاره، والإشادة بمواقفهم، ثمّ التخلّص بذكر مأساتهم ومصائبهم، وهي أيضاً الخطبة الكاملة والمحاضرة النافعة التي تبعث الوعي في الأُمّة، وتنشر الثقافة في المجتمع؛ لما تحمله من مضمون علمي في مجالات المعرفة**»[٢٨].

يُعدّ الإمام زين العابدين عليه السلام مؤسِّس هذا المنبر، وأوّل مَن اعتلى الأعواد وتكلّم بكلامٍ نال استحسان الحاضرين، بل وتعجّبوا من منطقه الفيّاض، وذلك في مجلس يزيد في عام (٦١هـ)، أي: بعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام بعدّة أيام، وكانت خطبته في ذلك المجلس هي الخطبة التأسيسية لمنبر الحسين عليه السلام[٢٩]، وقد وضع عليه السلام الحجر الأساس للخطبة الحسينية، وجمع العناصر الأساسية، وقال في خطبته: «**الحمد لله الذي لا بداية له، والدائم الذي لا نفاد له، والأوّل الذي لا أوّلية له، والآخر الذي لا آخرية له، والباقي بعد فناء الخلق قدر الليالي والأيام، وقسّم في ما بينهم الأقسام، فتبارك الله الملك العلّام... أيّها الناس، أُعطينا ستّاً وفُضّلنا بسبع، أُعطينا العلم والحلم والسماحة والفصاحة والشجاعة والمحبّة في قلوب المؤمنين، وفُضّلنا بأنّ منّا النبي المختار محمّداً صلى الله عليه وآله، ومنا الصديق، ومنا الطيار، ومنا أسد الله، ومنا أسد الرسول، ومنا سيدة نساء العالمين فاطمة البتول، ومنا سبطا هذه الأُمّة وسيدا شباب أهل الجنة.**

أيّها الناس، مَن عرفني فقد عرفني، ومَن لم يعرفني أنبأته بحسبي ونسبي، أيّها الناس أنا ابن مكّة ومنى، أنا ابن زمزم والصفا، أنا ابن مَن حمل الركن بأطراف الردا... أنا ابن مَن أوحى إليه الجليل ما أوحى، أنا ابن مَن ضرب بين يدي رسول الله ببدرٍ وحنين، ولم يكفر بالله طرفة عين، أنا ابن صالح المؤمنين، ووارث النبيين، ويعسوب المسلمين، ونور المجاهدين، وقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين، ذاك أبو السبطين الحسن والحسين علي ابن أبي طالب، أنا ابن فاطمة الزهراء، وسيدة النساء، وابن خديجة الكبرى، أنا ابن المرمّل بالدماء، أنا ابن ذبيح كربلاء، أنا ابن مَن بكى عليه الجن في الظلماء، وناحت عليه الطير في الهواء.

فلمّا بلغ إلى هذا الموضع ضجّ الناس بالبكاء، وخَشي يزيد الفتنه فأمر المؤذّن أن يؤذّن للصلاة»[٣٠].

وقد جمعت هذه الخطبة العناصر الأساسية للمنبر الحسيني، وهي:

١ـ ركّز الإمام السجاد عليه السلام في بداية خطبته على مسألة التوحيد والمسائل العقائدية، فكأنّما أراد من رواد المنابر أن تكون أحاديثهم في بداية كلّ خطبة هو الخوض في المسائل العقائدية؛ لِما تعرّضت له من تشوّه بين الفينة والأُخرى.

٢ـ أكّد الإمام بعد ذلك على دور أهل البيت عليهم السلام في الحياة الإسلامية، وأنّ الإشارة إلى مزاياهم تعيد ذكراهم في النفوس، وتُحيي أمجادهم في الذاكرة.

٣ـ أكّد في نهاية الخطبة على مظلومية الإمام الحسين عليه السلام، حتى أنّه أبكى كلّ مَن كان في المجلس.

ومن هذه الخطبة الخالدة للإمام السجاد عليه السلام نستطيع إن نستلهم أهداف المنبر الحسيني، والتي هي كما فهمناها من الخطبة:

١ـ إنّ المنبر الحسيني له مسؤولية وله رسالة، وهذه الرسالة يجب أن تكون خالصة لوجه الله تعالى، وهذا ما فهمناه في قوله عليه السلام: «**أتأذن لي أن أرقى هذه الأعواد، فأتكلم بكلامٍ فيه لله تعالى رضىً ولهؤلاء الناس أجرٌ وثواب؟**».

٢ـ إنّ على الخطيب الحسيني أن لا يستهين بالجالسين أمامه مهما كان مستواهم العلمي، فالإمام السجاد عليه السلام رغم علمه أنّ مَن كان في مجلس يزيد هم من أهل الشام، الذين غُسلت عقولهم من قبل معاوية ثمّ من بعده ابنه يزيد، مع ذلك وجّه الخطاب إليهم.

٣ـ على الخطيب أن يكون واعياً لمشاكل المجتمعات التي يخاطبها، فالخطيب الذي يخطب في العراق مثلاً يجب أن يكون خطابه مختلفاً عن خطاب المبلِّغ الذي يمارس دوره في بلدان أُخرى.

٤ـ إنّ المنبر الحسيني مؤسّسة إسلامية يُراد من خلالها إحياء الإسلام، وإحياء سيرة أهل البيت عليهم السلام؛ لذا يجب أن يكون بمستوى تلك المسؤولية[٣١].

٥ـ أن يهتمّ الخطيب بمشاكل المجتمع، ويحاول الحديث عنها، لا سيما مشاكل شبابنا اليوم، فنحن نتعرّض إلى هجمةٍ شرسة في ديننا، فيجب على الخطباء الحديث عن كلّ الفئات العمرية، لا سيما هذه الفئة؛ لأنّ الرسول صلى الله عليه وآله قال: «**أُوصيكم بالشباب خيراً، فإنّهم أرقّ أفئدةً وأتقى نفوساً**»[٣٢].

وكانت الثورة الحسينية وما زالت مليئةً بالمعطيات، فكان المنبر الحسيني أحد تلك المعطيات؛ لأنّه يشارك الأُمّة الإسلامية في سرّائها وضرّائها، شدّتها ورخائها، وهو مصدر الوعي السياسي والثقافي فيها.

وقد حفل تاريخ المنبر الحسيني بالمواقف الثورية والأعمال البطولية، ففي ثورة العشرين في العراق شارك مجموعة من خطباء المنبر الحسيني في الدفاع عن استقلال العراق، وفي أيّام المدّ الشيوعي في المنطقة الإسلامية وقف المنبر الحسيني أمام الكفر والإلحاد بصلابة، وواصل الدفاع عن الإسلام ببسالة، وأبلى الخطباء بلاءً حسناً في إعلاء كلمة الله، ودحض الإلحاد والكفر، بعد أن انخرط مجموعة من شبابنا المسلم في هذا المدّ الجارف، كذلك ما فعله المنبر في نفوس الشباب ضدّ الكفر العفلقي والظلم الصدامي، وهذا هو الذي دفع النظام المجرم لتعطيل المنابر الحسينية وتصفية الخطباء، فسجن وعذّب الكثير من الخطباء، واستُشهد آخرون في ظروف غامضة، وشُرّد الكثير منهم، ولا ننسى دور المنبر في أحداث الثورة الإسلامية في إيران، فقد ساهم المنبر الحسيني مساهمةً فعّالة في توعية الجماهير لمساندة الثورة وقائدها الخميني رحمه الله[٣٣].

أمّا دور المنبر اليوم في الهجمة الهمجية الداعشية على عراقنا الحبيب، فقد كان له حضور مشهود، فنرى الخطباء قد شدّوا على أيدي الشباب العراقي يحثونهم على الاستجابة لنداء المرجعية، التي أعلنت بضرورة الجهاد ـ وإن كان الجهاد كفائياً ـ ضدّ هؤلاء البرابرة مغول العصر، الذين جاءت بهم دول الاستكبار

العالمي لغزو العالم الإسلامي، بعد أن تعبت من قيادة الحروب بنفسها، فسلّطت عملاءها في المنطقة لخوضها نيابةً عنها، وبأموال هذه الشعوب الإسلامية المظلومة، فكان العراق واحداً من تلك الدول التي تعرّضت لهذه الهجمة، بعد أن استطاع الأوباش الذين قَدِموا من دول مختلفة من العالم أن يُدمّروا أجزاءً كثيرة من سورية تحوّلوا إلى العراق، بعد أن جمعوا خريجي السجون المحكومين بالإعدام لتدمير العراق الصامد، سيظلّ العراق صامداً ـ إن شاء الله ـ ما بقي لأبنائه عِرقٌ ينبض، وهذا هو الهدف الأساس الذي من أجله شجّع أئمّة أهل البيت عليهم السلام على ضرورة تأسيس هذه المجالس، بل أشادوا بتلك المجالس وحثّوا عليها؛ لأنّهم عليهم السلام يعلمون أنّ هذه المجالس سوف تكون في يومٍ من الأيام مدارسَ لشيعتهم، فقد رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال لفضيل ابن يسار: «**يا فضيل، تجلسون وتحدّثون؟ قلت: نعم. قال عليه السلام: تلك المجالس أُحبّها، فأحيوا أمرنا، رحم الله مَن أحيى أمرنا، يا فضيل، مَن ذكرنا أو ذُكرنا عنده، فخرج من عينه مثل جناح الذباب غفر الله له ذنوبه ولو كانت أكثر من زبد البحر**»[٣٤].

«**والواقع أنّ لرعاية الأئمّة عليهم السلام للمجالس الحسينية، وإقامتهم لها في بيوتهم، دخلاً في تحويلها إلى مؤسّسة ثقافية واسعة، امتدّت على رقعة المسكون، لتنتظم في عقدها الشيعة مواطن ومساكن، وليس هذا التطوّر معزواً إلى العفوية، بل هو خطّة موضوعة، أحكم وضعها أئمّة أهل البيت وتابعهم على ذلك شيعتهم**»[٣٥].

وقد آتت هذه الخطوة أُكلها وعلى مرّ الزمان، فلم يؤثر عن مؤسّسة ثقافية ما أُثر عن المنبر الحسيني من الحضور الفعلي في كلّ زمان ومكان في الحياة الإسلامية؛ حيث إنّه ترك أثراً واضحاً على شخصية المسلم ذي الارتياد المستمر للمأتم الحسيني، بل حتى الذي يرتاده لأوّل مرة، فلا يقوم من مقامه إلّا وقد ترك في نفسه أثراً واضحاً، ولا ضير إذا قلنا: إنّ تقويم الشخصية الشيعية مستندٌ إلى ما يفعله المنبر الحسيني من تأثير بيّن فيها؛ لذا صار من واجب أصحاب المنابر ليس فقط التركيز على الجانب المأساوي وحده، وإنّما التركيز على كافّة الجوانب، لأنّ مَن ركّز على الجانب المأساوي ورآه مجرّد تعبير عن أقصى الحزن والألم، فقد أساء كثيراً للثورة الحسينية؛ لأنّ هذه الثورة إنّما جاءت لتصوغ المرء المسلم صياغةً ملائكية، تتلاشى فيها الصفات المذمومة التي ورثها من

حضارته المصنوعة بأيدٍ بشرية، من قبيل: الطمع، والشح، والخوف، والجبن، والانتهازية، والنفعية، والمحسوبية، والمادية، وغيرها كثير. صحيحٌ أنّ هذه المؤسّسة الاجتماعية ـ أعني المنبر الحسيني ـ لا تقوم وحدها بهذا الواجب، ولا تتعامل بمفردها مع إنسان مجتمعها، بل تتشاطر مع غيرها من المؤسّسات الاجتماعية في إعادة هوية المرء المسلم ـ وإن كان هناك مؤسّسات تحمل طابعاً غير إسلامي وهدفها تدمير المسلم ـ لذا يجب أن تكون واعية لتستوعب تغيرات العصر، ولكن بحذرٍ شديد، بحيث تستطيع أن تنتصر أو تثبت أمام التحدّيات التي قد تُطرح من مؤسّسات أُخرى، فلا تفقد جمهورها الخاصّ الذي يستجيب لنداءات الواقع وضروراته، هذا مع التأكيد على «**صفة الأصالة في حال الاستجابة لضرورات الحداثة، فلا تطغى ضرورات الحداثة على صفة الأصالة، فتخرج المؤسّسة عن حقيقتها، ويخرج قادتها عن جوهر رسالتهم**»[٣٦]، فمثلاً نرى أنّ الثقافة الحسينية في العصر الحديث قد تطوّرت لتستفيد من الوسائل الإعلامية المتطوّرة، كالإعلام المرئي والمسموع، والمسرح والإنترنت، والصحيفة وغيرها؛ ليشارك في إظهار هذا الأثر الفقيه والمفكّر والأديب والفيلسوف، والرجل والمرأة، لكنها مع ذلك لم تضمحلّ أو تتمحور على العكس؛ لأنّ الحسين عليه السلام وكما قال جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله: «**مصباح الهدى وسفينة النجاة**»[٣٧]، وأنّه عليه السلام يعطي العلم والثقافة والمعرفة للإنسان، ويدعو إلى نهضة ثقافية وحضارية، ويحارب الجهل والتخلّف الفكري والعلمي، وعليه؛ فإنّ للمنبر الحسيني آثاراً عدّة يمكن عدّها بما يلي:

١ـ **الأثر الثقافي**: الثقافة التي أسّسها الحسين عليه السلام بثورته، وهي ما نصطلح عليه (الخطابة الحسينية) وما يتعلّق بها من الأدب الحسيني، التي من خلالها يُطرح كلّ ما يهمّ الإنسان، وما يقع عليه من مسؤوليات.

٢ـ **الأثر الاجتماعي**: أصبح الحسين عليه السلام وسيلةً للوئام الاجتماعي؛ لأنّه يحملهم من مكان واحد، وتحت سقف واحد، فإنّك ترى في المجلس الحسيني العالم، والدكتور، والمهندس، والعامل، والفلاح، والرجل، والمرأة، والشاب، والكبير، والصغير، مجتمعين تحت ظلّه عليه السلام، وقد حقّق الإمام عليه السلام ما لم يحقّقه غيره، فجمع الأضداد تحت خيمته، وألغى التفاوت الطبقي والاجتماعي، بحيث يصبح الكلّ جالسين بهيئة واحدة، والكلّ آذان صاغية

يستمعون إلى ما يقوله الخطيب والأديب، ودموعهم جارية حسرةً على صاحب المصيبة.

٣ـ **الأثر السياسي**: لقد ترك الإمام الحسين عليه السلام ومنبره والنداء بمظلوميته أثراً واضحاً فيمَن أرادوا الوصول إلى حكم عادل ينعم به الإنسان، ولا يعود يعاني من الاضطهاد الذي يشهده من حكّام العالم الإسلامي اليوم، فهذا المختار الثقفي لمّا رفع شعار: «**يا لثارات الحسين**»، استطاع أن يؤسّس دولة طويلة عريضة شملت ثلاثة أرباع العراق، ووصلت إلى أرمينيا وإيران وجبال الأكراد، وقد وصل هذا كلّه بفضل رفعه شعار: «**يا لثارات الحسين**»؛ لذا فقد استجاب له الجماهير وانتصروا بالحسين على خصومهم، لهذا قال غاندي الهندوسي كلمته الشهيرة: «**تعلّمت من الحسين كيف أكون مظلوماً فأنتصر**»، إذ جعل الظلامة الحسينية شعاراً ومبدءاً في كفاحه ضدّ المحتلّ البريطاني، حتى أزاح كابوسه عن بلاده، وحرّرها بفضل الحسين عليه السلام.

٤ـ **الأثر العاطفي**: فقد ترك المنبر أثره العاطفي في الناس، فالشفقة الإنسانية تجاه سيد الشهداء عليه السلام وأصحابه وأهل بيته وعياله ونسائه، والتي تترجم بحسب فهم الناس ووعيهم وجهلهم وسذاجتهم اتّجاه الإسلام عامّة والحسين عليه السلام خاصّة، فهم ورغم اختلافاتهم هذه متّفقون على أشياء كثيرة، كإقامة المآتم، وعقد المجالس الحسينية، وقراءة الرثاء، والبكاء، وإنشاد الشعر الحزين، وإن كان هذا يختلف من بلدٍ إلى بلد.

٥ـ **الأثر الحركي والثوري**: ثورة الحسين عليه السلام أُريد منها أن تكون حركة تغييرية، وثورة ضدّ الظلم وحكّام الجور، فإذا ذُكر اسم الحسين عليه السلام تبادر إلى الأذهان: الثورة، التغيير، التمرّد على الواقع المرّ، ولأنّ هدفه عليه السلام ـ منذ خروجه ـ الإصلاح في أُمة جده، والإصلاح لا يقوم إلّا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما عاملان من عوامل النهوض الحضاري والإصلاح الاجتماعي؛ لذا قال تعالى مادحاً مَن قام بالأمرين معاً: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾[٣٨]. وبما أنّ الظلم موجودٌ في كلّ زمانٍ ومكان، فالحسين عليه السلام سوف يبقى يواجه هذا الظلم في كلّ مكانٍ وزمان، فقد ورث دروس الشجاعة وإباء الضيم ورفضه عن أبيه أمير المؤمنين عليه السلام منذ أن كان طفلاً، فقد روي أنّه عليه السلام عندما كان طفلاً حضر مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله فوجد الخليفة الأوّل يخطب، فأخذ بتلابيبه وجرّه قائلاً: «**هذا منبر أبي لا منبر**

أبيك... [فقال أبو بكر:] صدقت، هذا منبر أبيك لا منبر أبي»[٣٩]؛ لأنّه كان يعلم أنّ الحكم بعد رسول الله ﷺ لأبيه علي عليه السلام، وليس لأحدٍ غيره.

٦ـ **الأثر الديني**: هذا الأثر قال به القرآن الكريم، فقد قال تعالى: ﴿**ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ**﴾[٤٠]، فتعظيم هذه الشعائر الحسينية وإقامتها، وعمل المجالس الحسينية والتشجيع عليها، وإنفاق الأموال وبذل الغالي والنفيس هو إحياء الشعائر؛ لأنّ شعائر الحسين هي شعائر الله، وهي معالم تدلّ على دين الله، فالمسجد هو بيت الله، كذلك فإنّ الحسينية هي الأُخرى بيت الله؛ لأنّها بيت الحسين عليه السلام ولا يختلف الاثنان في ذلك[٤١].

هذه هي أدوار المنبر الحسيني وآثاره، فلنحاول إذاً إلقاء الضوء على تأثيره في فئة مهمّة من فئات المجتمع، ألا وهي فئة الشباب المسلم، ومدى تأثير شباب الطف عليهم.

المبحث الثالث: ما الذي استلهمه الشباب اليوم من دروس كربلاء الحسين وشباب الطف؟

قال تعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ**﴾[٤٢]. فالآية الكريمة قسّمت العمر الطبيعي للإنسان إلى أدوار ثلاثة، وهنّ عبارة عن دوري ضعف، يتوسّط بينهما دور قوّة، فدوري الضعف هما: دور الطفولة والصبا إلى سنّ البلوغ، ثمّ دور الكهولة والشيخوخة إلى حين الموت، وبين الدورين دور القوة وهو دور الشباب الذي يبدأ من حين البلوغ الجنسي في الخامسة عشرة عادةً إلى عمر الأربعين سنة، وهي الفرصة الوحيدة للإنسان لكي يستفيد من حياته كلّها، بأن يعتبر فيه بأخطاء الماضي، وينظّم فيه الحاضر ويبني فيه المستقبل، وفي هذا الدور ـ دور الشباب ـ تتفتّح طاقات الإنسان ومشاعره الروحية والجسمية، وتنمو مواهبه ومَلكاته الشخصية، وتنضج قواه وغرائزه، ويمتلئ نشاطاً وحيوية، ويندفع بجد واهتمام في طريق الحياة للأخذ والعطاء والتأثّر والتأثير والسعي والعمل[٤٣]، من هذا وذاك اعتبر الإسلام أنّ الشباب محور الأُمة وقطب المجتمع في كلّ ما يتعرّض له من نجاح أو فشل، وتقدّم أو تخلّف، ونصر أو هزيمة، بل صارت كلّ آمال الأُمّة وأهدافها منوطة بشبابها إن كانوا صالحين.

ومن هذه الأهمّية وجّهت المجتمعات العالمية جلّ اهتمامها لشبابها تربيةً وتعليماً ورعاية، وعنيت الحكومات والقوانين والنظم العالمية عنايةً فائقة بالشباب، فأنشأت لهم وزارة خاصّة، ووضعت لشؤونهم برامج وخطط تستهلك شطراً كبيراً من ميزانية الدولة.

والحقيقة أنّ الإسلام قد سبق جميع المجتمعات والحكومات إلى الكشف عن أهمّية الشباب وعظيم تأثيره في المجتمع، فقد ركّز الرسول ﷺ وفي بدايات دعوته على جيل الشباب، مُولياً لهم أهمّية فائقة، مستعيناً بالنظرة السليمة التي يتحلّى بها هذا الجيل، بعد أن أطلعهم على الثوابت الأخلاقية والأُصول الدينية، وضرورة أن يوجّه الشباب جميع قدراته وقابلياته باتّجاه الخير والسعادة والإحسان، فاستعمل ﷺ مجموعة من الشباب في إدارة شؤون المسلمين، فكان علي بن أبي طالب عليه السلام أوّل شاب دعاه الرسول ﷺ، فأجاب حينما أمره بالمبيت على فراشه، وأوّل فدائي في الإسلام عرض نفسه لسيوف قريش، الذين قرّروا اغتيال شخص النبي الكريم ﷺ، وكذلك كان مصعب بن عمير ذلك الشاب الذي لم يتجاوز الثامنة عشرة من العمر، الذي كان مترفاً فترك ترفه وهاجر إلى رسول الله ﷺ[٤٤]، ثمّ الشاب عتاب بن أسيد الذي كان في العشرين من عمره، ولّاه النبي ﷺ إمارة مكّة بعد فتحها[٤٥].

وآخر شاب اعتمد عليه ﷺ قبل رحيله إلى الرفيق الأعلى هو أُسامة بن زيد الشاب البالغ ثمانية عشر عاماً، أمّره على أخطر جيش جهزه في حياته، وكان تحت لوائه الشيوخ وكبار السن من الصحابة[٤٦].

وطالما لاقى ﷺ معارضة شديدة ولوم كبير ـ رغم أنّه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[٤٧] ـ من بعض مَن يعتبر نفسه أوْلى بذلك؛ لكبر سنّه أو قدمه، وكان ﷺ يرد عليهم ردّاً حاسماً، فمثلاً عندما عيّن أسامة بن زيد قائداً لجيشه تكلّم القوم وقالوا: «**يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأوّلين؟! فغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً، فخرج وقد عصب على رأسه عصابة وعليه قطيفة، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: أمّا بعد، أيّها الناس فما مقالةٌ بلغتني عن بعضكم في تأمير أُسامة، لئن طعنتم في تأميري أُسامة فقد طعنتم في تأميري أباه قبله، وأيم الله، إنّه كان للإمارة خليقاً، وإن ابنه بعده لخليقٌ للإمارة، وإن كان لمن أحبّ الناس إليّ، فاستوصوا به خيراً، فإنّه من خياركم**»[٤٨].

وما اهتمامه ﷺ هذا لهم، وإصراره على حماية الشباب الأكفاء، ودعم مواقفهم إلّا لأنّه ﷺ كان يريد أن يرسّخ في أذهان عامّة المسلمين أنّ الذين كانوا يخطئون الشباب يحب أن يلتفتوا إلى جهلهم في هذا التقييم.

أمّا الأئمّة المعصومون عليهم السلام، فقد أوصوا بالشباب، ولهم عليهم السلام شواهد قولية وفعلية على اعتمادهم وثقتهم بالشباب المؤمن في إقامة الحق، والدعوة إلى الصراط المستقيم، فقد سُئل أمير المؤمنين عليه السلام يوماً من أيام معارك صفّين ضدّ المتمرّدين (معاوية وحزبه)، فقيل له: ما الذي أقعدك عن انتزاع حقّك في الخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ، فقال عليه السلام: «**هؤلاء...**»، وأشار إلى فرقةٍ من جيشه تشتمل على عشرة آلاف شاب من شباب المدينة وأطرافها، هؤلاء كانوا في أصلاب آبائهم وأرحام أُمّهاتهم في ذلك اليوم[٤٩].

وقد حدّث عليه السلام ابنه الحسن عليه السلام في وصيّته له عن دور الآباء في تربية الشباب فقال: «**وإنّما قلب الحدث كالأرض الخالية، ما أُلقي فيها قبلته، فبادرتُك بالأدب قبل أن يقسو قلبك ويشتغل لبّك**»[٥٠].

وما هذا إلّا لأنّه عليه السلام يعلم أنّ أيام الشباب تعني بلوغ أعلى القمم، وشروع أجمل مراحل العمر، الشاب في هذه المرحلة يرى الأشياء جميلة، ويرى الأُفق واسعاً مليئاً بكلّ ما يستهويه ويرتضيه، ويصبح غارقاً بالآمال والأُمنيات، وقلبه طافح بالحبّ والأمل.

وهكذا أكّد بقية الأئمّة عليهم السلام على وجوب تربية الشباب، والاعتناء بهم وبنائهم بناءً فكرياً وروحياً وخُلقياً؛ لأنّهم مؤهّلون لنقل التعلّم أكثر من غيرهم، فعن أبي عبد الله وأبي جعفر عليهما السلام قالا: «**لو أُتيت بشاب من شباب الشيعة لا يتفقه لأدبته، قال: وكان أبو جعفر** عليه السلام **يقول: تفقهوا، وإلّا فأنتم أعراب**»[٥١].

وما دمنا في الحديث عن الشباب ودورهم في الحياة الاجتماعية لا بدّ من أن نعرّج على شباب الطف؛ لما لدورهم من أهمّية، فقد وقفوا مواقف بقيت آثارها إلى اليوم محرّكةً للتاريخ، ومقوّمة لمسيرته، وهؤلاء الشباب ساروا أكثر من ألفي كيلو متر من مكّة إلى كربلاء، والكوفة، وسنجار، وحلب، ودمشق، ثمّ عادوا في نفس الطريق إلى المدينة، علماً أنّهم لم يتعوّدوا على هذه الرحلات الطويلة والشاقّة المرافقة للخوف والإرهاب والبطش، فكانت رحلتهم ملحمة من التضحية والجهاد، والجود بالنفس في سبيل العدالة والمساواة وإحقاق حكم الله في الأرض، فكانت أمانيهم ومطامحهم صموداً في الأهوال،

وصبراً في البأساء، واستشهاداً بحدّ السيوف، فإذا كانت مطامح الشباب عيشاً رغيداً ومستقبلاً سعيداً حافلاً بكلّ ألوان النِّعَم كما نشاهد ونرى، فإنّ شباب كربلاء لم يفكّروا أو يهتمّوا بما أُعدّ لهم من غضارة الدنيا، وما ينتظرهم من صفو الحياة ولهوها ومتعتها، بل كان همّهم التطلّع إلى أي سبيل من سُبل الشهادة يعبرون، وأي موقفٍ من مواقف البطولات يقفون.

نحاول على عجالةأن نذكر بعض أسماء هؤلاء الشباب وبعض مواقفهم التي سطّرها التاريخ بأحرفٍ من نور، فقد سار الحسين عليه السلام في طريقه إلى كربلاء على رأس قافلة من الشباب الأبطال، متحدّياً أقوى سلطة وأبشع طغيان بسبعين من الرجال والشباب؛ ليحطّم بهذا العدد القليل قوى الشر والطغيان، ومعاقل البغي والعدوان، وليعلم أبناء آدم كيف يموتون في سبيل العزّة والكرامة[٥٢]، فمن هؤلاء الشباب:

١ـ **علي الأكبر**: هو علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، وُلد في أوّل خلافة عثمان بن عفان، أو بعد جدّه عليه السلام بسنتين كما ذكره الشيخ المفيد في الإرشاد[٥٣]، أُمّه ليلى بنت أبي مرّة بن عروة بن مسعود الثقفي[٥٤]، كان يشبه جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله في المنطق والخَلق والخُلق[٥٥]، وروى الحديث عن جدّه علي بن أبي طالب عليه السلام، كما حقّقه ابن إدريس في السرائر، ونقله عن علماء التاريخ والسير.

علي الأكبر رمز الشباب، علي الأكبر الشاب الكامل، علي الأكبر المؤمن ذو البصيرة النافذة، ذو الإيمان الصلب، يُقال: إنّه لمّا «**سار الحسين عليه السلام وهوّمت عيناه بالنوم ساعة انتبه وهو يقول: إنّا لله وإنّا إليه راجعون. فأقبل عليه ولده علي الأكبر عليه السلام وقال له: يا أبتِ، لِمَ استرجعت، لا أراك الله سوءاً؟ فقال عليه السلام: يا ولدي، خفقت خفقةً فرأيت فارساً وهو يقول: القوم يسيرون والمنايا تسير بهم. فقال له: يا أبتِ، ألسنا على الحق؟ قال: بلى، نحن والله على الحق. فقال علي الأكبر عليه السلام: إذاً والله، لا نبالي أوقعنا على الموت أو وقع الموت علينا**»[٥٦].

فإنّه عليه السلام لم يُقدم على أيّة صغيرة ولا كبيرة إلّا وسأل إمامه الحسين عليه السلام عنها؛ حرصاً منه على تطبيق الحكم الشرعي، وهو ما يجب أخذه بنظر الاعتبار من جميع الشباب.

كان أوّل مَن قُتل بالطف من بني هاشم بعد أنصار الحسين عليه السلام، فإنّه وبعد أن شاهد أصحاب الحسين عليه السلام يُستشهدون واحداً تِلو الآخر استأذن الإمام الحسين عليه السلام للخروج،

فأذن له، وقال عليه السلام: «**اللّهمّ اشهد فقد برز إليهم غلامٌ أشبه الناس خلقاً وخلقاً ومنطقاً برسولك صلى الله عليه وآله، وكنا إذا اشتقنا إلى نبيّك نظرنا إليه**». ثمّ صاح بابن سعد: «**قطع الله رحمك كما قطعت رحمي**»[٥٧].

فشدّ على القوم مرتجزاً:[٥٨]

أنا علي بن الحسين بن علي
نحن وبيت الله أولى بالنبي
والله لا يحكم فينا ابن الدعي
أضرب بالسيف أحامي عن أبي

فقاتل قتالاً شديداً، ثمّ عاد إلى أبيه وهو يقول: «**يا أبتِ العطش قد قتلني، وثقل الحديد قد أجهدني...**»، حتى استُشهد على يد مرّة بن منقذ[٥٩].

وبهذا تكون كربلاء قد قدّمت أبهى الصور، وأقدس الأنفس، وأحب الناس إلى الله تعالى من الشباب الذين باعوا أنفسهم لله، وأرخصوها في سبيله، وإذا كان الإنسان بحاجة إلى نبراس وقدوة فلا أفضل من علي الأكبر عليه السلام، فهو خير قدوةٍ وأُسوة لشبابنا، وهو العالم العابد وصاحب العقيدة الثابتة.

٢ـ **القاسم بن الحسن بن علي بن أبي طالب** عليهما السلام: أُمّه أُمّ عبد الله بن الحسن الذي سمّاه البعض تصحيفاً أبا بكر، كان يوم الطف غلاماً لم يبلغ الحلم، وقيل: إنّه بلغ الحلم.

قال الراوي: «**وخرج غلام كأنّ وجهه شقّة قمر، فجعل يقاتل، فضربه ابن فضيل الأزدي على رأسه، ففلقه، فوقع الغلام لوجهه وصاح: يا عمّاه، فجلى الحسين عليه السلام كما يجلي الصقر، ثمّ شدّ شدة ليثٍ أغضب، فضرب ابن فضيل بالسيف، فاتقاها بالساعد، فأطنّه من لدن المرفق، فصاح صيحة سمعه أهل العسكر، وحمل أهل الكوفة ليستنقذوه فوطأته الخيل حتى هلك. قال: وانجلت الغبرة، فرأيت الحسين عليه السلام قائماً على رأس الغلام وهو يفحص برجليه، والحسين عليه السلام يقول له: بُعداً لقومٍ قتلوك، ومَن خصمهم يوم القيامة فيك جدّك وأبوك...**»[٦٠].

ولقد قال له الإمام الحسين عليه السلام أنت العلامة من أخي، أنت الوديعة من أخي، وجمعاً بين الكلمتين الشريفتين ننتهي إلى «**أنّ القاسم كان يحمل صفات أبيه الحسن المجتبى عليه السلام، وقد أجمع المؤرِّخون على أنّه كان أشبه ولد الحسن بالحسن**»[٦١].

وكان شباب أهل البيت آنذاك هم «**عشرون شاباً من نسل أبي طالب وأحفاد رسول الله محمد صلى الله عليه وآله، رفضوا الذل والهوان،**

ومشوا إلى الموت بأُنوف شامخة ورؤوس مرفوعة عالية؛ لحماية الإسلام من الوثنية والجاهلية الرعناء»[٦٢].

وإذا اقتصرنا على هذين الشابين فإنّه لا يعني أنّه لا يوجد غيرهم، فقد كان قمر بني هاشم العباس وإخوانه في ريعان الشباب، وكذلك بنو عقيل، بل بنو طالب أجمعون الذين قالوا له وبصوتٍ واحد ـ عندما خيّرهم الإمام بين البقاء الذي يعني الموت وبين الرحيل ـ: «**يا بن رسول الله، فما يقول الناس لنا وما نقول لهم، إنّا تركنا شيخنا وكبيرنا وابن بنت نبيّنا، لم نرمِ معه بسهم، ولم نطعن معه برمح، ولم نضرب بسيف؟! لا والله، يا بن رسول الله، لا نفارقك أبداً، ولكننا نقيك بأنفسنا حتى نُقتل بين يديك...**»[٦٣].

وهكذا أدّى الشباب العلويون مهمّتهم على خير وجه، وقد ضربوا لشبابنا اليوم دروساً في التّضحيات، ولا يقتصر الكلام على الشباب العلوي، بل كان لشباب الأنصار دورٌ آخر في المعركة نأخذ منه نماذج قليلة:

١ـ **وهب الكلبي**: وهو وهب بن عبد الله، كان نصرانياً فأسلم هو وأُمّه وزوجته على يد الإمام الحسين عليه السلام[٦٤]، وأحسن في الجلاد وبالغ في الجهاد، بعد أن قتل في المبارزة أربعةً وعشرين راجلاً واثني عشر فارساً، ورجع إلى أُمّه وقال: يا أُمّاه أرضيت أم لا؟ فقالت: لا، ما رضيت حتى تُقتل بين يدي الحسين عليه السلام. وقالت امرأته: بالله عليك لا تفجعني في نفسك. فقالت له أُمّه: يا بني أعزِب عن قولها، وارجع فقاتل بين يدي ابن بنت نبيك؛ تنال شفاعة جدّه يوم القيامة.

فرجع ولم يزل يقاتل حتى قُطعت يداه، فأخذت أمرأته عموداً فأقبلت نحوه وهي تقول: فداك أبي وأُمّي، قاتِل دون الطيبين حرم رسول الله صلى الله عليه وآله، فأقبل ليردّها إلى النساء، فأخذت بثوبه وقالت: لن أعود دون أن أموت معك. فقال الحسين: جزيتم من أهل بيتٍ خيراً، ارجعي إلى النساء يرحمك الله. فانصرفت إليهنّ، ولم يزل يقاتل حتى قُتل (رضوان الله عليه)[٦٥]. فذهبت امرأته تمسح الدم عن وجهه فبصر بها شمر، فأمر غلاماً له فضربها بعمودٍ كان معه فشجّها وقتلها، وهي أوّل امرأة قُتلت في عسكر الحسين عليه السلام[٦٦].

٢ـ **عمر بن جنادة الأنصاري**: هو شابٌّ جاء مع أُمّه وأبيه، وبعد أن استُشهد أبوه جاء يستأذن الحسين للمبارزة فأبى الحسين عليه السلام وأرجعه، وقال: هذا غلامٌ قُتل أبوه في الحملة الأُولى ولعلّ أُمّه تكره ذلك. فقال الغلام: إنّ أُمّي هي

التي أمرتني يا بن رسول الله. فخرج وهو يقول:

أميري حسينٌ ونعم الأمير

سرور فؤادي البشير النذير

عليٌّ وفاطمة والداه

فهل تعلمون له من نظير

ثمّ قاتل فقُتل وحُزّ رأسه ورُمي به إلى معسكر الحسين عليه السلام، فأخذت أُمّه رأسه وقالت له: أحسنت يا بني، يا قرّة عيني وسرور قلبي. وأخذت عمود خيمة وحملت على القوم وهي تقول:[٦٧]

أنا عجوزٌ في النساء ضعيفة

باليةٌ خاويةٌ نحيفة

أضربكم بضربةٍ عنيفة

دون بني فاطمة الشريفة

والحقيقة لا يدري الإنسان بمَن يُعجب بالأُمّ أم بولدها أم بزوجها، هذا غيضٌ من فيض، هؤلاء الأصحاب الذين لم يعهد التاريخ لنبي ولا وصي من الأوصياء، ولا ملك من الملوك، ولا زعيم من الزعماء كأصحاب أبي عبد الله الحسين عليه السلام، فإنّهم (رضي الله عنهم) كانوا ينظرون إلى حركات إمامهم وسكناته، ويعملون ما كان يعمله عليه السلام، ويتركون ما كان يتركه، وكانوا لا يحيدون عن ذلك قيد شعرة[٦٨]، لذلك نراه عليه السلام يخاطب أصحابه وأهل بيته: «**أمّا بعد، فإنّي لا أعلم أصحاباً أصلح منكم، ولا أهل بيت أبر ولا أفضل من أهل بيتي، فجزاكم الله جميعاً عنّي خيراً**»[٦٩]. وهذا يعني أنّهم أفضل من شهداء بدر وأُحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، فضلاً عن أصحاب الأنبياء السابقين، وقد قِيل: «**إنّ الذين ذهبوا مع الحسين عليه السلام إلى كربلاء هم خمسمائة وما فوق، إلّا أنّهم تفرّقوا عنه حين أخبرهم بنهايته المؤلمة**»[٧٠].

وكان من حقّ الإمام الحسين عليه السلام أن يفتخر بهم جميعاً؛ وذلك لأنّ التاريخ لم يسجّل من عهد آدم إلى اليوم أنّ سبعين رجلاً وقفوا في مقابلة سبعين ألف من الرجال، وبهذا تكون واقعة الطف قد ضمّت جميع الشرائح الاجتماعية، رجالاً ونساءً، عبيداً وأحراراً، شيباً وشباباً... كما شملت جميع الأبعاد الرسالية، وتجسّدت فيها أروع صور التضحية والفداء، والشجاعة والإباء[٧١]، وما أحرانا اليوم أن نتّعظ ونأخذ العبرة من هؤلاء جميعاً، لا سيما شبابنا الذين يشكّلون اليوم الغالبية العظمى ممَّن ينبغي أن يتوجّه إليهم المنبر الحسيني بالتبليغ، فهم في أمسّ الحاجة للتوعية والإرشاد الديني؛ لأنّه يمكن لنا أن نصلح كلّ ما دمّرته قوى الاستكبار العالمي ـ التي من جملتها إفساد

هؤلاء الشباب ـ وفق مخطّطات مدروسة دراسة دقيقة، ومبنية على أُسس علمية ونفسية؛ وعلينا أن نقوم بهذا الواجب لأسباب عدّة:

١ـ لأنّ الشباب اليوم يشكّلون الأغلبية من مجموع نفوس أبناء الشعب.

٢ـ إنّ أعداء الإسلام يتربّصون بنا الدوائر منذ فترات طويلة، وإذا كنّا قد غفلنا نحن عن شبابنا، فإنّ العدو غير غافل، بل هو يحاول جذب شبابنا والسيطرة على عقولهم وأفكارهم، عبر الإذاعات والفضائيات والكتب والأساليب المتناسبة مع طبائع الشباب وشهواتهم.

٣ـ إنّ شريحة الشباب أكثر قبولاً وأسرع تقبّلاً من غيرهم؛ لأنّهم يحملون قلوباً نيّرة، كما وصفهم رسول الله ﷺ، لم تتلوّث بعدُ بقدَر تلوّث قلوب مَن تصرّمت من أعمارهم سنوات طويلة، ويمكنهم بكلّ سهولة أن يُدركوا الحقيقة والاستجابة لها[٧٢].

والحقيقة أنّ شبابنا اليوم يؤمن ويعتقد بالدين الإسلامي، وهذا شيء مهم، لكنّهم يحتاجون إلى بذل جهد جهيد في هذا المجال، وهذا الجهد يجب أن يكون أكبر من الجهد الذي بذله أعداؤنا لأجل إضلال الشباب؛ لأنّنا اليوم في معركة، لكنّها ليست كالمعارك التي خاضها المسلمون في جبهات القتال؛ لأنّ عدوّنا قد تعب من الحروب، فقرّر أن تكون حروبه عبارة عن إعلام مضلّل ضدّ الشباب، فإذا قضى على هؤلاء فلا يحتاج إلى الحروب الواقعية، ولا إلى خسائر الحرب المادية والروحية، لنأخذ مثلاً ما قاله الإسرائيلي الدكتور مالحوم أخنوف، صاحب فكرة برنامج (ستار أكاديمي): كنّا متأكّدين من نجاح فكرة البرنامج؛ لأنّنا نعلم أنّ المسلمين اليوم ابتعدوا عن دينهم، وفي نفس الوقت العديد من الشباب المسلم بدأوا يميلون إلى الالتزام الديني، الذي لو كبر وتزايد سيقضي على دولتنا.

وعندما سُئل عن أسباب حرصهم على أن يكون (ستار أكاديمي) وسيلة لتدمير المسلمين قال أخنوف: إنّنا نريدهم أن يبتعدوا عن دينهم. وأضاف: كنّا نخطّط لغزو البنات المسلمات، فإذا انحرفت الفتاة المسلمة سينحرف جيل من المسلمين وراءها؛ ولذا نحن اليوم نحرص على غزو المسلمة وإفسادها عقلياً وفكرياً وجسدياً أكثر من صنع الدبابات والطائرات الحربية. وسُئل عن هذا البرنامج الذي تقدّمه الفضائية اللبنانية (**LBC**) فأجاب: نحن نتبرّع لهم كلّ يوم بمبلغ كبير من المال، والبرنامج تحت إشرافنا باستمرار. وأخيراً وُجّه له سؤال: ماذا تقول للأُمّة الإسرائيلية؟ فقال: أُوصيهم أن

يستغلّوا نوم المسلمين، فإنّهم أُمّة لو صحت تسترجع في سنين قليلة ما سُلب منها في قرون[٧٣].

وبين مطرقة هذه الحرب الجديدة التي شنّها الغرب الكافر علينا وبين إهمال حكوماتنا الوطنية واجبها تجاه شبابنا المسلم، ضاع الشباب وعاشوا أزمة هوية، أو لنَقُل: (تشوّش الهوية) الذي يعني: عجز الناشئة عن تقبّل الدور الذي يطالبهم المجتمع بإيفائه[٧٤]، فعلماء النفس «**يرون في مرحلة الشباب أزمة نفسية طويلة، وصراعاً نفسياً محتدماً بين (المؤثرات) و(الاستجابات)، ويتعاملون مع الشباب من منطلق المراهقة التي توصم بالقلق والحيرة والاكتئاب والانفعالات**»[٧٥]؛ لذا صار من الواجب علينا جميعاً كمربّين أن نضاعف الجهود لأجل هذه الثروة العظيمة، التي هي المحرّك الرئيس لحياة الأُمّة، والدم الذي يجري في عروقها، علينا جميعاً السعي للحيلولة دون وقوع شبابنا فريسة الانحراف والانحلال والتبعية للغرب، أو أن يضيّعوا أعمارهم في اللهو والعبث والهوايات الفارغة.

هذا العمر الثمين الذي نستطيع أن نكتسب في كلّ ساعة، بل في كلّ دقيقة منه كمالاً بالعودة إلى الله تعالى، ولرُبّ سائلٍ يسأل: ما هي العوامل التي حفّزت الشاب على الانحراف؟

الجواب:

١ـ جهل المربّين وأولياء الأُمور بالأساليب الصحيحة للتربية، وضغطهم على الأبناء ليعيشوا الحياة التي يعيشونها هم، وهذا التصرّف غير لائق، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**لا تقسروا أولادكم على آدابكم، فإنّهم مخلوقون لزمان غير زمانكم**»[٧٦].

٢ـ أن يكون المربّي بمثابة قدوة للشباب، في الجانب الأخلاقي والسلوكي والإيماني، فإذا كانت القدوة سيئة فماذا تتوقّع من المقتدي، فهم ينهونه عن تصرف ويفعلونه؛ لذا نصحت الأحاديث كلّ مَن يؤدّب غيره ويعظه أن يؤدّب نفسه ويعِظها أوّلاً؛ لذا صار واجب أصحاب المنابر أن يكونوا بالمستوى الذي يكونون فيه قدوةً للناس في كلّ شيء.

٣ـ أن يتحلّى المربي بقدرة الصبر؛ ليكون قادراً على حلّ مشاكلهم، فسعة الصدر كفيلة بتذليل كلّ المعوقات.

٤ـ أن يُؤمن المربي بأهمّية العمل الموكول إليه، وأن يُؤمن بالثواب الأُخروي جزاءً لعمله هذا.

٥ـ الصدق والإخلاص في العمل، والحذر من كلّ تصرّف يسبّب إيجاد هفوات في

شخصية الشاب.

٦ـ انتشار وسائل الإفساد وإحاطتها به في مقابل غياب صوت الحقّ أو ضعفه، فأغلب المساجد خالية من أئمّة الجماعات وليس فيها خطب أو محاضرات أو حوارات.

٧ـ البيئة الفاسدة التي تحيط بالناشئ، فلخلوّه من التجربة وعدم نضجه يحاول أن ينفتح على أصدقائه؛ ليأخذ منهم الحلول لمشاكله وهمومه في غياب العلاقة الودية المبنية على الصراحة والثقة بين الولد وأبيه[٧٧].

٨ـ مراقبة الآباء أبناءهم، دون أن يُشعروهم بالمراقبة، مَن من البشر يصاحبون؟ فرفقة السوء لها تأثير على الشباب، وصَدَقَ الشاعر حينما قال:[٧٨]

لا تَربط الجرباء حول صحيحةٍ

خوفي على تلك الصحيحة تجرَبُ.

وفي الحِكَم المأثورة: مَثل قرين السوء مَثل الحية، لينٌ لمسها قاتلٌ سمّها.

وكذلك فإنّ الطيور على أشكالها تقع، حتى لا يندم الشاب يوم القيامة فيقول: ﴿**يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا**﴾[٧٩]، فالأخلاق السيئة مرضٌ معدٍ يتسلّل من صاحبه إلى أصحابه وأصدقائه.

نقل الإمام الصادق عن أبيه عليهما السلام أنّه قال: «**يا بني، مَن يصحب صاحب السوء لا يسلم، ومَن يدخل مداخل السوء يُتّهم...**»[٨٠]، وقد حذر عليه السلام من صحبة الفاجر بقوله: «**لا تصحب الفاجر فيعلّمك من فجوره**»[٨١].

إذن؛ ما الشاب الذي يريد الإسلام بناءه؟ هذا النوع من الشباب يجب أن يتّصف بما يلي:

١ـ أن يكون متّزناً منضبطاً، جاداً هادئاً، حكيماً، لا ينصرف إلى شكله ومظهره وشعره، والحركات المشبوهة والتصرّفات المستنكرة كما هو شائع ومطلوب في عالم اليوم المتخم بوهم التحرّر إلى حدّ الانتحار، حتى غدا التحرّر عبثاً ولهواً ومجوناً وعبودية لكلّ شيء إلّا الله.

٢ـ أن يكون ملتزماً متعبّداً ساعياً إلى مرضاة الله، وأن يقضي وقته فيما يفخر به في الآخرة ولا يخجل منه في الدنيا، ففي الأثر عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**ما من شابٍ يدَع لله الدنيا ولهوها، وأهرم شبابه في طاعة الله إلّا أعطاه الله أجر اثنين وسبعين صِدّيقاً**»[٨٢].

٣ـ أن يكون مُقبلاً على التفقّه المحل للعلم النافع، الذي يحتاجه في سائر مواقع حياته، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**فالعلم في الصغر كالنقش في الحجر**»[٨٣].

٤ــ أن يكون مسخّراً لطاقاته وحيويته ونشاطه وقوّته في سبيل الله تعالى، فقد رُوي عن رسول الله ﷺ في قوله: «**إنّ الله يُحبّ الشاب الذي يفني شبابه في طاعة الله**»[٨٤].

٥ـ أن يكون غيوراً لا يرضى الاعتداء على مقدّسات وحرمات بلده، ثمّ يجلس لا يحرّك ساكناً، فضلاً عن أن يكون راضياً أو مبتسماً، كما يحدث في المجتمع في هذا الزمان، فما تعرّض له العراق في هذا اليوم من هجمة شرسة من قبل ما يُسمى بعصابات (داعش) الإجرامية يجب أن يكون حضور الشباب وغيرتهم فيه كغيرة أصحاب الحسين عليه السلام على دينهم، وكغيرة العباس عليه السلام على أخيه الحسين عليه السلام، وربّما يجهل الكثيرون خاصّةً في هذه الأيّام أنّ الغيرة واجبة على الرجال، وهذا للأسف ناتجٌ عن حالة التفلّت التي نراها عبر وسائل الإعلام، واعتياد المفاسد، وشياع الاختلاط والمفاكهة بين الرجال والنساء.

٦ـ أن يتمتّع شبابنا بالحياء الذي هو خير صفات الشاب المسلم، وقد كانت هذه الصفة من أبرز صفات سيدنا رسول الله ﷺ، لا سيما في كلامه وملبسه، وهما أمران يُستحبّان اليوم بشكلٍ أكيد، فمخالفة الحياء ظاهرة شائعة من خلال السباب والشتائم، والكلمات المحرّمة التي تُطلق علناً في الشوارع والأماكن العامّة وبصوت عالٍ دون خجل، مع أنّ الرواية تصرّح: «**لا إيمان لَمن لا حياء له**»[٨٥].

٧ـ أن يكون الشاب مستعدّاً دوماً للتضحية والجهاد في سبيل الله ونصرة الدين، فبقدر ما نكون أقوياء بقدر ما نحافظ على وجودنا وكياننا وحقوقنا واستقلالنا. ومرحلة الشباب هي الفرصة الأنسب لإعداد أنفسنا للجهاد والدفاع عن مقدّساتنا، لا سيما بعدما صرّح رؤوس الكفر في دولة داعش أنّ معركتهم لن تكون على أرض الموصل فقط، بل إنّ معركتهم الحقيقية في بغداد والنجف وكربلاء والجنوب أجمع، وما حملة التطوّع التي سارع إليها الشباب بعد فتوى المرجعية بضرورة الجهاد الكفائي إلّا دليل على تفاني هؤلاء الشباب في سبيل الدين والوطن، مستمدّين مبادئهم من إمامهم، الإمام الحسين عليه السلام.

٨ـ أن يحبّ الشباب المستحبّات والسنن، ويتقيّدوا بها ويحرصوا عليها، وبهذا يبرهن الشباب مدى حبّهم لرسولهم ﷺ الذي قال: «**مَن أحيى سنّتي فقد أحبّني، ومَن أحبّني كان معي في الجنة**»[٨٦]. والسنة والآداب تكون في قيامه وقعوده، وعند نومه، وفور استيقاظه، وعند طعامه، وجلساته ومشيته، وعباداته، وأن يبقى

دوماً على وضوء، ويصلّي الصلاة في أوّل وقتها[٨٧].

والخلاصة التي يجب الانتهاء إليها هي: أنّ مرحلة الشباب في حياة الفرد هي مرحلة بناء، وفي حياة الأُمّة والمجتمع هي مرحلة تحوّل، فإن كان الشباب رشيداً ناضجاً واعياً عاقلاً، فإنّه يبني لنفسه مستقبلاً سعيداً ويحوّل أُمّته إلى العزة والقوّة والكرامة وحياة أفضل، وإن كان الشباب لاهياً مائعاً، سادراً في غيّه، وغارقاً في شهواته، فإنّه يبني لنفسه بيتاً ينهار على رأسه، ومستقبلاً يُرثى له ولا يُغبط عليه، وفي نفس الوقت يدفع بأُمّته إلى الانهيار المادي والمعنوي، وإلى هذا المعنى أشار الإمام علي عليه السلام بقوله: «**أصناف السكر أربعة: سكر الشباب، وسكر المال، وسكر النوم، وسكر المُلك**»[٨٨].

وقد سُئل حكيمٌ: متى يبلغ الإنسان سنّ الرشد؟ فقال: متى صار يعرف مصلحته ويُؤثرها على شهواته.

النتائج

بعد أن أبحرت سفينتنا في بحر الحسين عليه السلام، وفتّشت في داخله عن ألماسه وجواهره وصدفه ولآلئه، استطعنا أن نستخرج منه ما للخطاب العاشورائي من أثر في إصلاح الأُمّة وتوحيدها، فكان الشباب أُنموذجاً لذلك الجوهر الغائص في أعماق ذلك البحر الحسيني، الذي منه نهلنا جميعاً وشربنا من مائه العذب الرقراق، فكانت من تلك النتائج:

١ـ إنّ الحسين ومبادءه يجب أن تعيش في وجدان كلّ مسلم عرف الحسين عليه السلام وثورته المباركة، فالحسين عليه السلام ليس وقفاً على الشيعة وحدهم، بل هو جاء للبشرية جمعاء، لكلّ زمانٍ ومكان.

٢ـ إنّ للخطاب الحسيني الهادف أثراً في إصلاح الأُمّة وتوحيد كلمتها، ونحن اليوم أحوج إليه من الأمس؛ بسبب تصدّع الصف الإسلامي الواحد.

٣ـ يجب أن يكون لتضحيات الشباب الحسيني ومواقفهم لحظة تأمّل وتفكّر من قبل شبابنا اليوم، بعد الانحرافات الكثيرة والخطيرة التي شهدها المجتمع المسلم، لا سيّما مجتمع الشباب، وهذا ما يقع دوره على خطباء المنابر الحسينية اليوم، فهم المخاطبون بإيصال الكلمة إلى مَن يحتاجها؛ لكيلا يقول قائل: لا أعلم.

٤ـ إنّ شبابنا اليوم أمام مسؤولية شرعية كبرى، بعدما تعرّض ديننا لهجمة شرسة من

قبل أعداء الإسلام، فيجب أن يهبّوا لنصرة الدين، وإلّا أصبحنا بخبر كان.

٥ـ إنّ مرحلة الشباب في حياة الفرد إنّما هي مرحلة بناء، وفي حياة الأُمّة والمجتمع هي مرحلة تحوّل، ففي الحالتين الشاب مسؤول أمام الله والتاريخ عن عزة ورفعة أُمّته، وهو أيضاً مسؤول عن ضياع الأُمّة ورقها وعبوديتها.

فهرست المصادر

* القرآن الكريم.

[١] الأخبار الطوال، أبو حنيفة أحمد بن داوود الدينوري (ت٢٨٢هـ)، تحقيق: عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتاب العربي، ط١، ١٩٦٠م، القاهرة.

[٢] الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، محمد بن محمد بن النعمان المفيد (ت٤١٣هـ)، دار المفيد، ط٢، ١٤١٤هـ بيروت.

[٣] الأعلام، خير الدين الزركلي، ط٣، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، بيروت.

[٤] الإمام الحسين عليه السلام (سماته وسيرته)، محمد رضا الحسيني الجلالي، دار المعروف، قم.

[٥] أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى البلاذري (ت١٧٩هـ)، تحقيق: محمد حميد الله، دار المعارف، ١٩٥٩م، مصر.

[٦] بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار عليهم السلام، محمد باقر بن محمد تقي المجلسي (ت١١١١هـ)، دار إحياء التراث العربي، ط٣، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، بيروت ـ لبنان.

[٧] تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليه وآله، أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحراني (ت ق٤هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، مؤسّسة النشر الإسلامي، ط١، ١٤٠٤هـ قم.

[٨] تربية الشباب بين المعرفة والتوجيه، علي القائمي، مكتبة دار النبلاء فخراوي، ط١، ١٩٩٦م/١٤١٦هـ المنامة ـ البحرين.

[٩] تفصيل وسائل الشيعة، محمد بن الحسن الحرّ العاملي (ت١١٠٤هـ)، مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ط١، ١٤١١هـ قم المقدّسة.

[١٠] ثورة الحسين في الوجدان الشعبي، محمد مهدي شمس الدين، الدار الإسلامية، ط١، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، بيروت.

[١١] الحركة الإصلاحية بين أصحاب الكساء والحسين سيد الشهداء، محمد القبانجي، مؤسّسة إحياء التراث الشيعي، ط١، ١٤٢٩هـ النجف الأشرف.

[١٢] خلفيات ثورة الإمام الحسين عليه السلام، محمد مهدي الآصفي، مركز دراسات نهضة الإمام الحسين عليه السلام، ط١، قم المقدّسة ـ إيران.

[١٣] دور المنبر في التوعية الإسلامية، محمد باقر المقدسي، مطبعة سليمان زاده، ط١، ١٤٢٤هـ طهران.

[١٤] دنيا الشباب، محمد حسين فضل الله، دار التعارف للمطبوعات، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، بيروت ـ لبنان

[١٥] الرسالية في الثورة الحسينية، حسين الحاج حسن، دار الكرام، ط١، ١٩٩٣م/١٤١٣هـ بيروت ـ لبنان.

[١٦] الشباب وأزمة الهوية، الدكتور محمد رضا شرفي، ترجمة: زهراء بكانة، دار الهادي، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م،

بيروت ـ لبنان.
[١٧] شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، تحقيق: محمد أبي الفضل أبراهيم، دار إحياء التراث العربي، ط٢، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، بيروت ـ لبنان.
[١٨] صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت٢٦١هـ)، دار الفكر، بيروت.
[١٩] عاشوراء في فكر الإمام الخميني، مركز الإمام الخميني الثقافي، جمعية المعارف الإسلامية الثقافية، ط٣، ١٤٢٨هـ /٢٠٠٧م، بيروت ـ لبنان.
[٢٠] عوامل خلود الثورة الحسينية، محمد الهنداوي، دار المحجّة البيضاء، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، بيروت ـ لبنان.
[٢١] فن الخطابة الحسينية، إعداد: سيد مرتضى الحسيني، مؤسّسة الإرشاد والتوجيه الديني في النجف الأشرف، برعاية مكتب السيد السيستاني، دار الاعتصام، ط١، ١٤٢٧هـ
[٢٢] في ظلال الطف (بحوث تحليلية ليوم عاشوراء)، محمد مهدي الآصفي، دار الكرام، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، بيروت ـ لبنان.
[٢٣] قواعد بناء الشباب، محمد اليعقوبي، دار الصادقين للطباعة والنشر، ط١، ١٤٣٢هـ/٢٠١٣م، النجف الأشرف.
[٢٤] كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين بن حسام الدين (المتقي الهندي) (ت٩٧٥هـ)، مؤسّسة الرسالة، ١٤٠٩هـ بيروت.
[٢٥] اللهوف على قتلى الطفوف، علي بن موسى بن جعفر بن طاووس (ت٦٦٤هـ)، تحقيق: فارس الحسون، دار الأُسوة للطباعة والنشر، ط١، ١٤١٣هـ مؤسّسة الميلاد، إيران.
[٢٦] مجالس عاشوراء، محمد الهنداوي، دار المحجّة البيضاء، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، بيروت ـ لبنان.
[٢٧] مدينة معاجز الأئمّة الاثني عشر ودلائل الحجج على البشر، هاشم بن سليمان البحراني (ت١١٠٧هـ)، تحقيق: عزة الله المولائي، مؤسّسة المعارف الإسلامية، ط١، ١٤١٣هـ قم.
[٢٨] مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، ميرزا حسين النوري الطبرسي (ت١٣٢٠هـ)، تحقيق مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ط١، ١٤٠٨هـ بيروت.
[٢٩] مسند أحمد، أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ)، دار صادر، بيروت.
[٣٠] مصعب بن عمير، محمد دشبيلي، دار الجيل، ط٢، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، بيروت ـ لبنان.
[٣١] مقالات الشباب، الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة، ط٢، ١٤٣٥هـ
[٣٢] مقتل الإمام الحسين عليه السلام، أبو المؤيد الموفق بن أحمد مكي المعروف بـ (الخوارزمي) (ت٥٦٨هـ)، مطبعة الزهراء، النجف الأشرف، بدون تاريخ.
[٣٣] مقتل الحسين عليه السلام أو حديث كربلاء، عبد الرزاق المقرم الموسوي، مطبعة النجف الأشرف، ط٢، ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م.
[٣٤] مقتل الحسين ومصرع أهل بيته عليهم السلام وأصحابه في كربلاء، أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي، منشورات الرضي، ط٢، ١٤١١هـ قم.
[٣٥] من أخلاق الإمام الحسين عليه السلام، عبد العظيم المهتدي البحراني، مؤسّسة الإمام الجواد عليه السلام، ط١، ١٤٢١هـ قم.
[٣٦] من وحي الثورة الحسينية، هاشم معروف الحسيني، دار التعارف للمطبوعات، ط١، ١٩٩٤م/١٤١٤هـ بيروت

ـ لبنان.
[٣٧] منية الخطيب، أحمد شعاع فاخر، منشورات الشـريف الرضي، ط١، ١٤٢١هـ قم المقدّسة.
[٣٨] ميزان الحكمة، محمد الريشهري، دار الحديث، ط١، ١٤١٦هـ قم.

الهوامش

[١] جامعة الكوفة/كلّية التربية المختلطة/قسم علوم القرآن.
[٢] البقرة: آية ١٣٤
[٣] محمد: آية ١٠.
[٤] العنكبوت: آية ٢٠.
[٥] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٣، ص٢٦١.
[٦] معهد سيّد الشهداء عليه السلام للمنبر الحسيني، تاريخ النهضة الحسينية: ص٥ـ٦.
[٧] شمس الدين، محمد مهدي، ثورة الحسين عليه السلام (ظروفها الاجتماعية وآثارها الإنسانية): ج١، ص٢٢٠ـ٢٢١.
[٨] الدينوري، أحمد بن داوود، الأخبار الطوال: ص٣٤٨.
[٩] الآصفي، محمد مهدي، خلفيات ثورة الإمام الحسين عليه السلام: ص٢١٠.
[١٠] الزخرف: آية ٥٤.
[١١] النيسابوري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم: ج٦، ص٢٠.
[١٢] أُنظر: http: //sarallah. valiasr..
[١٣] ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف على قتلى الطفوف: ص٩٨.
[١٤] البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج١١، ص٣٨٦.
[١٥] البقرة: آية ١٦٥.
[١٦] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٤، ص٣٢٩ـ٣٣٠
[١٧] المصدر السابق: ص٣٤٠.
[١٨] المصدر السابق: ص٣٣٥.
[١٩] البحراني، عبد العظيم المهتدي، من أخلاق الإمام الحسين عليه السلام: ص٢٤٨.
[٢٠] منتدى درر العراق
www. dorar-aliraq. net
[٢١] القبانجي، صدر الدين، الحركة الإصلاحية بين أصحاب الكساء والحسين سيّد الشهداء: ص١٢٨.
[٢٢] مركز الإمام الخميني الثقافي، عاشوراء في فكر الإمام الخميني: ص٥.
[٢٣] الجلالي، محمد رضا، الإمام الحسين عليه السلام (سماته وسيرته): ص١٩٩.
[٢٤] مقتطفات من خطب الإمام الخميني وآية الله الخامنئي (عِبَر من عاشوراء): ص١.
[٢٥] أُنظر: المصدر السابق.

[٢٦] أُنظر: الآصفي، محمد مهدي، في ظلال الطف: ص١٩:.
http: //alsarh. info/showthread. php
[٢٧] أُنظر: الهنداوي، محمد، عوامل خلود الثورة الحسينية: ص٢٧٥.
[٢٨] مؤسّسة الإرشاد والتوجيه الديني، فن الخطابة الحسينية: ص١١٩ـ١٢٠.
[٢٩] أُنظر: الهنداوي، محمد، عوامل خلود الثورة الحسينية: ص٢٧٥.
[٣٠] الخوارزمي، الموفق، مقتل الحسين عليه السلام: ج٢، ص٧٧. وأُنظر: المقرم، عبد الرزاق، مقتل الحسين عليه السلام: ص٣٥٢ـ٣٥٣.
[٣١] أُنظر: الهنداوي، محمد، عوامل خلود الثور الحسينية: ص٢٨٩ـ٢٩١.
[٣٢] ابن حنبل، أحمد، مسند أحمد: ج٢، ص٢٣٥.
[٣٣] أُنظر: المقدسي، محمد باقر، دور المنبر الحسيني في التوعية الإسلامية: ص٢١ـ٢٢.
[٣٤] الحرّ العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج١٢، ص٢٠.
[٣٥] فاخر، محمد شعاع، منية الخطيب: ص١٤.
[٣٦] شمس الدين، محمد مهدي، ثورة الحسين في الوجدان الشعبي: ص٣٠٧.
[٣٧] البحراني، هاشم، مدينة المعاجز: ج٤، ص٥٢.
[٣٨] آل عمران: آية ١١٠.
[٣٩] النوري، ميرزا حسين، مستدرك الوسائل: ج١٥، ص١٦٥.
[٤٠] الحج: آية ٣٢.
[٤١] أُنظر: الهنداوي، محمد، مجالس عاشوراء: ص٦٨٥ـ٦٩٢.
[٤٢] الروم: آية ٥٤.
[٤٣] أُنظر: القائمي، علي، تربية الشباب بين المعرفة والتوجيه: ص١٨ـ٢٢.
[٤٤] أُنظر: دشبيلي، محمد، مصعب بن عمير.
[٤٥] أُنظر: الزركلي، خير الدين، الأعلام: ج٤، ص٣٥٨.
[٤٦] أُنظر: المصدر السابق: ج١، ص٢٨١ـ٢٨٢.
[٤٧] النجم: آية٣ـ ٤.
[٤٨] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٢١، ص٤١٠.
[٤٩] أُنظر: ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج٣، ص١٢٧.
[٥٠] المصدر السابق: ج١٦، ص٦٦.
[٥١] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج١، ص٢١٤.
[٥٢] أُنظر:. http: //arabic. irib. ir/Monasebat/Moharam/Shabab. htm
[٥٣] أُنظر: المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج٢، ص١٥٩.
[٥٤] وأبوها هذا كان العرب يعتبرونه واحداً من شخصيتين عظيمتين، وهما: الوليد بن المغيرة الرجل الثري الذي كانت له زعامة مكّة، وآخر عروة بن مسعود الثقفي، وكان العرب في جاهليتهم يعتقدون بأنّ النبوة يجب أن لا

تتعدّى واحداً من هذين.

[٥٥] أُنظر: الزركلي، خير الدين، الأعلام: ج٥، ص٨٦.

[٥٦] أبو مخنف، لوط بن يحيى، مقتل الحسين عليه السلام: ص٧٤.

[٥٧] أُنظر: ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف على قتلى الطفوف: ص١٦٦.

[٥٨] المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج٢، ص١٠٦.

[٥٩] أُنظر: ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف على قتلى الطفوف: ص١٦٦.

[٦٠] أُنظر: المصدر السابق: ص ١٦٨.

[٦١] الهنداوي، محمد، مجالس عاشوراء: ص٥١٩.

[٦٢] الحسني، هاشم معروف، من وحي الثورة الحسينية: ص٥٩.

[٦٣] ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف على قتلى الطفوف: ص١٥٢.

[٦٤] أُنظر: الخوارزمي، محمد بن أحمد، مقتل الإمام الحسين عليه السلام: ج٢، ص١٣.

[٦٥] أُنظر: ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف على قتلى الطفوف: ص١٦١.

[٦٦] أُنظر: المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٥، ص١٦.

[٦٧] المصدر السابق: ص٢٧ـ٢٨

[٦٨] أُنظر: النقدي، جعفر، أصحاب الحسين عليه السلام يستأنسون بالمنية دوني استيناس الطفل بلبن أُمه، موقع العتبة الحسينية المقدسة:

http: //imamhussain-lib. blogspot. com/٠٨/٢٠١٤/blog-post_٢٦. html.

[٦٩] ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف على قتلى الطفوف: ص٥٥.

[٧٠] أُنظر: حسين الحاج حسن، الرسالية في الثورة الحسينية: ص٩٧.

[٧١] أُنظر: الربيعي، جميل، الصراط المستقيم نهج السعادة والتقدم (موقع إلكتروني):

http: //al-serat. com/content. php?article=٩٤٢ part=maintable.

[٧٢] أُنظر: المركز الإسلامي للتبليغ، إضاءات من فكر الإمام الخامنئي (الذين يبلّغون): ص١٠١ـ١٠٢.

[٧٣] أُنظر: مجلة (عفاف)، مجلةٌ شهريّةٌ ثقافيةٌ تصدر عن مؤسّسة المعصومين الأربعة عشر الإنسانية: ص١١.

[٧٤] أُنظر: شرفي، محمد رضا، الشباب وأزمة الهوية: ص٢٥.

[٧٥] فضل الله، محمد حسين، دنيا الشباب: ص٥.

[٧٦] ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج٢٠، ص٢٦٧.

[٧٧] أُنظر: اليعقوبي، محمد، قواعد بناء الشباب: ص١٠ـ١١. وكذلك: القائمي، علي، تربية الشباب بين المعرفة والتوجيه: ص٣٠ـ٣١.

[٧٨] البغدادي، عبد اللطيف، الشفاء الروحي: ص٢٠٩.

[٧٩] الفرقان: آية ٢٨ـ ٢٩.

[٨٠] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٦٨، ص٢٧٨.

[٨١] المصدر السابق: ج٧١، ص١٩١.
[٨٢] المصدر السابق: ج٧٤، ص٨٤.
[٨٣] المصدر السابق: ج١، ص٢٢٤.
[٨٤] الريشهري، محمد، ميزان الحكمة: ج٢، ص١٤٠٢.
[٨٥] الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج٢، ص١٠٦.
[٨٦] المتقي الهندي، علي، كنز العمال: ج١، ص١٨٤.
[٨٧ [أُنظر: الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدّسة، مقالات للشباب: ص١٩ـ٢٢.
[٨٨] الحرّاني، ابن شعبة، تُحف العقول: ص١٢٤.

الشيخ قيصر التميمي
باحث وكاتب / استاذ في حوزة النجف الأشرف

الأهداف السياسية وانتماؤها التاريخي لمحيط النهضة الحسينية

كان التاريخ ولا زال اللاعب الأساس في رسم معالم الكثير من المعارف الدينية والإسلامية، وانسياقاً مع هذا النوع من التأثير أدرج مجموعة من العلماء والباحثين الأحداث التاريخية التي أحاطت بالنهضة الحسينية في قائمة الأسباب المانعة من الالتزام بوثائق ومستندات أهدافها السياسية.

ونحن قد تعرّضنا في مقال سابق لبيان بعض الأسباب والمبررات التي دعت جملة واسعة من أولئك العلماء والباحثين لإنكار الأهداف السياسية للنهضة الحسينية، فذكرنا منها الأسباب العقدية والتراثية، وأجبنا عنهما بما يتناسب مع الآفاق العامة للبحث، ونحاول في هذا المقال أيضاً أن نستعرض واحدة من أهم الأسباب والمبررات التاريخيّة، وذلك في إطار العنوان التالي:

الخروج لإسقاط الأنظمة الحاكمة لم يكن سبيلاً ومنهجاً في سيرة الأئمة عليهم السلام (أسباب تاريخية)

إنّ الفكرة المطروحة تحت هذا العنوان ملخّصها هو: أن كل الأئمة المعصومين عليهم السلام بعد وفاة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ـ باستثناء الإمام الحسين عليه السلام في موقفه الأخير ـ لم يُسجّل لهم التاريخ موقفاً سياسياً يُمثّل جانباً من جوانب الثورة والانقلاب والخروج على السلطات غير الشرعية لإسقاطها وإقامة الحكومة الإسلامية الإلهية العادلة بقيادة خليفة الله في أرضه.

فأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قد بقي جليس داره زمناً طويلاً، ولم يرصد له التاريخ تحركاً سياسياً أو تخطيطاً عسكرياً لإسقاط النظام الحاكم آنذاك، بل كان مستشاراً دينيّاً وقانونيّاً وسياسيّاً لذلك النظام في كثير من القضايا المهمّة والمفصليّة، وحينما جاءه المسلمون يبايعونه على الخلافة ـ بعد مقتل عثمان ـ اعتذر في بداية الأمر عن قبول بيعتهم، وطلب منهم أن يلتمسوا غيره، وشارطهم على أنه سيكون داعماً للحكومة التي يختارونها، ولعل أسباب ذلك هو أن الأُمة قد انحرفت بعد نبيّها عن مسارها الصحيح الذي اختطَّه لها، ولم يبقَ بالإمكان فرصة إصلاحها، بإقامة حكومة إلهية على يد الخليفة المعصوم، باستثناء ما سيقوم به المهديّ عليه السلام. وحتى بعد قبوله عليه السلام استلام السلطة كان يعلم من أول الأمر بفشل مشروع الإصلاح، ولم يكن هدفه من ذلك تحقيق ما اندفعت الجماهير له وتخيّلته ممكناً، من إصلاح الأوضاع العامّة أو تعديل مسار السلطة في الإسلام. وإنما كان الدافع الأساس هو عهد النبي صلى الله عليه وآله له بالقيام بالأمر إذا وجد أنصاراً.

كذلك الإمام الحسن عليه السلام، حيث اضطر لترك الخلافة وتسليمها لمعاوية بن أبي سفيان، وبغض النظر عن الحديث في ظروف ومبررات ذلك، فهو عليه السلام في نهاية المطاف قد تنازل عن الخلافة لحساب معاوية، ما يعني أن الأُمة لا زالت غير مؤهَّلة لتشكيل حكومة إسلامية عادلة.

والإمام الحسين عليه السلام لم يتحرّك أيضاً بعد أخيه الحسن عليه السلام للقيام بالثورة والانقلاب لإقامة دولة الإسلام، لا في زمان معاوية ولا زمان ابنه يزيد، وهو إنما خرج أخيراً لطلب الشهادة بأمر إلهي، لمّا حوصر وضاقت عليه الأرض بما رحبت.

والصورة أوضح وأجلى بالنسبة إلى سائر الأئمة المعصومين عليهم السلام، من زمن إمامة علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، إلى زمن الإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام، والفترة التي أعقبتها حينما غاب ابنه المهدي عليه السلام، حيث لا نجد في فصول سيرتهم عليهم السلام أيّ تحرك باتجاه التغيير السياسي أو الانقلاب العسكري، بل كانوا يأمرون أصحابهم بالجلوس والسكون والالتزام بالهدنة وانتظار الفرج على يدي القائم من آل محمد عليهم السلام، خصوصاً في زمن الإمام الصادق عليه السلام، مع أن فرصة التغيير السياسي كانت كبيرة جدّاً في فترة إمامته عليه السلام.

روى الكليني بسنده عن عبد الحميد

الواسطي، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: «**قلت له: أصلحك الله! لقد تركنا أسواقنا انتظاراً لهذا الأمر، حتى ليوشك الرجل منا أن يسأل في يده؟ فقال: يا [أبا] عبد الحميد! أترى مَن حبس نفسه على الله لا يجعل الله له مخرجاً؟ بلى والله، ليجعلن الله له مخرجاً، رحم الله عبداً أحيا أمرنا**»[1].

وروى النعماني في الغيبة بسنده عن عبد الرحمن بن كثير، قال: «**كنت عند أبي عبد الله عليه السلام يوماً وعنده مهزم الأسدي، فقال: جعلني الله فداك، متى هذا الأمر الذي تنتظرونه، فقد طال علينا؟ فقال: يا مهزم، كذب المتمنّون، وهلك المستعجلون، ونجا المسلمون، وإلينا يصيرون**»[2].

وهذا كلّه يكشف عن أن منهج الأئمة عليهم السلام وسيرتهم بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لم يكن قائماً على التدبير والتخطيط لإسقاط الأنظمة الظالمة في زمانهم، واستبدالها بالحكومة الإلهية العادلة. بل إن سيرتهم عليهم السلام وسيرة أتباعهم قد جرت على مبدأ السكوت والجلوس والانتظار والترقّب، إلى أن يأذن الله بأمره؛ وذلك لأن الأُمّة قد فقدت قابلية الإصلاح والتغيير حينما انحرفت عن مبدأ الإمامة والخلافة الإلهيّة بعد وفاة نبيّها الأكرم صلى الله عليه وآله، فأضحى الإصلاح وإرجاع السلطة في الإسلام إلى مسارها الصحيح متعذراً، بعد الانحراف الكبير الذي تورّطت به الأمّة، وكان الأئمة عليهم السلام يعلمون بذلك من اليوم الأول للانحراف، وإن لم يتسنّ لهم التصريح به والتأكيد عليه إلّا بعد فاجعة الطف.

وحينئذ يكون الإيمان بثبوت أهداف سياسية انقلابيّة وثورية للنهضة الحسينية، مما يتنافى مع المنهج الصحيح والتوجّه العام والسيرة العملية المعروفة لأئمة أهل البيت عليهم السلام، في كيفية تعاملهم مع السلطات غير الشرعية، الحاكمة في زمانهم، حيث كانت قائمة على مبدأ المهادنة وعدم التصدّي لمواجهة الحاكم، مع أن بعض تلك السلطات قد لا يقل ظلماً وجوراً وتهتّكاً عن حكومة يزيد بن معاوية.

الإجابة عن هذه الإشكاليّة

النهضة والإصلاح والتغيير السياسي في منهج وسيرة أهل البيت عليهم السلام

نعتقد بأن هذه الإشكاليّة والرؤية المجتزأة في تحديد سيرة ومواقف المعصومين عليهم السلام تجاه السلطات الحاكمة في زمانهم، غير واقعيّة ولا مطابقة لأُسلوبهم في التعامل مع طبيعة الواقع الديني والاجتماعي والتقلّبات السياسية

والاضطرابات الأمنيّة والاقتصاديّة والمذهبيّة التي عايشوها آنذاك. وللوقوف على حقيقة الأمر نقول:

إننا وبشكل صريح وواضح نرفض هذه الإشكالية من الأساس، ولا نقبل بفكرة أن الأئمة عليهم السلام لم يسعوا على الإطلاق لاستلام الحكم وإصلاح الأُمور وبناء دولة الحقّ والعدل بعد وفاة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله. بل نعتقد بأن سيرتهم كانت قائمة على العكس من ذلك، حتى بعد انحراف الأُمّة عن مسارها الصحيح في مسألة الإمامة والخلافة، خصوصاً في الفترة التي سبقت شهادة الحسين عليه السلام، والتاريخ والنصوص الدينية المتضافرة خير شاهد ودليل على ما ندّعي، ولنأخذ جولة سريعة حول أهم الأحداث والنصوص الواردة في هذا الإطار ضمن العناوين التالية[٣]:

١. المبادئ السياسية للنهضة العلوية

نعتقد بأن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قد سعى بقوّة وبشكل جادّ للقيام بنهضة تصحيحيّة شاملة، كما سعى أيضاً بالسبل المتاحة والمشروعة لاستلام السلطة والخلافة وإقامة حكم الله في الأرض بعد وفاة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، والشواهد التاريخية والروائية على ذلك كثيرة جداً، ومستفيضة نصّاً ومعنًى، نذكر فيما يلي بعضها:

الشاهد الأول: الحركة السلمية لإسقاط الحكومة غير الشرعيّة

لقد واصل الإمام علي عليه السلام رفضه واستنكاره لخلافة أبي بكر، ومقاطعتها، وامتناعه عن أداء البيعة، وتحصّنه هو وأهل بيته وأتباعه في بيت فاطمة عليها السلام، والمطالبة المستمرّة بحقّه المشروع بالخلافة وقيادة الأُمّة، واعتبار ما حصل انقلاباً على الشرعية.

يقول عليه السلام في إحدى خطبه حول هذه النقطة بالخصوص: «**وقال قائل: إنك على هذا الأمر يا بن أبي طالب لحريص. فقلت: بل أنتم ـ والله ـ لأحرص وأبعد، وأنا أخص وأقرب، وإنما طلبت حقاً لي، وأنتم تحولون بيني وبينه، وتضربون وجهي دونه... اللهم، إني أستعينك على قريش ومن أعانهم، فإنهم قطعوا رحمي، وصغّروا عظيم منزلتي، وأجمعوا على منازعتي أمراً هو لي**»[٤].

وقد شكّل ذلك العصيان المدني والسياسي اللافت خطراً شديداً على تشكيلة الحكومة الجديدة، واعتبره قادة الحركة الانقلابية توهيناً وإضعافاً لهيبة الخلافة والدولة في نفوس عامّة

المسلمين، ما استدعى منهم إصدار التوجيهات والأوامر بالتحرك العسكري لقمع المعارضة، وإعلان حالة الطوارئ، وفرض الأحكام الجاهليّة اللا عرفية، التي انتهكت حرمة البيت النبوي الطاهر، وتجاوزت على البضعة النبوية الشريفة بالضرب والتعنيف، وقد وقعت في أكثر من مناسبة مشادّات كلامية ومناوشات بين أفراد في المعارضة وبين قيادات حكومية وعسكريّة في الحزب الحاكم[٥].

هذه وغيرها من الأحداث ـ في سياق الحركة السلميّة العلوية للمطالبة بالحقوق الدينيّة والسياسيّة ـ كوّنت رؤية واضحة لدى الرأي العام تجاه الخلافة القائمة وعدم شرعيتها. وهذا خير شاهد على التدخل المباشر من قِبَل المعصوم في صناعة القرار السياسي وتعيين نظام الحكم والسلطة، ولكن بالطرق السلميّة.

الشاهد الثاني: الحركة الثورية لإسقاط الحكومة غير الشرعية

لقد تـرأّس الإمام علي عليه السلام حركة ثورية لإدارة دفّة التغيير السياسي والحكومي، واتخذ خطوات ميدانية بقيادته الحكيمة لإسقاط خلافة الانقلاب السقيفي، الفاقد للأهلية والكفاءة في قيادة الأُمّة الإسلاميّة، وهنالك نصوص تاريخية وروائية كثيرة جدّاً، يمكن رصدها وتتبّعها لفهم معالم وآفاق هذه النهضة العلوية الرائدة، وتفصيل الكلام في هذه النقطة قد يخرجنا عن هدف هذا المقال، ولكننا نحاول التأشير على بعض مشاهد وصور تلك النهضة إجمالاً، فمن ذلك على سبيل المثال:

١ــ ما رواه الخصيبي في كتابه الهداية الكبرى، بسنده عن الإمام الحسن عليه السلام، حينما عاتبوه على صلحه مع معاوية، وتركه الخلافة له كما سيأتي، فأجابهم قائلاً: «**لو أني في ألف رجل، لا والله إلّا مائتي رجل، لا والله إلّا في سبع نفر لما وسعني تركه، ولقد علمتم أن أمير المؤمنين دخل عليه ثقاته حين بايع أبا بكر، فقالوا له مثلما قلتم لي، فقال لهم مثلما قلت لكم، فقام سلمان والمقداد وأبو ذر وعمار وحذيفة بن اليمان وخزيمة بن ثابت وأبو الهيثم مالك بن التيهان، فقالوا: نحن لك شيعة ومن ورائنا شيعة لك، مصدقون الله في طاعتك. فقال لهم: حسبي بكم. قالوا: وما تأمرنا؟ قال: إذا كان غداً فاحلقوا رؤوسكم واشهروا سيوفكم وضعوها على عواتقكم وبكّروا إليّ؛ فإني أقوم بأمر الله ولا يسعني القعود عنه. فلمّا كان من الغد بكّر إليه**

سلمان والمقداد وأبو ذر وقد حلقوا رؤوسهم وأشهروا سيوفهم وجعلوها على عواتقهم، ومعهم عمار بن ياسر... فلما قعدوا بين يديه عليه السلام نظر إليهم... فقال: اغمدوا سيوفكم، فو الله، لو تمّ عددكم سبعة رجال لما وسعني القعود عنكم»[٦].

فهذا النص صريح في أن من الوظائف المصيريّة والأوامر الإلهيّة التي كان يرى الإمام علي عليه السلام ضرورة القيام بها ـ بعد رحيل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ـ هو النهوض والتحرّك المسلّح لإسقاط الخلافة المنتحلة، والتصدّي لإقامة أمر الله وحكمه في الأرض بإمامته وقيادته عليه السلام، وقد أعطى الأوامر والتوجيهات اللازمة في هذا المجال، وكان يكفيه للخروج وتحقيق الأهداف في ذلك الحين سبعة من الرجال المخلصين، المضحّين لدينهم ومبادئهم. لكنه عليه السلام لم يجتمع لديه حتى هذا العدد القليل من الأعوان والأنصار، وهو ما اضطرّه للبيعة واستبعاد الخيار العسكري.

٢ـ خطبته عليه السلام المشهورة في مسجد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، حينما تخاذلت الأُمّة في الدفاع عن حقّه بالإمامة والخلافة، يقول فيها عليه السلام، بعد تقديم الحمد والثناء لله تعالى، والصلاة على الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «**أيها الأُمة التي خُدعت فانخدعت، وعرفت خديعة من خدعها فأصرّت على ما عرفت، واتّبعت أهواءها، وضربت في عشواء غوايتها، وقد استبان لها الحق فصدّت عنه**»، في إشارة واضحة منه عليه السلام إلى أن خلافة السقيفة كانت خدعة مفضوحة بفكرتها ورجالاتها وتشكيلتها، وأن الخدعة انكشفت للأُمّة بالجهود السلميّة التي بذلها عليه السلام، فظهرت بذلك معالم الحقّ والحقيقة، ولكن الأُمّة تخاذلت، واتّبعت أهواءها، وصدّت عن الحق، ونامت على وسائد الخديعة والذلّ.

ثم يواصل عليه السلام كلامه في تعنيف الأُمة وتوبيخها على تضييعها هذا الحق الإلهي، الذي فيه صلاح البلاد والعباد والسعادة في الدارين، إلى أن يقول عليه السلام: «**أما والله، لو كان لي عدّة أصحاب طالوت أو عدة أهل بدر ـ وهم أعداؤكم ـ لضربتكم بالسيف حتى تؤولوا إلى الحق وتنيبوا للصدق، فكان أرتق للفتق، وآخذ بالرفق، اللهم فاحكم بيننا بالحق وأنت خير الحاكمين**»، فكان الإمام عليه السلام على استعداد تامّ لخوض حرب شاملة، هدفها إسقاط الحكم الفاسد وإرجاع الحقّ لأهله، ويؤكّد بشكل واضح وصريح على أن المصلحة في ذلك، وأنه لا مصلحة في المهادنة والسكوت. ولكن لا حرب

بلا جيش، ولا صولة بيدٍ جذّاء!!

ثم خرج عليه السلام من المسجد، فمرّ بحظيرة فيها نحو من ثلاثين شاة، فقال: «**والله، لو أن لي رجالاً ينصحون لله عز وجل ولرسوله بعدد هذه الشياه لأزلت ابن آكلة الذبان عن ملكه. فلما أمسى بايعه ثلاثمائة وستون رجلاً على الموت، فقال لهم أمير المؤمنين عليه السلام: اغدوا بنا إلى أحجار الزيت محلّقين، وحلّق أمير المؤمنين عليه السلام، فما وافى من القوم محلقاً إلا أبو ذر والمقداد وحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر وجاء سلمان في آخر القوم، فرفع يده إلى السماء، فقال: اللهم إن القوم استضعفوني كما استضعفت بنو إسرائيل هارون**»[٧].

ومضمون النصّ واضح لا يفتقر إلى التعليق. ويظهر منه أنه عليه السلام كان يجلس لاستقبال المبايعين على التضحية والقتال في سبيل الحقّ، وقد أقنع ـ بكلامه وخُطبه وتحركاته الواسعة ـ مجموعة كبيرة من الصحابة، قادرة على التغيير وصناعة المستقبل بما يتوافق مع الإرادة الإلهيّة، لولا الخيانة والخذلان.

٣ـ ما يروى عن سليم بن قيس، أنه قال: «**سمعت علياً يوم الجمل ويوم صفين يقول: إني نظرت فلم أجد إلا الكفر بالله، والجحود بما أنزل الله، بمعالجة الأغلال في نار جهنم، أو قتال هؤلاء، ولم أجد أعواناً على ذلك. وإني لم أزل مظلوماً منذ قُبض رسول الله صلى الله عليه وآله، ولو وجدت قبلُ الناس أعواناً على إحياء الكتاب والسنّة كما وجدت اليوم لنا لم يسعني القعود**»[٨].

فكان البحث جارياً عن الأعوان والأنصار منذ قبض رسول الله صلى الله عليه وآله، وما كان يسع عليّاً عليه السلام القعود عن حقّه، لولا اليد الجذّاء وتخاذل الشعب وفقدان الناصر. والنصّ يُشير بوضوح إلى أن هناك نهضة علوية تستهدف إحياء الكتاب والسنّة، والتغيير الثوري المسلّح، ولكنها نهضة لم ترَ النور بسبب تخاذل الأُمّة وتقاعسها عن الحقّ. كما أن النصّ واضح أيضاً، في كون الجلوس عن الحق، ومهادنة الطغاة، مع وجود الأعوان والأنصار، من الأُمور التي تستلزم لصاحبها الكفر بالله، والجحود بكتابه، واستحقاق الدخول إلى نار جهنّم، فهي من الكبائر بامتياز.

٤ـ يواجه الإمام عليه السلام في هذا النصّ قيادات الحزب الحاكم في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله، ويُصارحهم بأبعاد حركته السياسية الثورية التي كانت تؤرّقهم آنذاك، ويخاطبهم عليه السلام بالقول: «**ولو كنت في أربعين رجلاً، لفرقت**

جماعتكم، فلعن الله قوماً بايعوني ثم خذلوني»[٩].

فكان هناك تخطيط عسكري من قِبله عليه السلام، وبيعة له على التحرّك المسلّح لإسقاط النظام، وكاد أن ينجح الأمر لولا الخذلان، ولعلّ نظام الحكم الانقلابي قد بلغ من القوّة والاستحكام ما احتاج فيه الإمام عليه السلام لزيادة سقف الأعوان والمؤيدين من سبعة رجال إلى الأربعين رجلاً.

٥ـ في مضمون آخر ذي صلة، أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام، بعد أن كشف له طموحات القوم ومخططاتهم ورغبتهم الجامحة في تولّي السلطة والحكم: «**إن وجدت عليهم أعواناً فجاهدهم ونابذهم، وإن أنت لم تجد أعواناً، فبايع واحقن دمك**». فقال علي عليه السلام مخاطباً مجلس الشيوخ!!: «**أما والله، لو أن أُولئك الأربعين رجلاً الذين بايعوني وفوا لي لجاهدتكم في الله**»[١٠].

فلم تكن وصية النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام هي السكوت والقعود عن حقّه بشكل مطلق وفي جميع الأحوال، وإنما جعل ذلك ظرفاً اضطرارياً ومشروطاً بعدم وجود المؤيدين والأعوان، وأن عليه أن يسعى لتكوين قوّة فدائية ضاربة؛ يستعين بها لتقويم الانحراف الذي ظهرت معالمه في الأُمّة، ويظهر من كلامه عليه السلام أنه قد عمل فعلاً بالفرض الأول من الوصية، فاستنصر الناس وتهيّأ للجهاد وجمع الأعوان، وأن هناك أربعين رجلاً من الأصحاب ـ في أقلّ التقادير ـ قد بايعوه بالفعل على الجهاد لإسقاط نظام الحكم، ولكنهم خذلوه، فاضطر للسكوت والمهادنة.

٦ـ وهناك نصّ روائي يُبيّن طبيعة التحرك والتخطيط العلوي لجمع الأعوان، وكسب الأنصار، والتأكيد على ضرورة التحشيد البشري والعسكري؛ للخروج على الخلافة غير الشرعية، وهو ما شاهده سلمان، ورواه توصيفاً وتوثيقاً لتلك المرحلة الحسّاسة، إذ يقول: «**فلما كان الليل حمل عليّ فاطمة على حمار، وأخذ بيد ابنيه الحسن والحسين، فلم يدع أحداً من أهل بدر من المهاجرين ولا من الأنصار إلا أتى منزله وذكر حقّه ودعاه إلى نصرته، فما استجاب له من جميعهم إلا أربعة وأربعون رجلاً، فأمرهم أن يُصبحوا بكرة محلّقين رؤوسهم، معهم سلاحهم، وقد بايعوه على الموت، فأصبح ولم يوافه منهم أحد غير أربعة**»[١١].

لقد احتشدت في هذا النص معان ومضامين بالغة الخطورة والأهمية، تحكي آفاق

وأُسلوب وآليات النهضة العلوية للتغيير، تلك النهضة التي أقعدها خذلان الأُمة وضعف إرادتها، حيث حمل عليه السلام ثقل النبوة وحرم الله ورسوله وأهل بيته الطاهرين، وخرج بهم في هيئة وكيفية خاصّة، وبشيء من السريّة والخفاء والكتمان؛ وذلك بغية إقناع الأُمّة بحقّه، ودعوة الناس لنصرته، ومبايعته على الموت والجهاد في سبيل الله؛ لتصحيح المسار الذي لا زال في بدايات الانحراف والضلال، وقد اختار للتغيير والتصحيح الأُسلوب العسكري المسلّح؛ لخطورة الموقف، وضرورة الإصلاح.

نكتفي بهذا القدر من النصوص والإيضاحات، ويمكننا أن نجمل مفاصل هذه النهضة العلوية المباركة بعد وفاة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في النقاط التالية:

١ـ كان الإمام علي عليه السلام يعلم بواقع المؤامرة؛ حيث أخبره النبي صلى الله عليه وآله بذلك، وأطلعه على ما يُضمره القوم من مطامع وشهوات تجاه الزعامة والحكم.

٢ـ إن النبي صلى الله عليه وآله قد أوصى عليّاً عليه السلام، في حال تفاقمت الأُمور، وانقلب القوم على الشرعيّة السماويّة، بأن يسعى لتشكيل قوّة عسكريّة مسلّحة لوأد الفتنة وإفشال المؤامرة، وإكمال مسيرة بناء الدولة الإسلاميّة العادلة؛ فكان الخروج المسلّح للتغيير من الوظائف الإلهيّة، بأمر مباشر من النبي صلى الله عليه وآله.

٣ـ كذلك أوصى النبي صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام بالجلوس والسكوت واستبعاد الخيار العسكري إن لم يجد ما يكفي من الأتباع والمؤيدين، ويُفهم من النصوص الواردة في هذا المجال أن خيار السكوت كان خياراً اضطراريّاً، وعلاجاً طوارئيّاً في أسفل قائمة الحلول، ولم يكن هو الأصل في التأسيس لكيفية مواجهة السلطات والحكومات الفاسدة والمنحرفة.

٤ـ ابتدأت الحركة العلوية بشكل سلمي؛ لكشف خيوط المؤامرة والخديعة والشعارات المزيّفة، متمثّلة في بداية الأمر بالمقاطعة والاستنكار والمطالبة بالحقّ ورفض البيعة والعمل على كشف الأوراق، وقد نجحت هذه الحركة السلميّة في فضح المؤامرة ورجالاتها أمام الرأي العام، وأضحى المسلمون على بيّنة من أمرهم، يعلمون أن الحقّ مع علي عليه السلام، لا مع غيره. واستشعاراً بخطورة هذه الحركة، اتخذت الحكومة القائمة تدابير أمنيّة صارمة لإسكات هذا الصوت المعارض، والمطالب بحقوقه المشروعة.

٥ـ كانت الحركة والنهضة العلوية المباركة تحمل شعارات التغيير والإصلاح، وإحقاق

الحق، والدفاع عن الدستور الإسلامي (الكتاب والسنّة النبويّة)، وإقامة حكم الله في الأرض.

٦ــ بعد أن جُوبه الخيار السلمي بالعنف الحكومي، وارتسمت الصورة الواضحة للخلافة غير المشروعة، وعملاً بالوصيّة النبوية الشريفة، سعى الإمام عليه السلام بشكل جادّ ومتكرّر لاستنهاض الأُمّة وتحشيد المسلمين وإقناعهم بضرورة تبنّي الخيار العسكري لاسترجاع الحقوق وردع البغاة والطامعين والمتسلّقين على أكتاف المسلمين، وأن الخروج المسلّح لتحقيق الإرادة الإلهيّة أصلح للأُمّة من المهادنة والسكوت على الباطل، بل يُعدّ هذا الأمر من الكبائر مع إمكانيّة التغيير.

ويظهر من بعض النصوص أنه عليه السلام قد تحرك بهذا الاتجاه مراراً وتكراراً، وحاول استنهاض الأُمة في ظروف ومناسبات مختلفة. كل ذلك بتدبير خاص ومدروس ومُتقن، مُحاطاً بدرجة عالية من السرية والخفاء والكتمان، وفي وفد مفاوض إلهي رفيع المستوى، ضمّ أهل الكساء والمباهلة وآية التطهير.

٧ـ أصابت تلك الجهود المباركة أهدافها، وأسفرت عن تشكيل جيش متكامل، وقوّة عسكريّة كبيرة قادرة على التغيير، وقد بايعوا الإمام عليه السلام على الجهاد في سبيل الله والموت بين يديه. وصرّح عليه السلام في أكثر من موقف بأنه مستعدّ لخوض حرب عامّة وشاملة ضدّ كل مَن يقف بوجه الإصلاح والتغيير، واسترجاع الحقوق المسلوبة، وإقامة حكم الله في الأرض، وليس ذلك إلا لخطورة الموقف وحساسيّة المرحلة.

٨ـ أصدر الإمام عليه السلام لأتباعه مجموعة من التوجيهات والأوامر والتدابير السياسيّة والأمنيّة، كان من جملتها المحافظة على سريّة الحركة إلى حين مجيء ساعة الحرب، وأن يكونوا على استعداد كامل للمواجهة، وأن يحلقوا رؤوسهم؛ ليتميّزوا بالهيئة والشكل عن غيرهم، ويُوحوا لأعدائهم بأنهم مستميتون في سبيل مبادئهم، ويُدخلوا في قلوبهم الرعب، وقد أمرهم عليه السلام بالإبكار مصبحين واضعين سيوفهم على أكتافهم، إما التغيير أو الموت.

٩ـ لكن المؤسف في الأمر هو أن الأُمة قد تخاذلت في أداء وظائفها، وتخاذل المؤيّدون وتراجعوا تدريجيّاً عن بيعتهم، اتباعاً للهوى، وطلباً للسلامة الدنيويّة على حساب الدين ومصلحة الإسلام.

١٠ـ اضطر الإمام عليه السلام بعد الخذلان للبيعة والمهادنة، وحينما استدعاه الحزب الحاكم للبيعة تحت طائلة العنف والتهديد، صارحهم بحركته السياسية وتخطيطه العسكري، الذي

كان كثيراً ما يؤرّقهم ويُخيفهم، وقد أطلعهم بشكل واضح على أنه كان عازماً على استئصالهم وإقصائهم عن سدّة الحكم، لولا تقاعس وخذلان الناس والأعوان.

وحاصل ما ذكرناه في هذه النقطة وسابقتها: أن هناك نهضة إصلاحية وتصحيحية منظّمة، قادها الإمام علي عليه السلام، حملت شعارات: التغيير، وإحياء الكتاب والسنّة، والدفاع عن الشرعيّة الإلهية، وإسقاط الخلافة المبتدعة والخارجة عن القانون، وإقامة حكومة الإسلام بقيادة علويّة ربّانيّة. ولكن النجاح لم يُكتب لهذه النهضة المباركة بسبب سوء اختيار الأُمّة المتخاذلة، وفقدان الأنصار المؤمنين بالنهضة وقائدها.

الشاهد الثالث: التصدّي الفعلي لتسلّم مقاليد الحكم والسلطة

تسنّم أمير المؤمنين عليه السلام وبشكل مباشر ورسمي كرسي الخلافة، وإدارة شؤون الدولة الإسلامية، بعد مقتل عثمان وإقدام أغلب الصحابة والمسلمين على مبايعته، وقد رسم للسياسة صورة رائعة، وأعطى رؤية متكاملة حول نظام الحكومة الإسلاميّة، فكان ولازال علي بن أبي طالب عليه السلام الحاكم الأبرز والأمثل والأعدل في تاريخ الحكومات الإسلامية والعالمية، وقد صُنّفت حول شخصيّته السياسية المحنّكة وحكومته الرائدة الكتب والبحوث والدراسات، وانتُخبت أقواله ومواقفه وسيرته مع الرعية والولاة والحكومات والأنظمة غير الإسلامية مصدراً ومنهاجاً عالمياً في الأُمم المتحدة، ولازال المفكّرون من القرّاء والدارسين لهذه الشخصية العظيمة على أعتاب سلّم المجد العلوي، ولازالت جميع الدول والحكومات مدعوّة لدراسة أبعاد الحكومة والقيادة العلوية والاقتداء بها للخروج من أزماتها الدوليّة والمحلّيّة.

وقد حملت هذه الحكومة الإلهية في جنباتها كلّ خير للأُمّة الإسلامية وللإنسانيّة جمعاء، وتضمّنت من الأقوال والنصوص والمواقف والشواهد ما يكرّس وبشكل واضح وجلي كلّ ما ادّعيناه في هذه الإجابة الأُولى، من أن سيرة المعصومين عليهم السلام قائمة على التخطيط لبناء دولة الحق واستلام مقاليد الحكم.

وكم يُعجبني أن أستعرض هنا بعض الفصول السياسية الضخمة في حياة علي عليه السلام، من قبيل ما يرتبط بإعلان الدستور (الكتاب والسنّة)، وتحديد الرؤية الإسلاميّة السياسية تجاه الحكم ومبادئه وعلاقته بالدين والسماء، وتشكيل حقائب الحكومة الصالحة وتعيين وظائفها التنفيذيّة، وبناء الدولة الكريمة، واختيار

الـولاة والقضـاة والمـوظفين والعمّـال، وتنظـيم الموازنـة الماليّـة والاقتصـاديّة، وإنشـاء منظومـة الحقوق ودوائر ودور الرعايـة الاجتماعيـة، ورفـع رايـة الإصـلاح والتغييـر والتطـوير، والاهتمـام بالتنمية البشريّة، ومحاربة الفساد بكل أشكاله، ودعم التسليح العسكري، وتعبئة الجبهـات ضـد الأعداء على كافة الأصعدة، وغير ذلك من روائع الموسوعة السياسيّة العلوية. ولكنه يطـول بـذلك المقام وتتسع دائرة المقال بما يخرجنا عن نقطة البحـث؛ ولـذا نكتفـي بأصـل الفكـرة فـي هـذا الشاهد، وهي مسألة التصـدّي الفعلـي لاسـتلام الحكـم والتأسـيس لمعـالم الحكـم الإسـلامي؛ فإنه خير شاهد على أن قيادة الأُمة بالحقّ دينيّاً وسياسياً من الأُمور المتيسّرة والممكنة حتى بعد انحرافهـا فـي الحُقـب الماضـية، وأن ذلـك مـن الوظـائف الموكلـة للإمـام المعصـوم عليه السلام، إذا أحسـنت الأُمـة اختيارهـا، ووقفـت إلـى جانبـه، وقدّمت الدعم البشري لحكومته الإلهية.

وأما قصّة رفض الإمـام علـي عليه السلام للخلافـة وامتناعه عن استلام الحكم والسلطة بعد مقتـل عثمان، لمّا انهال عليه النـاس للبيعـة، فليسـت أسبابها عدم أهليـة الأُمّـة لقيـادة المعصـوم فـي بناء الدولة وتشكيل الحكم الإسلامي، وإلا كان من المفتـرض رفـض الخلافـة علـى أيّـة حـال، فقبوله عليه السلام يكشف عـن أهليّـة الأُمـة لـذلك لـو أحسـنت اختياراتهـا[١٢]، وإنمـا أراد عليه السلام بـذلك الرفض والامتناع عن قبول الخلافـة فـي بدايـة الأمر أن يسجّل استنكاراً واعتراضـاً علـى الـذين توجّهوا لغيره بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله، وأقرّوا بخلافته بسوء اختيارهم، من دون أن يتحلّى ذلـك الغيـر بأي صفة من مواصفات العلم والحلـم والحكمـة والقدرة على قيادة المجتمع، فمنعـوه عليه السلام حقّـه الطبيعـي والمشـروع فـي تـولّي الخلافـة ظلمـاً وعدواناً. وينضاف إلى ذلك أيضـاً الظـرف الحـرج والحساس جدّاً الـذي كانـت تمـرّ بـه الأُمّـة بعـد مقتل الخليفة عثمان؛ حيث كـان سـيُتّهم بدمـه كـل مَـن يجلـس فـي مكانـه لتـولّي الخلافـة، وسيتحمّل المتصدّي أيضـاً أعبـاء الإرث الثقيـل للفساد المستشري الـذي تورّطـت بـه الحكومـة السـابقة، علـى كافّـة الأصـعدة وفـي جميـع المستويات، وهذا ما حصل بالفعل.

ومـن مجمـوع مـا بيّنـاه إجمـالاً يتضـح: أن سـيرة أميـر المـؤمنين عليه السلام ومواقفـه وأقوالـه وتحركاته عموماً كانت قائمـة علـى تبنّـي الرؤيـة السياسـية، والتـدخّل العسـكري، والتصـدّي للإصلاح والتغيير، وإقامة حكم الله في الأرض، ولكن سكوته عليه السلام عن ذلك في فترة معيّنـة مـن حياتـه المباركـة كـان سـببه الأسـاس هـو

الاضطراب والتردد والتخاذل من قِبل الأُمّة والمجتمع الإسلامي بصورة عامّة. وهذا ما اختلفت ظروفه وشرائطه في زمن الإمام الحسين عليه السلام، فاختلفت في ضوئه الصورة والنتائج، كما سيتبيّن.

٢. المبادئ السياسية للنهضة الحسنية

أيضاً نعتقد بأن الإمام الحسن عليه السلام قد تصدّى بشكل واضح وصريح لإكمال صروح المسيرة الربانيّة والنهضة الإصلاحية بعد شهادة أبيه أمير المؤمنين عليه السلام، وقد باشر في التأسيس لإقامة دولة إلهية إسلامية عادلة بإمامته وقيادته عليه السلام، في إطار نهضة تغييرية إصلاحية واسعة الأبعاد، والحديث في هذه النقطة يطول أيضاً، وشواهده الروائية والتاريخية كثيرة جدّاً ومستفيضة، وجديرة بالدراسة والبحث والتدقيق، ولكن سنقتصر على اقتطاف بعضها؛ للتدليل على ما نقول:

الشاهد الأول: الخطابات السياسيّة والقيادية

والأبرز في هذا المجال خطبته عليه السلام صبيحة الليلة التي دفن فيها أمير المؤمنين عليه السلام، حيث استعرض أثناء مراسم العزاء والتأبين المسيرة الدينية والإيمانيّة والاجتماعيّة والسياسية والجهاديّة والقياديّة التي حفلت وتميّزت بها حياة أبيه علي بن أبي طالب عليه السلام، ثم انتقل بعد ذلك مباشرة للتعريف بشخصيته المباركة، وأنه الامتداد الطبيعي للبيت النبوي والعلوي، وأنه الكفوء والأهل والأحقّ باستلام زمام الأُمور وتولّي قيادة الأُمة، قال عليه السلام: «**أيها الناس، مَن عرفني فقد عرفني، ومَن لم يعرفني فأنا الحسن بن علي، وأنا ابن النبي، وأنا ابن الوصي، وأنا ابن البشير، وأنا ابن النذير، وأنا ابن الداعي إلى الله بإذنه، وأنا ابن السراج المنير، وأنا من أهل البيت الذي كان جبريل ينزل إلينا ويصعد من عندنا، وأنا من أهل البيت الذي أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وأنا من أهل البيت الذي افترض الله مودّتهم على كل مسلم...**»[١٣]. «**ولقد حدّثني حبيبي جدي رسول الله صلى الله عليه وآله أن الأمر يملكه اثنا عشر إماماً من أهل بيته وصفوته، ما منا إلا مقتول أو مسموم**»[١٤].

فانتسب الحسن عليه السلام إلى جدّه وأبيه، وعرّف نفسه بمواريث النبوة والوصاية والمُلك والإمامة وهداية الأُمة والدعوة إلى الله عزّ وجلّ، وأكّد على أن مودّة أهل البيت عليهم السلام فرض واجب على كافة المسلمين، وأن المعصومين من أهل

البيت عليهم السلام هم أئمة الخلق وساداتهم بالحقّ.

وقد فهم الحاضرون من هذه النُّبذة التعريفيّة أنه عليه السلام قد عرض نفسه الكريمة لتولّي الخلافة والحكم وقيادة الدولة الإسلامية خلفاً لأبيه أمير المؤمنين عليه السلام؛ ولذا نهض عبد الله بن عباس مباشرة يدعو الحاضرين لمبايعة الحسن عليه السلام، قائلاً: «**معاشر الناس، هذا ابن نبيكم ووصي إمامكم فبايعوه. فاستجاب له الناس، وقالوا: ما أحبه إلينا! وأوجب حقّه علينا! وتبادروا إلى البيعة له بالخلافة... فرتب عليه السلام العمال وأمّر الأُمراء، وأنفذ عبد الله بن العباس (رضي الله عنه) إلى البصرة، ونظر في الأُمور**»[١٥].

ثم إنه عليه السلام خطب الناس بعد البيعة قائلاً: «**نحن حزب الله الغالبون، وعترة رسوله الأقربون، وأهل بيته الطيبون الطاهرون، وأحد الثقلين اللذين خلّفهما رسول الله صلى الله عليه وآله في أُمته، والتالي كتاب الله، فيه تفصيل كل شيء، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فالمعول علينا في تفسيره، لا نتظنّى تأويله، بل نتيقن حقائقه، فأطيعونا، فإن طاعتنا مفروضة؛ إذ كانت بطاعة الله عز وجل ورسوله مقرونة**»[١٦]. ويُمثّل هذا الخطاب التاريخي إعلاناً رسميّاً رئاسيّاً لثالث حكومة إلهيّة في الإسلام بقيادة المعصوم من حزب واحد، هو حزب الله الغالب، ويجب على الأُمّة السمع والطاعة لأوامر وتوجيهات هذا الحزب الإلهي المبارك.

وكان الحسن عليه السلام يؤكّد دائماً على حقّه الشرعي وأحقيّته بالخلافة والحكم، ويُطالب باسترجاع هذا الحق في مواضع كثيرة، ومناسبات مختلفة، حتى قال له معاوية ـ بعد واحدة من خطبه عليه السلام البليغة التي ألهبت مشاعر المجتمع الشامي ـ: «**أما إنك ـ يا حسن ـ قد كنت ترجو أن تكون خليفة ولست هناك. فقال الحسن عليه السلام: أما الخليفة فمَن سار بسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وعمل بطاعة الله عز وجل، ليس الخليفة مَن سار بالجور وعطّل السُّنن واتخذ الدنيا أمّاً وأباً**»[١٧]. وفي خطبة أُخرى أيضاً في مجلس معاوية يقول عليه السلام: «**أصبحت قريش تفتخر على العرب بأن محمداً منها، وأصبحت العرب تفتخر على العجم بأن محمداً منها، وأصبحت العجم تعرف حق العرب بأن محمداً منها، يطلبون حقنا، ولا يردون إلينا حقّنا**»[١٨]. هو المنطق ذاته وذات الشعارات التي حملتها النهضة الحسينية المباركة، ولكن الدور والقرار والمشهد السياسي قد يختلف باختلاف ظروف الواقع

الإسلامي المتقلّب والمتردّي.

الشاهد الثاني: التصدّي لمباشرة شؤون الخلافة والحكم

حيث تولّى عليه السلام وبشكل مباشر إدارة شؤون الحكومة والدولة الإسلاميّة، ففي ضوء النص السابق لما بويع الحسن عليه السلام وأعلن تولّيه الأمر وقيادته للأُمة، بادر مباشرة لتشكيل الحكومة وتعيين الحقائب الوزاريّة وتخصيص وتشخيص سائر الأُمور التنفيذية والمالية ذات العلاقة، فرتّب العمال وأمّر الأُمراء ونظر في الأُمور. وكتب لمعاوية يأمره بطاعته والانقياد لأوامره، ويقول له: «**إن علياً لما توفّاه الله ولّاني المسلمون الأمر بعده، فاتق الله يا معاوية، وأُنظر لأُمّة محمد صلى الله عليه وآله، ما تحقن به دماءها وتصلح به أمرها**»[19]. وفي نص آخر مماثل يقول فيه عليه السلام: «**فاليوم فليتعجّب المتعجّب من توثّبك ـ يا معاوية ـ على أمر لست من أهله... إن علياً لما مضى لسبيله... ولّاني المسلمون الأمر بعده... فدع التمادي في الباطل، وادخل فيما دخل فيه الناس من بيعتي؛ فإنك تعلم أني أحق بهذا الأمر منك عند الله وعند كل أوّاب حفيظ، ومَن له قلب منيب. واتق الله ودع البغي، واحقن دماء المسلمين، فو الله، ما لك خير في أن تلقى الله من دمائهم بأكثر مما أنت لاقيه به، وادخُل في السلم والطاعة، ولا تُنازع الأمر أهله ومَن هو أحق به منك، ليطفئ الله النائرة بذلك، ويجمع الكلمة، ويُصلح ذات البين، وإن أنت أبيت إلا التمادي في غيّك سرت إليك بالمسلمين فحاكمتك، حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين**»[20].

وقد تضمّنت هذه النصوص والمكاتبات التاريخيّة المهمّة معالم الرؤية السياسيّة الثاقبة والمتميّزة للإمام الحسن عليه السلام إزاء التأسيس للدولة العادلة، والتصدّي لمحاربة البغاة والمفسدين والإرهابيين القتلة، الطامحين في إقامة دولة داعشية أُمويّة تكفيرية، بقيادة معاوية بن أبي سفيان، تُبنى هياكلها على جماجم المسلمين، تُكفّرهم وتقتات من دمائهم. ولا بأس بالتنصيص على أهم ما جاء فيها؛ لارتباطها بواقعنا المعاش:

١ـ معاوية الذي انخرط في حزب (بيعة المسلمين) المزعومة لأشياخه، وبنى مجده على أنقاض ورفات خلفاء تلك البيعة، يبدأ الإمام الحسن عليه السلام بإلزامه بما ألزم به نفسه، فها هي بيعة المسلمين قد تمّت له عليه السلام بما لا ينقص عن مبايعة السابقين، وعلى معاوية أن يُذعن

ويخضع وينقاد لولايته وخلافته الإسلامية الشرعية، وأن يلتزم الجانب السلمي في التعاطي مع هذا الأمر.

٢ـ يواصل الإمام عليه السلام التأكيد على حقّه في قيادة الأُمّة، وأنه من الحقوق المعلومة والثابتة، التي لا تفتقر إلى بيعة مَن بايع أو طاعة مَن يطيع، وإنما البيعة والطاعة من آليات وسبل تفعيل ذلك الحقّ الإلهي، يُشير إلى هذا المعنى قوله عليه السلام: «**فإنك تعلم أني أحق بهذا الأمر منك عند الله، وعند كل أوّاب حفيظ، ومَن له قلب منيب... ولا تنازع الأمر أهله ومَن هو أحق به منك**». ويؤكّد عليه السلام على أن خير الأُمّة صلاحها في إرجاع الحقّ لأهله، حيث يقول: «**ليطفئ الله النائرة بذلك، ويجمع الكلمة، ويصلح ذات البين**».

٣ـ التأكيد على عدم أهلية معاوية للمنصب الحساس الذي يشغله، وعليه أن يتنحّى عن منصبه، وأنه ينبغي أن تكون الأهلية والكفاءة هي المعيار الأساس في تولّي المناصب السيادية والحكومية.

٤ـ الدعوة إلى السلم، والطاعة، وتقوى الله، والانقياد للشرعية، وتوحيد الكلمة، وإطفاء الإرث العدواني الثقيل، وتوخّي الإصلاح وصلاح الأمّة، وترك البغي والتمادي في الغيّ والباطل، وعدم منازعة أهل الحقّ في حقّهم، وحقن دماء المسلمين، والتزام مبدأ التداول السلمي للسلطة.

٥ـ وقد ختم الإمام عليه السلام كتابه لمعاوية بالتهديد ولغة السلاح والقتال إن أبى معاوية التعامل بالطرق السلمية والدبلوماسية، قائلاً: «**وإن أنت أبيت إلا التمادي في غيّك، سرت إليك بالمسلمين فحاكمتك، حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين**».

ثم إنه عليه السلام قام بتجييش الجيوش وتحشيدها والرفع من معنوياتهم، وخرج الجيش الإسلامي بقيادته لقتال البغاة ـ معاوية وأتباعه بعد أن رفضوا دعوته للطاعة والسلم ـ وقد زاد في عطاء الجيوش وتجهيزهم وتسليحهم[٢١]. والحديث في هذه النقطة بالخصوص يتّسع ويطول، ونحن اليوم بأمسّ الحاجة لدراسة معالم وأبعاد السياسة الحسنية المباركة، ومعرفة دورها في التعامل مع الأزمات الاجتماعيّة والسياسية والأمنية والعسكرية، التي واجهها المجتمع الإسلامي، قبل الالتجاء إلى الموافقة على عقد الهدنة مع معاوية. وسوف نتجنّب الولوج في هذه النقطة أيضاً رعاية للإيجاز والاختصار.

الشاهد الثالث: فقدان الناصر وخذلان الأُمة

هناك مجموعة كبيرة جدّاً من الأحاديث والنصوص التاريخية، الواضحة والصريحة في أن الخروج المسلّح ضد معاوية وإسقاط حكمه وإقامة حكم الله في الأرض، كان هو الحل الأمثل والأفضل، بل هو المتعيّن مع وجود الأنصار المؤمنين بنهضة الإصلاح والتغيير، كما أشرنا آنفاً إلى بعض تلك النصوص. وقد سار الإمام الحسن عليه السلام بشكل عملي لإنجاز هذه المهمّة العسكريّة المصيريّة والحسّاسة، فخرج بالجيوش ليختبر نيّاتهم وطاعتهم، ففشلوا في الاختبار فشلاً ذريعاً[٢٢].

وكان الحسن عليه السلام كثيراً ما يُهدّد معاوية بالجيش الإسلامي، ويضع الخيار العسكري دائماً على طاولة المداولة والمفاوضات، برجاء أن ينهض الجيش بهذه المهمّة والمسؤوليّة الحسّاسة، كما تقدّمت الإشارة إلى ذلك في نص سابق، وهو ما جاء أيضاً بشكل صريح في كتاب بعثه لمعاوية بعد أن نفّذ عليه السلام عقوبة الإعدام بحق شخصين منافقين من جواسيس معاوية، يقول فيه: «**أما بعد، فإنك دسست إليّ الرجال كأنك تحب اللقاء، وما أشك في ذلك، فتوقّعه إن شاء الله**»[٢٣].

ولكن التاريخ يرسم صورة مختلفة للجيش الإسلامي آنذاك، فكان وللأسف جيشاً متداعياً، خائر القوى، منهزماً ومكسوراً من الناحية الإيمانيّة والنفسية والإعلاميّة، خائفاً مهزوزاً متململاً من كثرة الحروب وطول أمدها وامتداد تاريخ المسيرة الجهاديّة، قد وضع الدنيا وزينتها أمام طموحاته وأمانيه، وجعل التضحية في سبيل الدين والمبادئ آخر ما يفكّر فيه ويهتمّ به، وسجّل انهزامات متتالية في شتّى الميادين، حتى كاد هذا الجيش الضعيف المختَرق والمكشوف أن يُسلّم الحسن عليه السلام أسيراً بيد معاوية، وهذا ما صرّح به الإمام عليه السلام في محضر معاوية، حينما خطب الناس قائلاً: «**أيها الناس، إن معاوية زعم أني رأيته للخلافة أهلاً، ولم أرَ نفسي لها أهلاً، وكذب معاوية، أنا أولى الناس بالناس في كتاب الله، وعلى لسان نبي الله، فأقسم بالله، لو أن الناس بايعوني وأطاعوني ونصروني لأعطتهم السماء قطرها، والأرض بركتها، ولما طمعتَ فيها يا معاوية، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما ولّت أُمة أمرها رجلاً قط وفيهم مَن هو أعلم منه إلّا لم يزل أمرهم يذهب سفالاً، حتى يرجعوا إلى ملّة عبدة العجل... وقد تركت الأُمة علياً عليه السلام وقد سمعوا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول**

لعلي عليه السلام: أنت منّي بمنزلة هارون من موسى غير النبوة، فلا نبي بعدي. وقد هرب رسول الله صلى الله عليه وآله من قومه، وهو يدعوهم إلى الله، حتى فرّ إلى الغار، ولو وجد عليهم أعواناً ما هرب منهم، ولو وجدت أنا أعواناً ما بايعتك يا معاوية. قد جعل الله هارون في سعة حين استضعفوه وكادوا يقتلونه، ولم يجد عليهم أعواناً، وقد جعل الله النبي صلى الله عليه وآله في سعة حين فرّ من قومه، لمّا لم يجد أعواناً عليهم، وكذلك أنا وأبي في سعة من الله، حين تركتنا الأُمة وبايعت غيرنا ولم نجد أعواناً. وإنما هي السُّنن والأمثال يتبع بعضها بعضاً»[٢٤].

وأما أنصاره والمحيطون به، فقد تحدّث هو عليه السلام عنهم قائلاً: «يزعمون أنهم لي شيعة، ابتغوا قتلي، وانتهبوا ثقلي، وأخذوا مالي... والله، لو قاتلت معاوية لأخذوا بعنقي حتى يدفعوني إليه سلماً. فو الله، لأن أسالمه وأنا عزيز خير من أن يقتلني وأنا أسيره أو يمنّ عليّ، فتكون سُبّةً على بني هاشم إلى آخر الدهر»[٢٥].

وفي نص آخر يقول عليه السلام: «أما والله، ما ثنانا عن قتال أهل الشام ذلة ولا قلة، ولكن كنا نقاتلهم بالسلامة والصبر، فشيب السلامة بالعداوة، والصبر بالجزع، وكنتم تتوجهون معنا ودينكم أمام دنياكم، وقد أصبحتم الآن ودنياكم أمام دينكم، وكنا لكم وكنتم لنا، وقد صرتم اليوم علينا... وإن معاوية قد دعا إلى أمر ليس فيه عِزٌّ ولا نصفة، فإن أردتم الحياة قبلناه منه، وأغضضنا على القذى، وإن أردتم الموت، بذلناه في ذات الله، وحاكمناه إلى الله. فنادى القوم بأجمعهم: بل البقية والحياة»[٢٦].

وفي نص ثالث يؤنِّب أنصاره على الاختراقات الخطيرة والخيانات العسكريّة التي انتشرت في جيشه ومعسكره، حيث يقول عليه السلام: «ويلكم! والله، إنّ معاوية لا يفي لأحد منكم بما ضمنه في قتلي، وإنّي أظن أنّي إن وضعت يدي في يده فأسالمه لم يتركني أدين لدين جدّي صلى الله عليه وآله وإنّي أقدر أن أعبد الله عزّ وجلّ وحدي، ولكنّي كأنّي أنظر إلى أبنائكم واقفين على أبواب أبنائهم يستسقونهم ويستطعمونهم بما جعله الله لهم، فلا يسقون ولا يطعمون، فبُعداً وسحقاً لما كسبته أيديكم ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾. فجعلوا يعتذرون بما لا عذر لهم فيه»[٢٧].

ويقول أيضاً عليه السلام في مقام بيان سبب تسليمه

الخلافة لمعاوية: «**والله، ما سلّمت الأمر إليه، إلّا أني لم أجد أنصاراً، ولو وجدت أنصاراً لقاتلته ليلي ونهاري، حتى يحكم الله بيني وبينه**»[٢٨].

وبهذا الكلام كان الحسن عليه السلام يستقبل مَن يعاتبه من أصحابه في مسألة الصلح والهدنة، فمن ذلك ما تقدّمت الإشارة إليه في ملامح النهضة العلوية، حيث أجاب عليه السلام حجر بن عدي الطائي بالقول: «**والله، يا حجر! لو أني في ألف رجل، لا والله إلّا مائتي رجل، لا والله إلّا في سبع نفر لما وسعني تركه... وتالله، يا حجر! إني لعلى ما كان عليه أبي أمير المؤمنين لو أطعتموني**»[٢٩].

وبنفس المضمون ما روي عن علي بن محمد بن بشير الهمداني، قال: «**خرجت أنا وسفيان بن ليلى، حتى قدمنا على الحسن المدينة، فدخلنا عليه، وعنده المسيب بن نجبة وعبد الله بن الوداك التميمي، وسراج بن مالك الخثعمي، فقلت: السلام عليك يا مذلّ المؤمنين! قال: وعليك السلام، اجلس، لستُ مذلَّ المؤمنين، ولكني معزّهم، ما أردت بمصالحتي معاوية إلّا أن أدفع عنكم القتل، عندما رأيت من تباطؤ أصحابي عن الحرب، ونكولهم عن القتال**»[٣٠].

ويُعقّب السيد المرتضى على مثل هذه النصوص قائلاً: «**لأن المجتمعين له من الأصحاب وإن كانوا كثيري العدد، فقد كانت قلوب أكثرهم دغلة غير صافية، وقد كانوا صبوا إلى دنيا معاوية... فأظهروا له عليه السلام النصرة، وحملوه على المحاربة والاستعداد لها طمعاً في أن يورّطوه ويسلموه، فأحسّ بهذا منهم قبل التولّج والتلبّس، فتخلّى من الأمر، وتحرّز من المكيدة**»[٣١].

ونستنتج من مجموع هذه النصوص المتضافرة الأُمور التالية:

١ـ إن الإمام الحسن عليه السلام كان عازماً على السير قُدماً في تولّي شؤون الخلافة الإلهيّة، والاستمرار في بناء الحكومة العادلة وتشييد صرح الدولة الإسلاميّة الكريمة.

٢ـ كان يرى عليه السلام أنه هو المؤهل والأوْلى والأحقّ في تولّي الحكم وقيادة الأُمّة في كتاب الله وعلى لسان رسول الله صلى الله عليه وآله، قبل بيعة الناس له، وأنّ على معاوية أن يطيعه ويخضع لحكمه الإلهي العادل كما تقدّم، وأن الناس لو أطاعوه وبايعوه ونصروه لأعطتهم السماء قطرها، والأرض بركتها.

٣ـ إنه عليه السلام كان عازماً على محاربة الفساد

والقضاء عليه بشتّى الوسائل والسبل المشروعة، وابتدأ عليه السلام بمحاولة القضاء على حكومة معاوية بن أبي سفيان، التي كانت تمثّل أبرز مظاهر الفساد، وتشغل مساحة جغرافية كبيرة وواسعة ومهمّة في كيان الدولة الإسلاميّة. فاختار عليه السلام الحلّ العسكري والخروج المسلّح لاستئصال جذور الشجرة الخبيثة والغدّة الأُمويّة التي ابتُلي بها المجتمع الإسلامي، وكان عدد الجيش وعدّته كافيين لبلوغ هذه الغاية، ولكن الأُمّة عصت أوامره وخذلته وتقاعست عن الجهاد في سبيل الله، وقدّمت المصالح الشخصية والرغبات الفرديّة الخاصّة، على سعادة البشريّة ورقيّها وصلاح أمرها.

٤ـ إنه عليه السلام لو وجد أعواناً وأنصاراً لما بايع معاوية، ولقاتله ليله ونهاره، وأن العزة والنصرة والكرامة بقتاله والقضاء عليه، ولم تكن المصلحة أبداً في الصلح لو اختارت الأُمّة طريق الجهاد، بل كان في الصلح ذلة ومهانة لهم وللأجيال اللاحقة، فاختار القوم العيش بالذلّ وفضّلوا الحياة الرخيصة وقدّموها على خيار العزّة والإباء والنصر، فبايعت الأُمة معاوية خاضعة خاسئة، وأُجبر الحسن عليه السلام على قبول الصلح وفي العين قذى؛ ليلملم ما تبقّى للمؤمنين من العزّة والكرامة، فبُعداً وسحقاً لما كسبته أيدي الأُمة المتخاذلة، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون.

٥ـ كانت هناك مؤامرات تُحاك ليلاً ونهاراً، وخيانات وانقلابات عسكريّة متوالية، هدفها القضاء على خلافة الحسن عليه السلام، والتجاوز على شخصه الكريم، ونهب تراثه وتسليبه، وتسليمه لمعاوية ليرى فيه رأيه، إما القتل أو الإذلال، فكان الصلح خياراً مُرّاً لا مناص منه.

الشاهد الرابع: ما تضمّنته بنود الصلح والهدنة مع معاوية

إن الإمام الحسن عليه السلام قد صالح معاوية على «**أن له ولاية الأمر بعده، فإن حدث به حدث فللحسين**»[٣٢]، ويُعدّ هذا البند من البنود المهمّة التي تصدّرت القائمة، وتكرر ذكرها في خطب الإمام الحسن عليه السلام بعد توقيعه على كتاب الصلح، وهذا ما يكشف وبوضوح عمّا نروم إثباته، من أن الإمام الحسن عليه السلام كان ينظر إلى الحكم الإلهي والقيادة الربانيّة على يد المعصوم في هذه الأرض من الفرائض التي يجب النهوض بها، ولكنها كانت وللأسف فاقدة لشروطها المرتبطة بواقع الأُمّة، ومتى ما تحقّقت الشروط كان على الإمام المعصوم أن ينهض للقيام بدولة الحق والعدل.

ويُضاف إلى ذلك أيضاً البنود الأُخرى التي تضمّنت روح التدخل السياسي من قِبل المعصوم؛ لسدّ منافذ الفساد والانحراف في الحكومات غير الكفوءة، من قبيل ما يرتبط بالقضايا الأمنية العامّة، وترك تتبع الناس وقتلهم على المذهب والهوية والانتماء، واحترام رموز الأُمّة وقادتها، والمحافظة على أموال الشعب وصرفها في مستحقّيها، وغيرها من البنود الأُخرى.

الشاهد الخامس: التهديد والإنذار المتواصل

كان الإمام الحسن عليه السلام دائماً ما يوجّه التهديد والإنذار لمعاوية، بأنه يراقب المشهد السياسي عن كثب، وأنه سيعمل على دراسة الأُمور مجدّداً، وإعادة النظر في قرار الصلح، والانقلاب عليه بإلغائه، في حال تفاقمت الأُمور، وتدهورت الأوضاع الأمنية والاجتماعيّة، واستشرى الفساد، وتعرّض المسلمون عموماً وأتباع أهل البيت عليهم السلام على وجه الخصوص للسوء والاضطهاد والمطاردة من قِبل السلطة الظالمة.

ويمكننا أن نستشعر ذلك بوضوح في ردّ له عليه السلام على إساءة واعتداء في الكلام على شخصه الكريم من قِبل عمرو بن العاص في مجلس معاوية، يقول فيه عليه السلام: «**يا معاوية، لا يزال عندك عبد راتعاً في لحوم الناس، أما والله، لو شئت ليكونن بيننا ما تتفاقم فيه الأُمور وتحرج منه الصدور**»[٣٣].

وفي نصّ آخر طويل ومفصّل، يردّ فيه عليه السلام بقوّة على كلام مسيء تحدّث به مروان بن الحكم في مجلس معاوية، فأذهل بكلامه عليه السلام الحضور، وأسكت الطغاة وألجم أفواههم وألقمها حجراً، حيث يقول: «**ثم تزعم أني ابتُليت بحلم معاوية. أما والله، لهو أعرف بشأنه وأشكر لنا إذ ولّيناه هذا الأمر، فمتى بدا له، فلا يغضين جفنه على القذى معك، فو الله، لأعنفنّ أهل الشام بجيش يضيق فضاؤه**[٣٤]**، ويستأصل فرسانه، ثم لا ينفعك عند ذلك الروغان والهرب**»[٣٥]. إن هذا المنطق العاصف والقوي والمرعب لطواغيت الأُمّة، يكشف وبوضوح عن أن الإمام الحسن عليه السلام قد مهّد الأُمور لتنفيذ ما يقول، وعمل على التأسيس لقاعدة شعبية عريضة وواسعة في المجتمع الإسلامي، وهيأها للتغيير والانقلاب، في حال تطلّب الأمر ذلك، ولكنه عليه السلام كان ملزماً بالصلح. وهناك شواهد للتدليل على هذه الحقيقة أعرضنا عن ذكرها خوف الإطالة.

٣.المبادئ السياسية للنهضة الحسينية

كان هذا العنوان بالخصوص هو الموضوع الأساس الذي دعانا لكتابة المقال، وقد عرضنا في مقالات ماضية جملة من الشواهد والنصوص فيما يرتبط بالتدليل على المبادئ والأهداف السياسية للنهضة الحسينية المباركة، وذكرنا من ضمن تلك الشواهد: حركة التغيير ونصوص الإصلاح الحسيني، ومواقف الإمام الحسين عليه السلام وأقواله وتصريحاته ومكاتباته ورسائله السياسية إلى أهل الكوفة والبصرة وغيرهما، مضافاً إلى أقواله وأحاديثه وخطبه عليه السلام في طريقه إلى الكوفة وفي فترة تواجده بكربلاء.

واستنتجنا من مجموع تلك الشواهد أن الإمام الحسين عليه السلام قد قام بنهضة إصلاحيّة عامّة وشاملة، كان من أهم أهدافها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتصدّي للظلم والجور والفساد، ونصرة المظلومين والمضطهدين، والإطاحة بالنظام الأُموي المُستبدّ، وإرجاع الحق إلى أهله، وإقامة حكم الله في الأرض، وتشكيل حكومة إلهية بقيادة خليفة الله في خلقه، وتطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية، وحفظ الحرّيات الدينية والإنسانية المشروعة، وأداء الحقوق والواجبات الدينيّة والاجتماعيّة، وإجراء الحدود، وتنفيذ القوانين، والعمل بالأحكام الشرعية.

وقد تهيّأت كافة السبل والأسباب والعوامل لانتصار هذه النهضة النوراء، وبزوغ الفجر الحسيني الصادق، وإقامة الحقّ والعدل في ربوع البلاد، وذلك من زوايا وجهات مختلفة ومتنوّعة، منها:

١ـ هلاك معاوية، الذي أحكم قبضته على الناس بالظلم والقتل والجور وانتهاك الحرمات.

٢ـ انقضاء مدّة الهدنة وأمد الصلح الحسني، الذي التزم به الحسين عليه السلام مع وجود معاوية في سدّة الحكم[٣٦].

٣ـ ضعف الحكومة الأُموية المتمثّلة بيزيد المتهتك الطائش.

٤ـ سأم الناس وامتعاضهم الشديد من الحكم الأُموي الجائر، الذي تجاوز كل القيم الإسلامية والبشرية، وأرهق الأُمّة بصنوف الاضطهاد والإرهاب، من القتل والتشريد والتجويع والتضييق الخانق للحريات الدينية والفكريّة والاجتماعيّة والسياسيّة.

٥ـ اشتياق المسلمين وحنينهم للعدالة العلوية الضائعة.

٦ـ المنزلة المتميزة والمقام الرفيع الذي

يشغله الإمام الحسين عليه السلام في نفوس المسلمين.

٧ـ وجود الشخصيّة القويّة والمؤهلة لقيادة الأُمة.

٨ـ توفر القدر الكافي من الأعوان والأنصار، الذين بايعوا الإمام الحسين عليه السلام على الخلافة والجهاد والنصر وبذل النفس والتفاني بين يديه، بنوايا حقيقية وصادقة، اختبرها السفير الحاذق والرائد الفطن والثقة من أهل البيت مسلم بن عقيل عليه السلام، وعكسها بأمانة تامّة على الإمام عليه السلام، في كتاب يحمل بشائر التغيير، ويدعوه للإسراع في القدوم إلى العاصمة العلويّة هادياً مهديّاً.

وهذا ما لم يتوفر لأمير المؤمنين عليه السلام بعد وفاة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، ولا للحسن عليه السلام حينما اضطر للصلح مع معاوية كما ألمحنا سابقاً. بل سبق أيضاً التصريح بأنهما عليهما السلام سيخرجان للتغيير والانقلاب على السلطات غير الشرعيّة لو اجتمع لهما العدد المطلوب من الأتباع والأنصار، وقد حُدّد ذلك العدد في بعض النصوص بسبعة من المضحين، أو بأربعين، بحسب اختلاف الظرف وطبيعة الموقف، وهذا العدد من الأبطال وأكثر منه قد التفّ حول الحسين عليه السلام في كل الظروف، قبل حادثة كربلاء وحين وقوعها.

يُضاف إلى ذلك كلّه تردّي الأوضاع السياسية والاجتماعية والدينية وتدهورها وانحدارها بما لا يترك مجالاً للجلوس والسكوت؛ وفي ضوء هذا وذاك اختلفت المرحلة وتغيّرت الأوضاع وتحركت رياح الثورة والتحرير، فتوجهت أنظار الأُمّة لمنقذها، فأصبح الإمام في قطب دائرة المسؤولية السياسية، وتوجّب عليه الخروج لإسقاط النظام الظالم وإقامة الحكومة الإلهية العادلة.

وأما لماذا لم تُحقّق النهضة الحسينيّة المباركة هذا النوع من الأهداف السياسيّة؟ ولماذا لم يحصل التغيير السياسي والحكومي، ولم تسقط دولة بني أُميّة؟ ولماذا لم تُشرق الأرض بصبح العدالة الحسينيّة؟ ولماذا انقلبت الظروف وتغيّرت إلى مأساة وثأر تطلبه السماء؟ فلهذا كلّه شأن آخر وحديث مستأنف، نتمنّى أن نحظى بفرصة بحثه ودراسته في مقالات لاحقة.

اتضح إلى هنا: أن الانقلاب على الحكومات الظالمة والفاسدة، والعمل على إسقاطها وإقامة حكم الله في الأرض، هو المنهج الإلهي والسبيل القويم الذي سار عليه سادة الخلق وأئمة الهدى عليهم السلام بعد وفاة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله. والإمام الحسين عليه السلام قد اتخذ

ذات المواقف العلوية والحسنية، ولكنّ اختلاف الظروف والشرائط والأحداث هو الذي غاير في فوارق الصورة وملامح المشهد.

٤ـ مواقف وأقوال الأئمة عليهم السلام من ذرية الحسين عليه السلام بعد شهادته

نعم؛ نحن نعتقد بأن منهج وأُسلوب التعامل مع السلطات الحاكمة قد تغير بعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام مباشرة، وكان السبب الرئيس في ذلك هو انكفاء الأُمّة وفقدان الأعوان والأنصار المؤهلين لرفع راية الإصلاح والتغيير بما يناسب الوقت والمرحلة، والنصوص والشواهد التاريخية والروائية الدالة على ذلك كثيرة ومتضافرة، نكتفي بالإشارة إلى بعضها:

منها: ما تحدّث به الإمام زين العابدين عليه السلام مع أهل الكوفة، حينما أبدوا استعدادهم لمبايعته والقتال بين يديه لإسقاط حكومة يزيد بن معاوية، بعد أن ألهب مشاعرهم بخطاب حول مأساة كربلاء، يحرق القلوب، يقول فيه: «**أنا ابن مَن انتهكت حرمته، وسُلبت نعمته، وانتُهب ماله، وسُبي عياله، أنا ابن المذبوح بشط الفرات، من غير ذحل ولا ترات، أنا ابن مَن قُتل صبراً، وكفى بذلك فخراً**»، ثم توجّه إلى الناس قائلاً: «**رحم الله امرئاً قبل نصيحتي وحفظ وصيتي**»، فأجابوه بأجمعهم: «**نحن كلّنا يا بن رسول الله سامعون مطيعون، حافظون لذمامك، غير زاهدين فيك، ولا راغبين عنك، فمرنا بأمرك يرحمك الله، فإنّا حرب لحربك، وسلم لسلمك، لنأخذن يزيد لعنه الله، ونبرأ ممن ظلمك**». فأجابهم عليه السلام بما يُحدّد وبوضوح الموقف السياسي الإلهي تجاه الأُمّة المتخاذلة في ظل الحكومات الظالمة، قائلاً: «**هيهات هيهات! أيها الغدرة المكرة! حيل بينكم وبين شهوات أنفسكم، أتريدون أن تأتوا إليّ كما آتيتم آبائي من قبل؟! كلّا وربّ الراقصات، فإن الجرح لما يندمل**»، ثم انتقل لتحديد الوظيفة الفعليّة لهذه الأُمّة الضعيفة، قائلاً: «**ومسألتي أن تكونوا لا لنا ولا علينا**»[٣٧]. فكانت هذه المرحلة العصيبة والحساسة بعد شهادة الحسين عليه السلام أدنى ما تتطلبه هو تحييد الأُمّة من الناحية السياسية، في ظل التخاذل الكبير، الذي وصفته السيدة زينب عليها السلام في الموقف ذاته، مخاطبة أهل الكوفة بقولها: «**خوّارون في اللقاء، عاجزون عن الأعداء، ناكثون للبيعة، مضيّعون للذمة**»[٣٨].

ومنها: قول الإمام الباقر عليه السلام: «**إذا اجتمع للإمام عدّة أهل بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر،**

وجب عليه القيام والتغيير»[٣٩]. وهذا يكشف بجلاء عن أن الأُمّة لا زالت مؤهلة للنهضة والتغيير في زمان الإمام الباقر عليه السلام، والمشكلة في توفّر الأنصار، واستمرّت الحال كذلك في زمن المعصومين من ذريّته عليهم السلام. كما أن النص صريح أيضاً في أن القيام والتغيير السياسي من الأُسس الدينيّة والأهداف الحيويّة التي يرصدها ويُتابعها كلّ إمام، متابعة ميدانيّة وبشكل متواصل، ومتى ما تحقّقت الشرائط والظروف المناسبة، خرج للتغير وإقامة حكم الله في الأرض.

ومنها: ما هو المشهور والمروي عن مأمون الرقي، قال: «**كنت عند سيدي الصادق عليه السلام، إذ دخل سهل بن حسن الخراساني، فسلّم عليه، ثم جلس، فقال له: يا بن رسول الله، لكم الرأفة والرحمة، وأنتم أهل بيت الإمامة، ما الذي يمنعك أن يكون لك حق تقعد عنه، وأنت تجد من شيعتك مائة ألف يضربون بين يديك بالسيف؟! فقال له عليه السلام: اجلس يا خراساني رعى الله حقك. ثم قال: يا حنفية، أسجري التنور. فسجرته حتى صار كالجمرة، وابيضّ علوه، ثم قال: يا خراساني، قم فاجلس في التنور، فقال الخراساني: يا سيدي يا بن رسول الله، لا تعذبني بالنار! أقلني أقالك الله. قال: قد أقلتك، فبينما نحن كذلك، إذ أقبل هارون المكي ونعله في سبابته، فقال: السلام عليك يا بن رسول الله. فقال له الصادق: الق النعل من يدك واجلس في التنّور. قال: فألقى النعل من سبابته ثم جلس في التنور، وأقبل الإمام يحدث الخراساني حديث خراسان، حتى كأنه شاهد لها، ثم قال: قم يا خراساني وأُنظر ما في التنور. قال: فقمت إليه فرأيته متربعاً، فخرج إلينا وسلّم علينا، فقال له الإمام: كم تجد بخراسان مثل هذا؟ فقلت: والله، ولا واحداً. فقال عليه السلام: لا والله، ولا واحداً، أما إنّا لا نخرج في زمان لا نجد فيه خمسة معاضدين لنا، نحن أعلم بالوقت»**[٤٠]. فكان التغيير السياسي والقيام بنهضة إصلاحيّة في الأُمة من المرتكزات المتأصّلة في نفوس الشيعة والموالين لأهل البيت عليهم السلام، وكان الإمام عليه السلام على دراية تامّة بمتطلّبات المرحلة، ومن أهمّ متطلباتها وجود الأنصار المؤيدين والمخلصين لدينهم وإمامهم، الذين يحملون ما يحمله هارون المكي من تسليم وإخلاص وتفانٍ بين يدي إمامه وقائده وسيّده الصادق عليه السلام، وهذا ما لم يظفر به أحد من الأئمة المعصومين، إلّا الإمام الحسين عليه السلام، فخرج بأهله وأصحابه

المخلصين؛ لطلب الإصلاح والتغيير.

ومنها: ما روي عن عبد الله بن بكير، عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام، قال: «**يا بن بكير، إني لأقول لك قولاً قد كانت آبائي عليهم السلام تقوله: لو كان فيكم عدّة أهل بدر لقام قائمنا، يا عبد الله، إنا نداوي الناس ونعلم ما هم، فمنهم مَن يصدقنا المودّة يبذل مهجته لنا، ومنهم مَن ليس في قلبه حقيقة ما يظهر بلسانه، ومنهم مَن هو عين لعدونا علينا، يسمع حديثنا، وإن أطمع في شيء قليل من الدنيا، كان أشدّ علينا من عدونا**»، ثم شرع عليه السلام باستعراض الأوصاف والخصائص المطلوبة في أنصار النهضة والتغيير، قائلاً: «**ينتظرون أمرنا ويرغبون إلى الله أن يروا دولتنا، ليسوا بالبذر المذيعين، ولا بالجفاة المرائين، ولا بنا مستأكلين، ولا بالطمعين، خيار الأُمة، نور في ظلمات الأرض، ونور في ظلمات الفتن، ونور هدًى يُستضاء بهم، لا يمنعون الخير أولياءهم، ولا يطمع فيهم أعداؤهم، إن ذُكرنا بالخير استبشروا وابتهجوا واطمأنت قلوبهم وأضاءت وجوههم، وإن ذُكرنا بالقبح اشمأزت قلوبهم واقشعرت جلودهم وكلحت وجوههم، وأبدوا نصرتهم وبدا ضمير أفئدتهم، قد شمّروا فاحتذوا بحذونا وعملوا بأمرنا، تعرف الرهبانية في وجوههم، يصبحون في غير ما الناس فيه، ويمسون في غير ما الناس فيه، يجأرون إلى الله في إصلاح الأُمة بنا، وأن يبعثنا الله رحمة للضعفاء والعامة، يا عبد الله، أولئك شيعتنا، وأولئك منّا، أولئك حزبنا وأولئك أهل ولايتنا**»[41]. إذن هذه هي المواصفات الحقيقيّة لحزب أهل البيت عليهم السلام، والذي يطمحون لتشكيله وإصلاح الأُمّة به، ولكنه لم يجتمع هذا الحزب الإلهي بتلك الخصائص كما أشرنا، إلا تحت قيادة الإمام الحسين عليه السلام، فنهض بالأمر.

ومنها: ما روي عن عبد العظيم الحسني، قال: قلت لمحمد بن علي بن موسى عليهما السلام: «**يا مولاي، إني لأرجو أن تكون القائم من أهل بيت محمد، الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً. فقال عليه السلام: ما منا إلّا قائم بأمر الله، وهادٍ إلى دين الله، ولكن القائم الذي يُطهّر الله به الأرض من أهل الكفر والجحود، ويملأ الأرض قسطاً وعدلاً، هو الذي يخفى على الناس ولادته، ويغيب عنهم شخصه... يجتمع إليه من أصحابه عدة أهل بدر: (ثلاثمائة وثلاثة عشر) رجلاً من أقاصي الأرض... فإذا اجتمعت له هذه العدة**

من أهل الإخلاص، أظهر الله أمره، فإذا كمل له العقد وهو: (عشرة آلاف) رجل، خرج بإذن الله، فلا يزال يقتل أعداء الله حتى يرضى عز وجل»[٤٢].

ومن هنا؛ نجد أن النصوص الكثيرة والمتضافرة قد نصّت على محورية أصحاب الإمام المهدي عليه السلام في مسألة شرائط الظهور وقيام دولة المعصوم الإلهية العالمية العادلة. كما ورد ذلك في كلام الإمام الصادق عليه السلام، حيث يقول: «**كأني أنظر إلى القائم عليه السلام على منبر الكوفة، وحوله أصحابه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، عدّة أهل بدر، وهم أصحاب الألوية، وهم حكّام الله في أرضه على خلقه**»[٤٣].

ثمّ إن هناك مواقف سياسية كثيرة ومتنوّعة صدرت من الأئمة عليهم السلام في أزمنة ومراحل مختلفة، جميعها يؤكّد ما بيّناه، من أن الأصل في حركة المعصوم هو الإصلاح والتغيير السياسي وإقامة الدولة الإلهيّة، وأن هذا من الأُمور الممكنة والمتيسّرة، إلا في حال فقدان الشرائط التي يتطلبها التغيير، وأهمّها توفّر الأنصار واستعداد الأُمّة لذلك، ومن تلك المواقف السياسيّة على سبيل المثال:

١ــ الدعم السري المتواصل لكثير من الحركات الثوريّة، التي كانت تخرج لمقارعة الطغاة والدفاع عن حقوق المظلومين والمضطهدين.

٢ــ العمل بشكل دؤوب ومتواصل لبناء المجتمع الإيماني الصالح المتماسك والقويّ والقادر على إدارة شؤونه بشكل ذاتي ومستقلّ.

٣ـ تكريس فكرة مقاطعة الجبت والطاغوت في نفوس أتباع أهل البيت عليهم السلام، وأن الحكومات القائمة باطلة وغير شرعية ومُفسدة في الأرض، وأن الحكومة التي ينبغي ترقّبها والاستعداد لها هي حكومة المعصوم، القائمة على أسس العدالة والقسط.

٤ـ المنع من التحاكم للجبت والطاغوت، وتغذية المجتمع الإيماني بالفقه الفردي والاجتماعي والأخلاقي والاقتصادي والسياسي وغير ذلك، ممّا يُغني الشيعة عن الاحتياج لأروقة الحكّام والسلاطين.

٥ـ ترسيخ عقيدة المهدي، التي تمثّل فكرة مقاطعة ومقارعة الطغاة، والسعي لإقامة حكم الله في الأرض.

لكننا أعرضنا عن البحث التفصيلي في جميع هذه المواقف والأدوار والسياسات المتنوعة، طلباً للاختصار وبما يُناسب طبيعة المقال.

نتائج البحث

أولاً: إنّ الأُمّة كانت مؤهلة للإصلاح والتغيير السياسي بقيادة المعصوم، حتى بعد الانحراف عن الحقّ الذي تورّطت به الأُمّة بعد وفاة النبي الأكرم ﷺ.

ثانياً: إن المنهج القويم والأصل في حركة المعصومين عليهم السلام هو القيام والنهوض لمقارعة الظالمين، والعمل على إسقاط الحكومات الباطلة والفاسدة، والتخطيط لإقامة حكم الله في الأرض، ولكن مع توفر الشرائط ومقوّمات الخروج، والتي من أهمّها وجود الأعوان والأنصار، المؤمنين بالفكرة، والمخلصين لها.

ثالثاً: لقد توفّرت كافّة الشرائط المطلوبة للنهوض في الفترة الزمنيّة لإمامة الحسين عليه السلام، فنهض للتغيير والإصلاح في الأُمة، ولكن الخذلان بعد ذلك هو الذي أدى إلى النتيجة المأساوية.

رابعاً: تُعدّ المهادنة للسلطات الفاسدة من الكبائر، ولا يُصار إليها إلا في حال الضرورة القصوى، وحينما تتقطّع كافة السُّبل للتغير والإصلاح.

خامساً: إن للأئمة عليهم السلام أدوارهم المختلفة بحسب اختلاف الوقائع والظروف المتلوّنة والمتغيّرة التي يعيشونها، ومنها نستلهم الشرعية والنهج الصحيح، وليس من الصائب تغليب دور على حساب الآخر، فلو ثبت أن الخروج لإسقاط السلطة الظالمة من مبادئ النهضة الحسينية، فليس لنا التشكيك في ذلك عطفاً على أدوار بعض الأئمة عليهم السلام في ظروف خاصّة مغايرة ومختلفة، عاشوها في فترة إمامتهم، فالأهداف الإلهية متنوّعة والأدوار مختلفة.

سادساً: إن هناك نهضة علوية ونهضة حسنية ونهضة حسينية، تعاقبت وتسلسلت في مسار واحد، واستهدفت استئصال الأنظمة الفاسدة، والانقلاب عليها، وإقامة حكم الله في الأرض، وكان الأئمة من وُلد الحسين عليهم السلام يسعون لذلك النحو من التغيير، ويأملون في تحقيقه لإصلاح الأُمّة، ولكن من دون جدوى، فاضطروا بشكل طارئ للقبول بالمهادنة، والجلوس عن حقّهم. هذا. ونسأل الله تعالى العفو والمعافاة في الدنيا والآخرة.

الهوامش

[١] الكليني، محمد يعقوب، الكافي: ج٨، ص ٢٧٠ـ٢٧٣.

[٢] النعماني، محمد بن إبراهيم، الغيبة: ص٢٠٤.

[٣] كان من المفروض أن ننطلق من نصوص وشواهد المبادئ السياسيّة للنهضة المحمّدية المباركة؛ لكونها مبدأ التأسيس للحكومة الإسلاميّة، وتمثّل انعطافة كبيرة وعظيمة جداً في بناء الحكومة الإلهيّة العالميّة بصورة عامّة، فهي امتداد لحكم الله في الأرض، وتأسيس لحكومة الإسلام، وتأتي الحركة السياسيّة للمعصومين من أهل البيت عليهم السلام في إطار حركة ذلك الحزب الإلهي الممتدّ من آدم خليفة الله في أرضه إلى نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله خاتم الأنبياء. لكننا تركنا البحث في هذه النقطة؛ لأنّ بحثها يطول كثيراً ويتجاوز دائرة هذا المقال، ولأن صاحب الإشكالية يفترض أن الظرف والموقف اختلف، قبل انحراف الأُمّة وبعد انحرافها، وإن كنّا لا نرتضي ذلك بشكل مطلق.

[٤] نهج البلاغة: ص٢٤٦.

[٥] أُنظر تفصيل ذلك في كتاب: الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج١.

[٦] الخصيبي، الحسين بن حمدان، الهداية الكبرى: ص١٩٣.

[٧] الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج٨، ص٣٢ـ٣٣.

[٨] القمي، سديد الدين شاذان، الروضة في فضائل أمير المؤمنين عليه السلام: ص٢٠٤.

[٩] الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج١، ص١٠٩.

[١٠] الهلالي، سليم بن قيس، كتاب سليم بن قيس: ص١٥٥.

[١١] الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج١، ص١٠٧.

[١٢] المراد من الأهلية هي القابلية الفعلية والإمكان الوقوعي، بمعنى أن في الأمّة قابليّة وإمكانيّة الإصلاح الوقوعي والفعلي بقيادة المعصوم في المجال السياسي، وهي مبتنية على التسليم بانحراف الأمة بعد نبيّها عن مسارها الصحيح، وسوف نبيّن لاحقاً بأن البحث عن الأنصار والأعوان مترتب على إمكانية التغيير، فلولا ذلك لما سعى المعصومون من أهل البيت عليهم السلام لتشكيل قوّة مسلّحة تستهدف التغيير والإصلاح السياسي. فالسعي لجمع الأعوان المخلصين لمبادئ التغيير يستلزم أهليّة الأمّة لذلك، وخذلان الأعوان والأنصار لا يستلزم أبداً سقوط تلك الأهلية والقابليّة في الأمّة.

[١٣] الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله، المستدرك على الصحيحين: ج٣، ص١٧٢.

[١٤] القمي، علي بن محمد، كفاية الأثر: ص١٦٢.

[١٥] المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج٢، ص٨ ـ ٩.

[١٦] المفيد، محمد بن محمد، الأمالي: ص٣٤٩.

[١٧] الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج١، ص٤١٩.

[١٨] ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب: ج٣، ص١٧٨.

[١٩] ابن أبي الحديد، عز الدين، شرح نهج البلاغة: ج١٦، ص٢٤ ـ ٢٥. وفي لفظ الإربلي في كشف الغمّة: «**فإن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لما نزل به الموت ولّاني هذا الأمر من بعده، فاتق الله يا معاوية، وأُنظر لأُمة محمد صلى الله عليه وآله ما تُحقَن به دماؤهم، وتُصلَح به أُمورهم**» ج٢، ص١٩٢. وفي هذا النص نسب الإمام الحسن عليه السلام توليته الأمر لأمير المؤمنين عليه السلام، فهو الذي ولاه الأمر وليست الأُمّة، والأُمة ليست من وظائفها إلا البيعة للمعصوم، وهذا أنسب بالرؤية العقديّة في مذهب الإماميّة.

[٢٠] ابن أبي الحديد، عز الدين، شرح نهج البلاغة: ج٣، ص٣٤.
[٢١] أُنظر تفصيل ذلك في المصادر التالية: ابن شهر آشوب، محمد بن علي، المناقب: ج٣، ص١٩٤ـ ١٩٥. ابن أبي الحديد، عز الدين، شرح نهج البلاغة: ج١٦، ص٣٠ وما بعدها. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٤، ص٣٣ وما بعدها.
[٢٢] هناك تفاصيل مؤلمة حول هذه النقطة، يمكن ملاحظتها في أغلب الكتب التاريخية والروائية.
[٢٣] أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين، مقاتل الطالبيين: ص٣٣.
[٢٤] الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج٢، ص٨.
[٢٥] المصدر السابق: ج٢، ص١٠.
[٢٦] الديلمي، الحسين بن أبي الحسن، أعلام الدين في صفات المؤمنين: ج٢، ص٢٩٢.
[٢٧] الصدوق، محمد بن علي، علل الشرائع: ج١، ص٢٢١.
[٢٨] الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج٢، ص١٢.
[٢٩] الخصيبي، حسين بن حمدان، الهداية الكبرى: ص١٩٣.
[٣٠] الدينوري، أحمد بن داود، الأخبار الطوال: ص٢٢١.
[٣١] المرتضى، علي بن الحسين، تنزيه الأنبياء: ص٢٢١ـ ٢٢٢.
[٣٢] ابن عنبة، أحمد بن علي، عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب: ص٦٧.
[٣٣] المرعشي، شهاب الدين، شرح إحقاق الحق: ج١١، ص٢٤٤، نقلاً عن البيهقي في كتابه المحاسن والمساوي.
[٣٤] وفي لفظ آخر: «**فو الله، لأثخننّ أهل الشام بجيش يضيق عنها فضاؤها**». الخوئي، حبيب الله، منهاج البراعة: ج١٩، ص١٥٣.
[٣٥] المرعشي، شهاب الدين، شرح إحقاق الحق: ج١١، ص٢٢٢، نقلاً عن البيهقي في كتابه المحاسن والمساوي.
[٣٦] أُنظر: الدينوري، أحمد بن داود، الأخبار الطوال: ص٢٢٢.
[٣٧] ابن طاووس، علي بن موسى، الملهوف: ص٩٢ـ٩٣.
[٣٨] المفيد، محمد بن محمد، الأمالي: ص٣٢٢.
[٣٩] القاضي النعمان، أبو حنيفة، دعائم الإسلام: ج١، ص٣٤٢.
[٤٠] ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب: ج١، ص٣٦٣.
[٤١] الطبرسي، أحمد بن علي، مشكاة الأنوار: ص١٢٨.
[٤٢] الصدوق، محمد بن علي، كمال الدين وتمام النعمة: ص٣٧٧ـ ٣٧٨.
[٤٣] المصدر السابق: ص٦٧٢ـ٦٧٣.

محمد الدومى
باحث إسلامي، من الجزائر

محاربة الأنظمة المستبدة للشعائر الحسينية عبر التاريخ.. الأساليب والدواعي

استهلال

١ـ قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[١].

٢ـ وورد عن السيِّدة زينب بنت علي عليها السلام في حديثها لابن أخيها الإمام السجاد عليه السلام، وهي تحدثه عمّا عهده رسول الله صلى الله عليه وآله لأمير المؤمنين والحسن والحسين عليهم السلام فيما يجري من أحداث ووقائع مستقبلية، قالت: «... **وينصبون لهذا الطف علماً لقبر أبيك سيِّد الشهداء عليه السلام، لا يُدرس أثره، ولا يعفو رسمه على كرور الليالي والأيَّام، وليجتهدن أئمَّة الكفر وأشياع الضلالة في محوه وتطميسه، فلا يزداد أثره إلَّا ظهوراً، وأمره إلَّا علوّاً**»[٢].

تاريخ الشعائر

لم تنفك الشعائر الحسينية منذ أن استُشهد الإمام الحسين عليه السلام عن أن تكون ذات حضور كثيف

في وعي الشيعة عموماً، فثمَّة كثافة ملحوظة من النصوص الروائية يمكن العودة إليها في مظانها تحثُّ المؤمن على إحياء تلك الشعائر، منها مثلاً ما نُقل عن الأزدي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال للفضيل: «**تجلسون وتحدّثون؟ قال: نعم جعلت فداك. قال: إنّ تلك المجالس أحبّها، فأحيوا أمرنا يا فضيل! فرحم الله مَن أحيى أمرنا، يا فضيل مَن ذَكَرنا أو ذُكِرنا عنده فخرج من عينه مثل جناح الذباب غفر الله له ذنوبه ولو كانت أكثر من زبد البحر**»[٣]، أو ما نُقل عن الإمام السجاد عليه السلام: «**أيّما مؤمنٍ دمعت عيناه لقتل الحسين بن علي عليهما السلام دمعة حتّى تسيل على خدّه، بوّأه الله بها في الجنة غرفاً يسكنها أحقاباً، وأيّما مؤمنٍ دمعت عيناه حتّى تسيل على خدّه فينا لأذى مسّنا من عدوّنا في الدنيا، بوّأه الله بها في الجنة مبوأ صدق...**»[٤].

وفي الحثّ على إنشاد الشعر قال أبو عبد الله عليه السلام: «**يا أبا هارون، أنشدني في الحسين عليه السلام. قال: فأنشدته، فبكى، فقال: أنشدني كما تنشدون ـ يعني بالرقة ـ قال: فأنشدته:**

أُمرُرْ على جدثِ الحسين

فَقُلْ لأعْظُمِهِ الزَّكيَّة

قال: فبكى، ثمَّ قال: زدني، قال: فأنشدته القصيدة الأُخرى، قال: فبكى، وسمعت البكاء من خلف الستر. قال: فلما فرغت قال لي: يا أبا هارون، مَن أنشد في الحسين عليه السلام شعراً فبكى وأبكى عشراً كُتبت له الجنة، ومَن أنشد في الحسين شعراً فبكى وأبكى خمسة كُتبت له الجنة، ومَن أنشد في الحسين شعراً فبكى وأبكى واحداً كُتبت لهما الجنة، ومَن ذُكر الحسين عليه السلام عنده فخرج من عينه من الدموع مقدار جناح ذباب كان ثوابه على الله، ولم يرضَ له بدون الجنة»[٥].

وعن أبي هارون المكفوف، قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقال لي: «**أنشدني. فأنشدته، فقال: لا، كما تنشدون وكما ترثيه عند قبره. قال: فأنشدته:**

أُمرُرْ على جدثِ الحسين

فَقُلْ لأعْظُمِهِ الزَّكيَّة

قال: فلمَّا بكى أمسكت أنا، فقال: مُر. فمررت، قال: ثمَّ قال: زدني. قال: فأنشدته:

يا مريمُ قُومي فاندُبي مولاكِ

وعلى الحسينِ فاسعدي بِبُكاكِ

قال: فبكى وتهايج النساء، قال: فلمَّا أن

سكتن قال لي: يا أبا هارون، مَن أنشد في الحسين فأبكى عشرة فله الجنة، ثمَّ جعل ينقص واحداً واحداً حتى بلغ الواحد، فقال: مَن أنشد في الحسين فأبكى واحداً فله الجنة. ثمّ قال: مَن ذكره فبكى فله الجنة»[٦].

الملاحظ أنّ في هذه الرواية الصادقية إصراراً على الإنشاد، وعلى ربط ذلك بالأجر العميم الذي ينتظر المنشد. ثمَّ إنّ الإمام الصادق عليه السلام ألحَّ على المنشد أن يقرأ كما لو كان عند قبر الإمام الحسين عليه السلام؛ ما يعني أنّ الزيارة للقبر الشريف كانت معروفةً ومعمولاً بها، بل وكأنَّه يريد أن يجعلها سُنَّةً متَّبعة؛ وفي هذا كلّه إحياء للشعائر الحسينية.

وثمَّة ملاحظة أُخرى جديرة أن نتوقّف عندها، وهي أنّ هناك حثاً كبيراً على إقامة المجالس الحسينية في بيوت الشيعة، وهو ما يشير إلى حقيقة تعرُّض الشيعة ـ تبعاً لأئمتهم ـ لمظالم تُجبرهم على إخفاء أمرهم عن الظلمة والمستبدين، وأنّ وسيلة الإحياء هنا هي التلاقي بين المؤمنين في البيوت، كما جاء في كلام الإمام الصادق عليه السلام مخاطباً خيثمة: «**أبلغ موالينا السلام، وأوصهم بتقوى الله العظيم، وأن يعود غنيّهم على فقيرهم، وقويّهم على ضعيفهم، وأن يشهد حيُّهم جنازة ميتهم، وأن يتلاقوا في بيوتهم؛ فإنّ في لقاء بعضهم بعضاً حياة لأمرنا. ثمَّ قال: رحم الله عبداً أحيى أمرنا**»[٧].

إذاً، لم تكن المسألة مجرَّد أمرٍ أو دعوة إلى الإحياء، بل إنّ الأئمة عليهم السلام مارسوا هذا الإحياء، وأظهروا من البكاء والحزن على الحسين عليه السلام ما يذيب الحجر الأصم، وكان في طليعتهم الإمام علي بن الحسين سيِّد الساجدين عليه السلام الذي استأثر بلقب (البكَّاء)، فقد كان أحد أكبر البكَّائين الخمسة في التاريخ البشري. وقد تابع شيعة أهل البيت عليهم السلام أئمّتهم في ذلك؛ إذ أحيوا أمر الحسين عليه السلام بالبكاء والندب وإنشاد الشعر وذكر المآثر وما إليها.

إنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام لهم في رسول الله صلى الله عليه وآله أُسوة حسنة في الحث على إحياء أمر الحسين عليه السلام والبكاء عليه، ويمكن تلمّس ذلك الحث في موردين على الأقل:

الأول: بكاؤه صلى الله عليه وآله على الحسين عليه السلام عند ولادته، فقد جاء في المستدرك على الصحيحين ما يلي: «... **فدخلتُ [أُم الفضل] يوماً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فوضعتُه [الحسين عليه السلام] في حجره، ثمَّ حانت منّي التفاتة، فإذا عينا رسول الله صلى الله عليه وآله تهريقان من الدموع. قالت: فقلت: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، ما لك؟**

قال: أتاني جبريل (عليه الصلاة والسلام) فأخبرني أن أُمَّتي ستقتل ابني هذا. فقلت: هذا؟ قال: نعم، وأتاني بتربة من تربته حمراء»[٨]. وهذه الحالة (البكاء على المولود) ملفتة للانتباه؛ إذ إنّ من عادة الناس أنّهم يفرحون بمولودهم، فلماذا بكى رسول الله ﷺ على مولوده الحسين عليه السلام؟! هذه ملاحظة جديرة بأن تقال للناس وتبيَّن لهم وأن يركَّز عليها تركيزاً وافياً. فالخروج عن المألوف كثيراً ما يفرض على الناس أن يستنطقوه.

الثاني: حثّه للنائحات في المدينة أن يندبن عمّه حمزة، عندما رأى نساء الأنصار يندبن ذويهن ممَّن استُشهدوا يوم أُحد، فقد قال ﷺ: «**لكن حمزة لا بواكي له**»[٩]. وحمزة عليه السلام ليس أوْلى من الحسين عليه السلام بالبكاء، وهو ريحانة رسول الله ﷺ.

كلُّ ذلك يحمل قيم الاستثمار التي ينبغي المصير إليها بكلِّ قوَّةٍ وعنفوان.

ثم إننا نودّ الإشارة ـ في هذا الصدد ـ إلى بعض المصاديق البارزة والواضحة للشعائر الحسينية، وهي تُعتبر من أهم الأُمور لإحياء أمرهم عليهم السلام، وهي:

١ـ زيارة الإمام الحسين عليه السلام: ففي صحيحة محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: «مروا **شيعتنا بزيارة قبر الحسين** عليه السلام؛ **فإنّ إتيانه يزيد في الرزق، ويمدّ في العمر، ويدفع مدافع السوء، وإتيانه مفترض على كلِّ مؤمنٍ يقرّ له بالإمامة من الله**»[١٠]. بل إنّ المطلوب من المؤمن هو الإكثار من الزيارة، كما ورد عن أبي عبد الله عليه السلام في حديثه لسدير[١١]، بل ورد التأكيد على زيارته عن بُعد أيضاً، كما هو ثابت في كتب الأدعية والزيارات.

٢ـ البكاء على الحسين عليه السلام: فعن الإمام علي بن الحسين عليه السلام قال: «**أيّما مؤمن دمعت عيناه لقتل الحسين** عليه السلام **حتى تسيل على خدّيه بوّأه الله بها في الجنة غرفاً يسكنها أحقاباً**»[١٢]، وقريب من ذلك ما في كتاب كامل الزيارات: «**عن أبي جعفر** عليه السلام، **قال: كان علي بن الحسين** عليهما السلام **يقول: أيّما مؤمن دمعت عيناه لقتل الحسين بن علي** عليهما السلام **دمعة حتى تسيل على خدّه بوّأه الله بها في الجنة غرفاً يسكنها أحقاباً، وأيّما مؤمن دمعت عيناه حتى تسيل على خدّه فينا لأذىً مسّنا من عدوّنا في الدنيا بوّأه الله بها في الجنة مبوأ صدق، وأيّما مؤمن مسّه أذى فينا فدمعت عيناه حتى تسيل على خدّه من مضاضة ما أُوذي فينا صرف الله عن وجهه الأذى، وآمنه يوم القيامة من سخطه والنار**»[١٣].

٣ــ إقامة المجالس الحسينية: فذكر الحسين عليه السلام وباقي أئمة أهل البيت الأطهار عليهم السلام يحيى بالموعظة وإنشاد الشعر وذكر المناقب وتبيين المظلومية التي تعرَّضوا لها، فعن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: «**مَن جلس مجلساً يُحيي فيه أمرنا لم يمت قلبه يوم تموت القلوب**»[١٤].

هذا غيض من فيض ممَّا ورد في ضرورة الإحياء لأمر الإمام الحسين عليه السلام، فالنصوص أكثر من أن تُذكر وتُحصر، ولا أدلّ على ذلك من سنِّ استحباب زيارته في أكثر من مناسبة: كليالي القدر، والعيدين (الفطر والأضحى)، وعيد الغدير، وليلة عاشوراء، ويوم الأربعين، وأول رجب ووسطه وآخره، والنصف من شعبان، وغيرها الكثير ممّا هو مدوّن في متون الكتب المختصة بالزيارات؛ ومعنى ذلك أنّ زيارة الحسين عليه السلام تتوزّع على عموم أيام السنة، وذلك من شأنه تقوية الارتباط به شعوراً وعملاً.

إنّ الشعائر الحسينية كانت تتأثر سعةً وضيقاً تبعاً لمجمل الظروف التي عاشها أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم في سائر البلدان والأزمنة، وفي هذا السياق قدَّم الدكتور محمد صالح الجويني تلخيصاً وافياً لتاريخ المأتم الحسيني، فقد قسَّمه إلى المراحل التالية:

١ـ منذ استشهاد الإمام الحسين عليه السلام وحتى مقتل قاتليه.

٢ـ تأسيس الأئمة عليهم السلام للمأتم الحسيني بوصفه شعيرة دينية؛ وذلك عبْر توفير الأرضية المناسبة لسنِّ المأتم من قِبَل الإمام زين العابدين عليه السلام، وبناء أركان المأتم في عهد الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام، واتساع دائرة المآتم في عهد الإمامين الكاظم والرضا عليهما السلام.

٣ـ منذ تأسيس المأتم، حتى أخذه طابع شعيرة دينية رسمية.

٤ـ أخذ المأتم طابعاً رسمياً بظهور حكومات شيعية قوية في القرنين الرابع والخامس.

٥ـ فقدان الحكومات الشيعية القوية من القرن السادس وحتى العاشر.

٦ـ حكم الصفوية في القرنين العاشر والحادي عشر.

٧ـ منذ الصفوية وحتى اليوم[١٥].

نماذجٌ من الأنظمة المستبدة ومحاربتها للشعائر الدينية

إنّ مظلومية الحسين عليه السلام جزء من مظلومية بني هاشم بشكل عام، وأهل البيت عليهم السلام بشكل خاص، ولا ينبغي وضعها إلّا

في هذا الإطار، فقد اتخذت هذه المظلومية ـ العامة ـ أشكالاً كثيرةً ومظاهرَ متعدِّدةً، يمكن معرفتها من خلال استذكار ما سمَّاه الشيخ حسن بن فرحان المالكي بـ (مراسيم معاوية الأربعة)، وقد استقاها من ابن أبي الحديد المعتزلي في شرحه للنهج؛ حيث ذكر نصاً طويلاً نسبه إلى المدائني، ونحن نذكرها مختصرةً:

١ـ كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة أن: برئت الذمة ممَّن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته.

٢ـ وكتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق أن لا يجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة.

٣ـ وكتب إليهم: انظروا مَن قِبَلكم مِن شيعة عثمان، ومحبّيه وأهل ولايته، والذين يروون فضائله ومناقبه، فأدنوا مجالسهم، وقرّبوهم وأكرموهم، واكتبوا لي بكلِّ ما يروي كلُّ رجلٍ منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته.

٤ـ ثمَّ كتب إلى عماله: إنّ الحديث في عثمان قد كثُر وفشا في كلِّ مصرٍ وفي كلِّ وجهٍ وناحيةٍ، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلَّا وتأتوني بمناقض له في الصحابة، فإنّ هذا أحبُّ إليَّ وأقرُّ لعيني وأدحض لحجَّة أبي تراب وشيعته، وأشدُّ عليهم من مناقب عثمان وفضله[١٦].

وقد تركت هذه المراسيم الأربعة آثاراً عميقةً في الثقافة الدينية للمسلمين، وفي الكثير من معالم الدين وشعائره، ويمكن قراءة بعض مظاهر هذا (التحوُّل الديني) في المثالين التاليين، نذكرهما على سبيل التمثيل لا الحصر:

١ـ عن أنس، قال: «**ما أعرف شيئاً ممَّا كان على عهد النبي** ﷺ. **قيل: الصلاة؟ قال: أليس ضيّعتم ما ضيّعتم فيها؟!**»[١٧]. وعن الزهري، قال: «**دخلت على أنس بن مالك بدمشق، وهو يبكي، فقلت له: ما يبكيك؟ فقال: لا أعرف شيئاً ممَّا أدركت إلّا هذه الصلاة، وهذه الصلاة قد ضُيِّعت**»[١٨].

٢ـ ما قاله ابن عباس من أنّ الناس تحذر من التلبية خوفاً من معاوية وبغضاً لعلي عليه السلام.. فقد روى ذلك أكثر من واحد من المصادر الحديثية، منها مثلاً ما ورد في المستدرك على الصحيحين عن سعيد بن جبير، قال: «**كنّا مع ابن عبّاس بعرفة، فقال لي: يا سعيد، ما لي لا أسمع الناس يلبّون؟ فقلت: يخافون من معاوية. قال: فخرج ابن عبّاس من فسطاطه**

فقال: لبيك اللّهمَّ لبيك؛ فإنَّهم قد تركوا السنَّة من بغض عليّ (رضي الله عنه)»[١٩].

وهكذا أصبح ترك السنّة ـ بغضاً للإمام عليٍّ عليه السلام ـ القاعدةَ المعمول بها عند مَن لا يرعون للسنّة حرمةً.

والملاحظ أنّ المثال الأول هو من مدينة دمشق في ذلك الزمان، حيث معاوية؛ ومنه نفهم سرَّ المقولة المشهورة التي ذهبت مذهب المثل: «**ليس حبّاً في معاوية، بل كرهاً لعليٍّ**»، فراح كره الإمام علي عليه السلام ـ وأهل البيت عليهم السلام بصورة عامة ـ يؤسِّس لدينٍ جديد، قاعدته وعنوانه المراسيم الأربعة الصادرة عن معاوية، والمشار إليها آنفاً. لكنا نجد أهل البيت عليهم السلام ـ وهم حرّاس الدين، والمؤتمنون عليه جعلاً لا انتخاباً ـ لم يتخذوا هذه الوسيلة مطيّة لترك السنّة، فهم لا يتركون أيَّ فعل ثبت أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله فعله أو ندب إليه بدعوى أنّ أعداءهم يفعلونه.

إننا نجد هذا البغض في أوضح معانيه وأصرحها في موقف عبد الله بن الزبير، فقد تحامل «**على بني هاشم تحاملاً شديداً، وأظهر لهم العداوة والبغضاء، حتى بلغ ذلك منه أن ترك الصلاة على محمَّدٍ في خطبته، فقيل له: لمَ تركت الصلاة على النبيِّ؟ فقال: إنّ له أهل سوء يشرئبون لذكره، ويرفعون رؤوسهم إذا سمعوا به**»[٢٠]؛ لذلك لا نعجب من قول سيِّدنا أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام: «**ما زال الزبير منّا أهل البيت حتى نشأ ابنه عبد الله فأفسده**»[٢١].

في هذا الإطار يمكن ملاحظة تفسير الزمخشري لآية: ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾[٢٢]، إذ يقول: «**فإن قلت: فما تقول في الصلاة على غيره؟ قلت: القياس جواز الصلاة على كلّ مؤمن لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾، وقوله: اللهم صل على آل أبي أوفى. ولكن للعلماء تفصيلاً في ذلك، وهو أنّها إن كانت على سبيل التبع كقولك: صلَّى الله على النبي وآله، فلا كلام فيها، وأمّا إذا أُفرد غيره من أهل البيت بالصلاة كما يُفرد هو فمكروه؛ لأنّ ذلك صار شعاراً لذكر رسول الله صلى الله عليه وآله، ولأنّه يؤدّي إلى الاتهام بالرفض، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: مَن كان يؤمن بالله وباليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم**»[٢٣].

على أنّ الزمخشري لا يحمل من الكره لآل

البيت عليهم السلام ما يحمله آخرون عُرفوا به، كابن تيميّة الحرّاني الذي جاء بدين جديد، دين مخالفة سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله بدعوى أنّ الغير التزموا بها، فقد قال منظِّراً ومقعِّداً لهذا الدين الجديد: «**ومن هنا؛ ذهب مَن ذهب من الفقهاء إلى ترك بعض المستحبات إذا صارت شعاراً لهم [يقصد الرافضة]، فإنّه لم يترك واجباً بذلك. لكن قال: في إظهار ذلك مشابهة لهم، فلا يتميز السنّي من الرافضي، ومصلحة التميُّز عنهم لأجل هجرانهم ومخالفتهم أعظم من مصلحة هذا المستحب**»[٢٤]. أقول: مَثَلُ ابن تيميَّة هنا كمَثل الدبّ الذي أراد أن يريح سيِّده من ذبابة حطّت على وجهه فنغّصت عليه قيلولته، فإذا به يحمل صخرةً كبيرةً يضرب بها رأس سيِّده فقضى عليه.

أضف إلى هذه المسائل مسألة التختم، أباليمين يكون أم باليسار؟! وكذا تسنيم القبر أفضل أم تسطيحه؟! ومسائل أُخرى اجتهد منظِّرو الدين الجديد في تخريجها وتقعيدها والتنظير لها، كلُّ ذلك استمراراً للخط الأُموي الذي عبَّر عنه زعيمه معاوية بن أبي سفيان بقوله: «**لا والله، إلّا دفناً دفناً**»[٢٥].

إنّ الروايتين التاليتين تعبّران عن الذروة التي بلغها هذا الدين الجديد، الدين المؤوّل على حساب الدين المنزل:

١- على لسان ابن عبّاس في قوله: «**تمتع رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال عروة: نهى أبو بكر وعمر عن المتعة. فقال ابن عبّاس: فما يقول عرية؟ قال: نهى أبو بكر وعمر عن المتعة. قال: أراهم سيهلكون؛ أقول: قال رسول الله، ويقولون: قال أبو بكر وعمر**»[٢٦].

٢- وعلى لسان النووي من جهةٍ، والقاضي عيّاض من جهةٍ ثانية، فيما ذهبا إليه من توجيه قول الخليفة الثاني من أنّ رسول الله غلبه الوجع، فقد قالا في ذلك: «**إنّه من دلائل فقه عمر**»[٢٧].

وعليه؛ أقول: إنّ محاربة الحسين عليه السلام هي استمرار للحرب بين المشروع الإسلامي المتمثّل بالأنبياء والأوصياء والأئمة والمؤمنين من جهة، وبين الشيطان وأتباعه من المستبدين والظلمة من جهة ثانية، أو قل بعبارة أُخرى: هي حرب بين مشروع يجعل الله تعالى حاكماً على الإنسان، وبين مشروع آخر يجعل الإنسان حاكماً على نفسه وعلى الله تعالى.

ممارسات الأنظمة المستبدة تجاه الشعائر الحسينية

لقد حاول الحكام المستبدون ـ وعلى مرِّ التاريخ ـ إلغاء الحسين عليه السلام، باعتباره الفكر والمشروع النهضوي العادل، وأرادوا محوه من الذاكرة الإسلامية بخاصَّة والإنسانية بعامَّة، كما حاول ذلك يزيد بن معاوية ابن آكلة الأكباد بعد نصف قرن من التحاق الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله بالرفيق الأعلى، فقد حوّلوا يوم عاشوراء الحزن إلى يوم فرح وسرور وابتهاج، يُوسَّع فيه على العيال، وتُقام فيه حفلات الزواج؛ وهو ما يمثِّل استفزازاً فجّاً وعدوانياً لمشاعر أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم.

إنّ لكلِّ أُمةٍ ملحمتها؛ فجلجامش للسومريين والآشوريين، ولليونان: الإلياذة والأوديسة لهوميروس، وللفرس: الشاهنامة لفردوسي، وللجزائر: إلياذة الجزائر، كتبها شاعر الثورة الكبير مفدي زكريا، وللمسلمين ـ خاصَّةً أنصار مذهب أهل البيت عليهم السلام ـ كربلاء، تلك اللوحة التي قاتل فيها الغدرُ ممزوجاً بالخيانة والظلم والدناءة، قيمَ الفداء والأمانة والنجدة. لكن ثمَّة فرقان بين الأمرين، هما: أنّ الملاحم الأُولى هي صور تُعبِّر عن واقع بطولي مخصوص في الزمكان، اعتراه الكثير من الشعر، أمّا ملحمة الحسين عليه السلام فهي واقعة كبيرة تستغرق الزمكان وتستوعبه، وقيل بشأنها الكثير من الشعر، ولا يزال...

الفرق الآخر بين ملحمة المسلمين وبين غيرها من الملاحم، أنّ الأُولى كانت ضدَّ عدوٍّ داخلي، يدين بديننا ويتكلَّم لغتنا، ممّا جعل ألمها أقوى وأشد، وذلك كما قال الشاعر:

وظلم ذوي القربى أشدُّ مضاضةً

على النفسِ من وقعِ الحسامِ المهنّدِ

فقد أخرج الحاكم في مستدركه عن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه)، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إنّ أهل بيتي سيلقون من بعدي من أُمَّتي قتلاً وتشريداً، وإنّ أشدَّ قومنا لنا بغضاً بنو أُمية وبنو المغيرة وبنو مخزوم**»[٢٨].

لقد أُشرب الأُمويون وكذلك العبّاسيون بُغض العلويين، وأوغلوا في دمائهم، لقد كانوا مثقلين بدماء العلويين؛ والنصوص التاريخية تثبت ذلك إلى الحدِّ الذي يجعلني أُقرّ أنَّه لو أنّ أيَّ دينٍ، أو مذهب، أو نِحْلَة، أو طائفة، تعرَّضت لعُشر ما تعرَّض له أهل البيت عليهم السلام لاندثر، ولكان موقعه الآن في المتاحف، جالباً للفرجة، فإنّ العائلة الوحيدة التي سجَّل التاريخ كلَّ عذاباتها هم أهل البيت[٢٩].

وهناك جملة من الممارسات القمعية التي

قامت بها الأنظمة المستبدة تجاه القضية الحسينية وشعائرها المباركة، نذكر منها ما يلي:

١ـ الوقوف ضدّ الشعائر الحسينية عن طريق الترهيب من الزيارة وإقامة المجالس

لقد أقلقهم الحسين عليه السلام حيّاً وميّتاً، فهذا المتوكّل العباسي قد تأسّى بأبيه هارون، ومنع زيارة الإمام الحسين عليه السلام، وخصَّص لزوّاره سجناً تحت الأرض يُعرف باسم (المطبق)، ووضع مسالح في الطريق إلى المرقد المطهَّر للإمام الحسين عليه السلام، تقطع أيدي وأرجل الزوّار، آخذاً بسنّة فرعون، ثمّ أجرى الماء على الضريح الحسيني المطهَّر ليمحي أثره[٣٠].

ومن السلاجقة، إلى شاه إيران البهلوي، إلى يزيد عصره صدام، إلى الوهابيين، إلى الإرهابيين (الدواعش)؛ كلُّهم استثارهم الحسين عليه السلام بمبادئه ومواقفه، وخطابه النهضوي الثوري الرافض لمنطق القهر والهيمنة.

٢ـ محو مظاهر الحزن في محرم عن طريق اختراع نصوص دينية أو إقامة مظاهر الفرح والابتهاج

أمّا مظاهر الفرح والابتهاج، فقد أقامها يزيد ابن آكلة الأكباد كأفضل ما تكون الإقامة؛ فزينت شوارع دمشق بالرايات، وأمر أصحاب الدفوف بالضرب على دفوفهم، ففي مقتل الخوارزمي عن سهل بن سعد قال: «**خرجت إلى بيت المقدس حتى توسطت الشام، فإذا أنا بمدينة مطردة الأنهار، كثيرة الأشجار، قد علقوا الستور والحجب والديباج، وهم فرحون مستبشرون، وعندهم نساء يلعبن بالدفوف والطبول، فقلت في نفسي: لعلَّ لأهل الشام عيداً لا نعرفه نحن. فرأيت قوماً يتحدَّثون، فقلت: يا هؤلاء، ألكم بالشام عيد لا نعرفه نحن؟ قالوا: يا شيخ، نراك غريباً؟ فقلت: أنا سهل ابن سعد، قد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وحملت حديثه، فقالوا: يا سهل، ما أعجبك السماء لا تمطر دماً! والأرض لا تُخسف بأهلها! قلت: ولمَ ذاك؟ فقالوا: هذا رأس الحسين عترة رسول الله صلى الله عليه وآله يُهدى من أرض العراق إلى الشام، وسيأتي الآن. قلت: واعجباً! أيُهدى رأس الحسين والناس يفرحون؟! فمن أيِّ بابٍ يدخل؟ فأشاروا إلى باب يقال له: باب الساعات. فسرت نحو الباب، فبينما أنا هنالك، إذ جاءت الرايات يتلو بعضها بعضاً، وإذا أنا بفارس بيده رمح منزوع السنان، وعليه رأس من أشبه الناس وجهاً برسول الله، وإذا بنسوة من ورائه على جمال بغير وطاء...**»[٣١].

حتى لقد قال الشاعر:

كانت مآتم بالعراق تعدّها

أُمية بالشام من أعيادها

وأمّا اختراع النصوص، فمنها أُكذوبة التاسع: «**لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع**»[٣٢]. وقد أخرج البخاري عن ابن عبّاس قال: «**قدم النبيّ ﷺ المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يومٌ صالح، هذا يومٌ نجّى الله بني إسرائيل من عدوّهم، فصامه موسى. قال: فأنا أحقّ بموسى منكم. فصامه وأمر بصيامه**»[٣٣]. وفي رواية مسلم: «**هذا يوم عظيم، أنجى الله فيه موسى وقومه، وغرّق فرعون وقومه، فصامه موسى شكراً، فنحن نصومه. فقال رسول الله ﷺ: فنحن أحقّ وأولى بموسى منكم**»[٣٤].

وفي مقابل ذلك أُنظر ما رواه الشيخ الصدوق عن جبلة المكية، «**قالت: سمعت ميثماً التمار رحمه الله يقول: والله، لتقتلن هذه الأُمَّة ابن نبيّها في المحرَّم لعشرة يمضين منه، وليتخذن أعداء الله ذلك اليوم يوم بركة، وإنّ ذلك لكائن، قد سبق في علم الله تعالى، أعلم ذلك بعهد عهده إليَّ مولاي أمير المؤمنين (صلوات الله عليه)... فقلت له: يا ميثم، وكيف يتخذ الناس ذلك اليوم الذي يُقتل فيه الحسين بن علي عليهما السلام بركة؟ فبكى ميثم (رضي الله عنه) ثم قال: سيزعمون بحديثٍ يضعونه أنَّه اليوم الذي تاب الله فيه على آدم، وإنَّما تاب الله على آدم عليه السلام في ذي الحجة، ويزعمون أنَّه اليوم الذي قَبِلَ الله فيه توبة داود عليه السلام، وإنَّما قَبِل توبته في ذي الحجة، ويزعمون أنَّه اليوم الذي أخرج الله فيه يونس عليه السلام من جوف الحوت، وإنَّما كان ذلك في ذي القعدة، ويزعمون أنَّه اليوم الذي استوت فيه سفينة نوح عليه السلام على الجودي، وإنَّما استوت في الثامن عشر من ذي الحجة، ويزعمون أنَّه اليوم الذي فُلق فيه البحر لبني إسرائيل، وإنَّما كان ذلك في ربيع الأول**»[٣٥].

دواعي محاربة الأنظمة المستبِّدة لـ الشعائر الحسينيّة

قال تعالى: ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾[٣٦]. إنّ هذه الآية الشريفة تشير إلى عاقبة الذين كفروا، ممن (يمكرون) بالرسول الأعظم ﷺ، من حيث إنَّهم يريدون تحقيق غاية إقصاء

الرسول ﷺ بإحدى وسائل ثلاث: ﴿**لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ**﴾. فإمَّا السجن ﴿**يُثْبِتُوكَ**﴾، أو القتل ﴿**قْتُلُوكَ**﴾، أو النفي والتشريد ﴿**يُخْرِجُوكَ**﴾، وما ذاك إلَّا لأنّ مشروعه السياسي والاجتماعي منافٍ بالمطلق لما يريدون تحقيقه من معادلات ظالمة في المجتمع.. لكن هذا المكر القرشي الكافر يقابله مكر من طبيعةٍ أُخرى، هو المكر الإلهي؛ فالكفَّار يمكرون: ﴿**وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ**﴾[٣٧]، لكن الله تعالى يمكر وهو ﴿**خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾؛ بمعنى أنّ مخطّطات قريش وسائر الكفَّار لا تمرّ، وإنما يمرُّ ما أراده الله تعالى.

إنّ نفس هذه الحقائق القرآنية نجدها كذلك في المنطق الزينبي، وهي تخاطب ابن أخيها الإمام السجاد عليه السلام بقولها: «... **وينصبون لهذا الطف علماً لقبر أبيك سيِّد الشهداء عليه السلام، لا يُدرس أثره، ولا يعفو رسمه على كرور الليالي والأيَّام، وليجتهدن أئمَّة الكفر وأشياع الضلالة في محوه وتطميسه، فلا يزداد أثره إلّا ظهوراً، وأمره إلّا علواً**»[٣٨].

هذا المعنى من كلام السيدة زينب عليها السلام يلقي بظلاله على واقعة الطف التي أظهرت الفرق بين موقفين متناقضين تماماً يمثّلان خطّين متوازيين: خط يمثّل أئمة الكفر وأشياع الضلالة الذين يسعون إلى الحدّ من إحياء ذكرى عاشوراء الحسين عليه السلام، وخطّ آخر يمثّل أتباع الحسين عليه السلام ومحبّيه الذين يسعون لإقامة مراسم الذكرى بكل ما يمتلكون من شوق وعزيمة.

إنّ الظلم وعاشوراء يقفان على طرفي نقيض، فلا يجتمعان أبداً؛ لذلك أدرك الطواغيت أنّ القضاء على الفكر الثوري يمرُّ عبر محاربة الشعائر الحسينية أو تحجيمها.

لقد بيّنت السيدة زينب عليها السلام بكلِّ جلاءٍ النهاية المحتومة لكلا الفريقين على طول المسيرة؛ أمَّا عن سيِّد الشهداء، فقد أصبح قبره علماً بكلِّ ما تحمله هذه الكلمة من معانٍ، وبيان ذلك:

أولاً: الظهور، فالعَلَم هو كلّ ما ظهر، أو هو بالتعبير القرآني (شعيرة)، يقول تعالى: ﴿**ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ**﴾[٣٩]. فالشعائر: كلُّ عملٍ يُشعرك بشيءٍ ما، وإنّما سمِّيت الشعيرة شعيرة لأنَّها ترمز إلى حادثة معيَّنة ـ دينية بالخصوص ـ وتعمل على ربط النفس بها تمثلاً لقيمها ورمزيتها، وإن كان أكثر الناس لا يعون حقيقة هذه الدلالة الرمزية، كما في رمي الجمرات مثلاً؛ لذلك فإنا نؤكّد هنا

على استبعاد لفظة الطقوس من الشعائر الحسينية؛ إذ الشعائر تنبض بالحياة، بينما الطقوس عمياء، ودين الله هو دين حياة، يدعونا إليها، يقول تعالى: ﴿**أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾[٤٠].

ثانياً: البوصلة، فالعَلَم يحدِّد للإنسان خطَّ سيره، ويحدِّد له مشروعه الاجتماعي والسياسي والثقافي، وهو ما سمّاه ربُّ العالمين﴾ بـ (القصد) كما في قوله تعالى: ﴿**وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ**﴾[٤١]. إنّ القصد هنا ـ وإن كان الظاهر منه عدم التسرُّع وعدم التباطؤ في السير (الوسطية والاقتصاد) ـ يشير أيضاً إلى الغاية والهدف، أي: أن يجعل الإنسان لسيره المادي والمعنوي قصداً وغايةً ينتهي إليها، أي: مشروعاً يعمل على تحقيقه وإنجازه «**لا يُدرس أثره، ولا يُعفى رسمه، على مرور الليالي والأيّام**».

ومنه نفهم البُعد التاريخي والجغرافي للمقولة المشتهرة على الألسن: «**كلُّ أرضٍ كربلاء، وكلُّ يومٍ عاشوراء**». لقد تحوّلت هذه المقولة إلى شعار كبير يحمله رفضة الظلم والاستضعاف في مقارعة الاستكبار، كما يحملون شعار: «**هيهات منّا الذلّة**»؛ بمعنى أنّ كربلاء لم تَعُد قطعة جغرافية محصورة في صحراء العراق الكبرى، كما أنّ عاشوراء ليست فترة ولا نقطة منسية في تاريخ الأيام.

وقد أدرك الطواغيت والمستبدون والظلمة وأعوانهم هذه الأبعاد، فاجتهدوا في محوها وطمسها من المخيلة الشعبية، بعدما شوّشوا عليها بإدراج جملة من الأحداث المكذوبة فيها؛ لتمييعها من جهةٍ، والتعمية عليها من جهةٍ ثانية. إنَّه صراع أبدي بين الحقِّ والباطل، بين الإسلام والكفر.

إنّ لعاشوراء الحسين عليه السلام صوتاً وسوطاً يدركهما المؤمنون، كما يدركهما المستبدون، لكن كلّ على طريقته؛ فالمؤمنون فهموها على أنَّها دين محرِّر، بينما فهمها الطواغيت على أنَّها دين مخدِّر، والمؤمنون فهموها على أنّ تكليفهم إزاءها هو وعي التزييف، بينما فهمها المستبدون على أنَّها تزييف الوعي.

ثالثاً: مظاهر هذا الظهور التي يمكن قراءتها في: العزَّة، والسيادة، والشرف؛ إذ إنّ «**الدعي ابن الدعي**» الذي «**ركز بين اثنتين، بين السلّة والذلّة**»، واجهته صيحات: «**هيهات منّا الذلة، يأبى الله ذلك ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت وطهرت، وأُنوف حميّة، ونفوس أبيّة، من أن تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام**»[٤٢].

إنّ «**الدعي ابن الدعي**» ـ في امتداداته التاريخية لما بعد يزيد ـ هو كلُّ ظالمٍ، معتدٍ، أفّاك أثيم، يعمل في الأُمة بالظلم، ولا يرعى لها حقوقها التي جعلها الله تعالى لها. وهذه هي أوصافه حسب التعبير الحسيني الرائع: «**مَن رأى سلطاناً جائراً، مستحلاً لحُرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنّة رسول الله ﷺ، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يُغيِّر عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله**»[٤٣].

خصوصية الإمام الحسين عليه السلام

السؤال الذي يطرح نفسه دائماً هو: ما هو السرالذي جعل المستبدّين يهرعون إلى محاربة الإمام الحسين عليه السلام ومشروعه المبارك؟ أثمَّة أمر جعل له هذه الخصوصية من بين سائر الأئمة عليهم السلام؟ فما هو السرُّ في ذلك؟

يمكن تعليل ذلك إجمالاً بما يلي:

١- نقرأ في وصيته عليه السلام إلى أخيه محمد بن الحنفية: «... **وإنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً، ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمَّة جدّي ﷺ، أُريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدّي وأبي عليِّ بن أبي طالب عليهم السلام...**»[٤٤].

وهذا ما يبرر سرَّ التكالب الطاغوتي على الحسين عليه السلام؛ لأنَّه قد بيّن العلاقة بين أبيه عليه السلام وجدّه ﷺ.

٢- ارتبط اسمه الشريف بالخروج على بني أُمية، رمز الغدر والخيانة، والدناءة والوضاعة، المتلبّسين بالدين، الذين كانوا في الحقيقة امتداداً للسقيفة.

إذ إننا لو رجعنا إلى تاريخ صدر الإسلام نرى أنّ هناك شخصين، هما: بلال بن رباح (العبد) وأُمية بن خلف (السيّد)، وهما ينتميان إلى طبقتين وعالمين مختلفين تماماً من حيث القيم الفكرية والأخلاقية؛ وبالتالي في قواعد السلوك، كان لهما نفس الفهم والتصوّر عن الدين الذي جاء به الرسول الأكرم ﷺ، دين تحرُّري إنساني يدعو ـ في جانبه الدنيوي ـ إلى تبني العدالة الاجتماعية، واحترام حقوق الإنسان، والذود عنهما، لكن أحدهما ـ وهو بلال ـ آمن به واتبعه؛ إذ رأى فيه وسيلة للتحرُّر من جهةٍ، ووسيلة للرقي الروحي من جهةٍ ثانية، أمّا الآخر ـ وهو أُمية بن خلف ـ فقد رفضه، وبقي متمسكاً بشركه؛ لكيلا تهتز مكانته الاجتماعية، ويبقى بالتالي محافظاً على امتيازاته التي وفّرتها له اللات والعزى ومناة الثالثة الأُخرى. أمَّا الرقي الروحي، فليس هو آخر ما يفكر فيه أُمية، بل إنَّه

لا يفكِّر فيه أصلاً، إنَّه غائب عن تفكيره إطلاقاً. وهذا أساس التفكير الدهري الذي ندّد به القرآن الكريم أكثر من مرَّة: ﴿**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ**﴾[٤٥]، وقوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ**﴾[٤٦].

فالحسين عليه السلام أراد أن يسلب الشرعية عن هذه الدولة الظالمة التي عملت على تحريف دين الله تعالى، ومنه نفهم سرَّ تكالب حكّام الجور على الحسين عليه السلام وقضيته المباركة.

وهكذا يكون بنو أُمية قد فهموا الدرس أفضل من أيِّ بطنٍ آخر من قريش، فتأهبوا لمواجهة الدين الجديد، وواجهوه بأقسى وأقصى ما يمكن أن تكون المواجهة.

٣- ارتبط قبره الشريف بإجابة الدعاء، فهو ـ إذاً ـ عَلَمٌ على ما قررناه سابقاً، ممّا جعله محطّ المؤمنين الداعين الراجين، ومهوى أفئدتهم، وهو ما نلاحظه في الأعداد المليونية التي تسير مشياً وزحفاً، قاصدةً قبره الشريف، تستوحي منه قيم البطولة والفداء، وتستلهم منه مبادئ الرفض لكل ظالم، فغدا ذلك عَلَماً على مذهب أهل البيت عليهم السلام، وهذا من مصاديق ما قاله النبي إبراهيم عليه السلام في دعائه لله تعالى: ﴿**فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ**﴾، فالحسين عليه السلام ممّن تهوي إليه أفئدة المؤمنين.

٤- تركيز النبي صلى الله عليه وآله والأئمة من بعده عليهم السلام على ربط الأُمة بشخص الإمام الحسين عليه السلام، على اعتبار أنّ ربط الناس بشخص يجسّد قيمة كبيرة أفضل وأوقع في النفس من ربطهم بفكرة مجرّدة. وهو نفس المنطق القرآني؛ إذ إنّ المولى تبارك وتعالى لم يتركنا نغرق في القيم المطلقة المجرّدة عن تلبّسات الواقع اليومي للناس، بل ربطها بمن جسّدها أفضل تجسيد، فقيم الخير، الحق، العدالة، العبادة، الصلاح، التقوى... دائماً تتمثّل لنا قرآنياً من خلال الأنبياء والصلحاء والأولياء، وفي المقابل نرى قيم الشرِّ والفساد والتمرُّد تتمثّل لنا دائماً من خلال الشيطان وأتباعه وأعوانه من فرعون ونمرود وأبي لهب ومَن كان على شاكلتهم، كأبي سفيان ومعاوية ويزيد وأعوانهم والراضين بفعلتهم والمدافعين عنهم.

فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث طويل قوله: «... **ألَا ولعن الله قتلة الحسين، ومحبّيهم وناصريهم، والساكتين عن لعنهم من غير تقية تسكتهم. ألَا وصلّى الله على الباكين على الحسين بن علي عليهما السلام رحمة وشفقة، واللاعنين لأعدائهم والممتلئين عليهم غيظاً وحنقاً. ألَا وإنّ الراضين بقتل**

الحسين عليه السلام شركاء قَتَلَته. ألَا وإنّ قَتَلَته وأعوانهم وأشياعهم والمقتدين بهم براء من دين الله. ألَا إنّ الله ليأمر الملائكة المقرّبين أن يتلقوا دموعهم المصبوبة لقتل الحسين عليه السلام إلى الخزان في الجنان، فيمزجونها بماء الحَيَوان، فيزيد في عذوبتها وطيبها ألف ضعفها. وإنّ الملائكة ليتلقون دموع الفرحين الضاحكين لقتل الحسين عليه السلام ويلقونها في الهاوية، ويمزجونها بحميمها وصديدها وغساقها وغسلينها، فتزيد في شدّة حرارتها وعظيم عذابها ألف ضعفها، يُشدد بها على المنقولين إليها من أعداء آل محمد عذابهم»[٤٧].

كما أنّ الله تعالى جعل مرقد الإمام الحسين عليه السلام أحد مواطن التخيير الأربعة، فقد روى ثقة الإسلام الكليني رحمه الله بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**تتم الصلاة في أربعة مواطن: في المسجد الحرام، ومسجد الرسول صلى الله عليه وآله، ومسجد الكوفة، وحرم الحسين صلوات الله عليه**»[٤٨]. وهذا ما يجعلنا نستشعر أنّ الإنسان الموالي عندما يزور الإمام الحسين عليه السلام يشعر وكأنّه حاضر بين أهله، وهو نفس المعنى الذي نستشعره من قول الزائر وهو يغادره: «**السلام عليك يا مولاي سلام مُوَدِّع لا قالٍ ولا سئم، فإن أنصرف فلا عن ملالة، وإنْ أُقم فلا عن سوء ظنٍّ بما وعد الله الصابرين**»[٤٩].

هذا ويبقى اسم الحسين عليه السلام يثير مكامن التوجّع في قلوب المؤمنين! فالمؤمنون بالمشروع الحسيني يتوجّعون عندما يتذكّرون مقتل سيّدهم بتلك الطريقة البربرية الوحشية. وأمَّا الذين يخافون من المشروع الإلهي للحسين عليه السلام فإنّهم يتوجّسون خيفة من مجرد ذكر اسمه، فاسم الحسين عليه السلام يقضّ مضاجع الظالمين، ويزلزل عروشهم فيسقطها، فإذا هي خراب ودمار. إنّ الثوار الأحرار من جهة، والطغاة المستبدين من جهة أُخرى، هم الوحيدون الذين يفهمون ماذا يعني اسم الحسين عليه السلام.

الهوامش:

[١] الأنفال: آية ٣٠.
[٢] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٢٨، ص٥٧.
[٣] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٤، ص٢٨٢.
[٤] ابن قولويه، جعفر بن محمد، كامل الزيارات: ص٢٠١.
[٥] المصدر السابق: ص٢٠٨.

[٦] المصدر السابق: ص٢١٠ـ٢١١.
[٧] الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج١٢، ص٢١.
[٨] الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله، المستدرك على الصحيحين: ج٣، ص١٩٤. قال الحاكم: «**هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يُخرجاه**».
[٩] الصدوق، محمد بن علي، مَن لا يحضره الفقيه: ج١، ص١٨٣.
[١٠] الطوسي، محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام: ج٦، ص٣٥ـ٣٦.
[١١] أُنظر: ابن قولويه، جعفر بن محمد، كامل الزيارات: ص٤٨٠.
[١٢] الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج١٤، ص٥٠١.
[١٣] ابن قولويه، جعفر بن محمد، كامل الزيارات: ص٢٠١.
[١٤] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج١، ص١٩٩.
[١٥] الجويني، محمد صالح، تاريخ المأتم الحسيني من الشهادة وحتى العصر القاجاري، جدل ومواقف في الشعائر الحسينية، سلسلة كتاب نصوص معاصرة: ص ١٩.
[١٦] أُنظر: المالكي، حسن فرحان، مراسيم معاوية الأربعة وأثرها في الحديث والعقائد: ص٢ـ ٦.
[١٧] البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري: ج١، ص١٢١.
[١٨] المصدر السابق.
[١٩] الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله، المستدرك على الصحيحين: ج١، ص٦٣٦. وقال: «**هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يُخرجاه**».
[٢٠] اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي: ج٢، ص٢٦١. وأُنظر: الأندلسي، أحمد بن محمد، العقد الفريد: ج٥، ص١٦١.
[٢١] ابن أبي الحديد المعتزلي، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج٤، ص٧٩.
[٢٢] الأحزاب: آية٥٦.
[٢٣] الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف: ج٣، ص٥٦٨.
[٢٤] ابن تيميَّة، أحمد، منهاج السنّة النبوية: ج٤: ص١٥٤. أقول: لماذا البحث في تميز السنّي عن (الرافضي)؟ ألا يتسع دين الله لما يوحِّد بينهما ويجمعهما؟!
[٢٥] ذكرها ابن أبي الحديد المعتزلي في شرحه للنهج: ج٥، ص٧٢، نقلاً عن الزبير بن بكَّار في الموفقيات.
[٢٦] الذهبي، شمس الدين، سير أعلام النبلاء: ج١٥، ص٢٤٣. أقول: (عُرية): تصغير عروة.
[٢٧] النووي، يحيى بن شرف، شرح صحيح مسلم: ج١١، ص٩٠. أُنظر: القاضي، أبو الفضل عيّاض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ج٢، ص١٩٤.
[٢٨] الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله، المستدرك على الصحيحين: ج٤، ص٤٨٧. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يُخرجاه.
[٢٩] أُنظر بخصوص ذلك: أبو الفرج الإصفهاني، علي بن الحسين، مقاتل الطالبيين.
[٣٠] أُنظر: أبو الفرج الإصفهاني، علي بن الحسين، مقاتل الطالبيين: ص٣٩٥. وأيضاً: ابن الأثير، علي بن أبي

الكرم، الكامل في التاريخ: ج٧، ص٥٥.

[٣١] الخوارزمي، أحمد بن محمد، مقتل الحسين عليه السلام: ج٢، ص٦٠ـ٦١.

[٣٢] النيسابوري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم: ج٣، ص١٥١. قال ابن حجر العسقلاني: «**وقال بعض أهل العلم: قوله صلى الله عليه وآله في صحيح مسلم: لئن عشت إلى قابل لأصومن التاسع، يحتمل أمرين: أحدهما: إنّه أراد نقل العاشر إلى التاسع، والثاني: أراد أن يضيفه إليه في الصوم، فلمّا توفِّي صلى الله عليه وآله قبل بيان ذلك كان الاحتياط صوم اليومين؛ وعلى هذا فصيام عاشوراء على ثلاث مراتب: أدناها أن يُصام وحده، وفوقه أن يُصام التاسع معه، وفوقه أن يُصام التاسع والحادي عشر**». العسقلاني، ابن حجر، فتح الباري: ج٤، ص٢١٣.

[٣٣] البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري: ج٢، ص٢٥١.

[٣٤] النيسابوري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم: ج٣، ص١٥٠.

[٣٥] الصدوق، محمد بن علي، الأمالي: ص١٨٩ ـ ١٩٠.

[٣٦] الأنفال: آية ٣٠.

[٣٧] فاطر: الآية ١٠.

[٣٨] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٢٨، ص٥٧.

[٣٩] الحج: آية ٣٢.

[٤٠] الأنفال: آية ٢٤.

[٤١] لقمان: آية ١٩.

[٤٢] أُنظر: ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف على قتلى الطفوف: ص٥٩.

[٤٣] أبو مخنف، لوط بن يحيى، مقتل الحسين عليه السلام: ص٨٥.

[٤٤] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٤، ص٣٢٩. وهو نفس المنطق الذي نجده عند أمير المؤمنين عليه السلام في الرد على شرط عبد الرحمن بن عوف: «**أمَّا كتاب الله وسنّة نبيّه فنعم، وأمَّا سيرة الشيخين فلا**». أُنظر: الشهرستاني، علي، وضوء النبي صلى الله عليه وآله: ج٢، ص١٩٠.

[٤٥] الجاثية: آية ٢٤.

[٤٦] الأنعام: آية ٢٩.

[٤٧] إبراهيم: آية ٣٧.

[٤٨] التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام: ص٣٦٩ـ٣٧٠.

[٤٩] الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج٤، ص٥٨٦.

[٥٠] المشهدي، محمد بن جعفر، المزار: ص٤٢٦.

الشيخ صباح عبّاس الساعدي
باحث اسلامي / حوزة النجف الأشرف

نشأة المراسم الحسينيّة في كتاب (تراجيديا كربلاء).. نقدٌ وتحليل

مقدّمة

شغلت مراسم العزاء الحسيني ـ المعبّرة عن الحزن والأسى على ما أصاب الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته في واقعة الطف الدامية ـ مساحة واسعة من فكر العلماء والباحثين في شتّى المجالات والتخصّصات، وفي عصور وأماكن جغرافية مختلفة، وقد كُتب في هذا الموضوع كثير من الكتب والبحوث والدراسات وغيرها ـ سلباً وإيجاباً، ونفياً وإثباتاً، ورفضاً وتأييداً ـ وقد وضُع بعض هذه المؤلّفات على طاولة النقد والتحليل؛ لكونه غير مراعٍ للضوابط العلمية، أو مجانباً لطريق الاعتدال في تحقيقه لمفردة من المفردات المرتبطة بمراسم عزاء واقعة الطف.

ومن بين المؤلّفات التي أُرشف لها في المكتبة الحسينية هو ما كتبه عالم الاجتماع الدكتور إبراهيم الحيدري[1] في أُطروحته التي تقدَّم بها لنيل شهادة الدكتوراه من جامعة برلين عام (١٩٧٥م) والموسومة بـ (تراجيديا كربلاء.. سوسيولوجيا الخطاب الشيعي)؛ هادفاً من ذلك إعطاء رؤية متكاملة عن الموروث الشعبي الذي ورثه المجتمع الشيعي في العراق، ومدى تفاعله مع تلك المراسم الحسينية، وكيفية تطورها في هذا المجتمع المقهور من قبل الحكام والسلطات، المنكوب بالأزمات التي ألمّت به على مرّ العصور والدهور.

يحظى كتاب (تراجيديا كربلاء) بقبول ورواج واسعين في الأوساط الأكاديمية؛ إذ اعتُبر نُقلةً نوعية وخطوة جريئة في مجالها، قدّم المؤلّف من خلالها دراسة نقدية موضوعية لظاهرة غاية في الخطورة والحساسية، وقد شغل اهتمام بعض الباحثين والكتّاب والقنوات الفضائية[٢]، والمواقع الإلكترونية، وبرامج التواصل الاجتماعي، وكذا الصحف والنشريات العربية والإسلامية[٣]، كما كُتبت فيه بعض القراءات الترويجية للأفكار التي يحتوي عليها[٤]، وقد تُرجم إلى اللغة الفارسية، وأثنى عليه بعض المفكرين الإسلاميين وغيرهم[٥].

وقد يتراءى للوهلة الأُولى ـ عند قراءة المقدمة التي سطرها المؤلّف بطريقته المعاصرة وأُسلوبه المنمّق ـ أنّ المؤلّف قد اتبع في كتابه الطرق العلمية المرسومة في مجال التأليف والكتابة، والتزم الحيادية والإنصاف في تقييمه للظواهر الاجتماعية التي شاهدها خلال تتبعه لها؛ إذ إنه قطع عهداً على نفسه أن لا ينحاز إلى خطاب على حساب الآخر، مبيناً ذلك بقوله: «**إنّ هدفنا من ذلك ليس المفاضلة بين خطاب وآخر، ولا الدفاع عن أحدهما ضد الآخر، فأنا لست داعية من الدعاة بقدر ما أنا باحث اجتماعي، أحاول دراسة ظاهرة دينية ذات محتوى اجتماعي سياسي، وهي في الوقت ذاته ظاهرة فولكلورية شعبية ترتبط بالتراث العربي الإسلامي، وأترك المفاضلة لعلماء الفقه والتاريخ...**»[٦].

إلا أننا حينما وقع الكتاب بين أيدينا وطالعنا مقدمته وبعض صفحاته ومباحثه لم نكد نصدق ما تراه أعيننا؛ إذ لا يتطابق محتواه مع مدّعياته التي سجّلها في مقدّمته من الالتزام باتباع الطرق السليمة، واعتماد الدراسات العلمية الموثوقة؛ لأجل إعطاء صورة واضحة عن الظاهرة الاجتماعية لدى شيعة العراق، فأخذنا على أنفسنا أن نقف على بعض نقاط الخلل في هذا الكتاب، وما وقع فيه مؤلّفه من مخالفات للمنهج العلمي المنشود، وذلك من خلال محطات مهمة بما يسعنا من مجال.

لقد انتهت بنا المطالعة الدقيقة للكتاب الآنف الذكر إلى تسجيل كمٍّ هائل من المؤاخذات العلمية غير المبرّرة؛ إذ إنّه نتيجة لعدم إحاطته وإلمامه بالجوانب المهمة والمتشعبة للمراسم الحسينية، رسم لها صورة مشوّهة يشمئز من النظر إليها كلّ مَن ينتمي إلى هذا الموروث الديني المتجذّر والمتأصّل في مستنده وأدلته المحكمة، فضلاً عن غيرهم من الطوائف والأقوام الأُخرى، بل قد تُحدث لهم

ردة فعل عنيفة تجاه هذا الفلكلور المخجل الذي لم يكن سوى عادات تقليدية درج عليها صغار الشيعة وشاب عليها كبارهم.

ستكون قراءتنا لهذا الكتاب وتسجيل المؤاخذات عليه مقتصراً على موضوع المراسم الحسينية فقط، متسلسلاً في ذلك على أساس الفصول التي رسمها المؤلّف في خطة بحثه:

أولاً:

عدم الدقّة في تحديده لنشوء المراسم الحسينيّة

تطرّق الكاتب في أول فصول كتابه إلى تاريخ نشوء مراسم العزاء الحسيني، فذكر لقرّائه أنّ: «**أقدم ما بين أيدينا من مؤشرات تاريخية تعود إلى ذلك النوع من الاحتفالات الشعائرية الرمزية التي قام بها التوّابون في القرن السابع الميلادي حين قاموا بأول حركة مقاومة ضدَّ الحكم الأُموي للأخذ بثارات الحسين...**»[٧].

وقال أيضاً: «**وتُجمع كتب الحديث على أن الشيعة الأوائل كانوا يجتمعون في شهر محرم من كل عام في بيت من بيوت الأئمّة من أهل البيت... فيقيمون النياحة. غير أن هذا لم يكن في القرن الأول ولا في القرن الثاني للهجرة؛ لأن اسم النائح الذي رثى الحسين بشعر ملحَّن كان قد ظهر ولأول مرة في القرن الثالث للهجرة... وقد ذكر ياقوت الحموي وابن خلكان في وفياته بأن الشاعر المعروف بالناشئ الأصغر كان يعقد مجالس النياحة على الحسين بعد أن انتشر التشيّع، وخفَّت وطأة السلطات الحاكمة على العلويين**»[٨].

دلالات هذا المدّعى

يحتوي هذا الكلام الذي تفوّه به المؤلّف على تشويه صريح وواضح للمراسم الحسينية؛ إذ يستبطن مجموعة من المداليل الخطيرة:

أ ـ يُستفاد من كلامه المتقدم أن مراسم العزاء إنما أُعدّت وهُيِّئ لها من قِبل جمع من المسلمين الذين لا يُعتبر فعلهم هذا دليلاً على جواز المراسم أو استحبابها إطلاقاً؛ إذ لم يستمد فعلهم هذا شرعيته عن طريق الأدلّة المعروفة في الفقه الإسلامي.

ب ـ يستفاد من كلامه ـ أيضاً ـ أنه لا علاقة لأهل البيت عليهم السلام في تكوُّن هذه المراسم ونشوئها لا من قريب ولا من بعيد، بل لعلهم عليهم السلام لم يكونوا على علم أو دراية بما قام به التوّابون من نياحة وعزاء حول قبر الإمام

الحسين عليه السلام.

ج ـ بناءً على كلامه هذا؛ لا يمكننا معرفة موقف الأئمّة عليهم السلام من مراسم العزاء التي أقامها التوّابون في تلك الحقبة الزمنية؛ إذ لم يكونوا حاضرين وقتئذٍ لكي يُستدل بقولهم أو فعلهم أو تقريرهم.

نعم، ما ذكره في المقطع الأخير من اجتماع الشيعة في بيوت الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام، قد ينفعنا للاستدلال على مشروعيتها، لكنه لم يصرّح هل كانت تلك المجالس بحضورهم عليهم السلام وتحت إشرافهم أو لا؟ فتبقى شرعية تلك المآتم غير ثابتة إذا بقينا نحن وهذه النصوص التي ذكرها آنفاً.

وعلى هذا الأساس؛ يستنتج القارئ لهذا النص ـ الذي اعتبره المؤلّف أقدم الوثائق التاريخية ـ أن المراسم العزائية لم تستمد شرعية نشوئها من دليل معتبر عند المسلمين قاطبة؛ إذ لم يأمر الأئمّة المعصومون عليهم السلام بإقامتها، كما أنهم لم يساهموا في ذلك بفعل، ولا وصلنا تقرير منهم بشأن الفعل الصادر عن أُولئك المجتمعين حول قبر الحسين عليه السلام.

التقييم العلمي لهذا القول

إذا أردنا أن نحسن الظن بهذا الكاتب الفذ، ولم نحمله على التعمُّد في تزييف الحقائق ونقلها بصورة ناقصة إلى قرائه، فلا يمكننا إلّا أن نقول: إنّ المؤلّف لم يكن مطلعاً على تلك النصوص والوثائق الكثيرة التي تدلل على إقامة العزاء والحث عليه من قبل المعصومين عليهم السلام، والتي وردت في الكتب المعتبرة لدى المسلمين، وهذا ما سنثبته من خلال النقاط التالية:

النقطة الأُولى: حقيقة العزاء والمراسم الحسينيّة

لعل الكاتب غير مطّلع على المعيار والضابطة في اعتبار العزاء والمأتم الحسيني، وإلّا فماذا يسمّي المآتم التي أُقيمت قبل وبعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام من قبل الأئمّة المعصومين الذين أضفوا مشروعية صريحة على إقامة مراسم العزاء الحسيني؛ إذ لدينا وفرة كثيرة من النصوص الصريحة على ذلك، مما لا يمكن عدُّه وإحصاؤه؟! وسؤالنا الذي نوجهه للكاتب وأمثاله هو: هل تعدُّ المآتم التي أقامها النبي صلى الله عليه وآله من حين ولادة الإمام الحسين عليه السلام وفي مواطن متعددة[٩] من مراسم العزاء أو لا؟! وهل تعدُّ المآتم التي أقامها أهل البيت عليهم السلام بحضور أكبر تجمّع في الكوفة والشام ـ

وبمباشرة من الإمام زين العابدين عليه السلام أو بإشرافه ورعايته[١٠] ـ مراسم عزاء على مصيبة الإمام الحسين أو لا؟! فعن أيّ مناسبة أليمة تكلّم الإمام عليه السلام وعمته زينب عليها السلام حتّى جعلا الناس يضجّون بالبكاء والنحيب؟

فقد نقل لنا ابن أعثم الكوفي قول السيّدة زينب عليها السلام حين خطبت في مجلس ابن زياد: «... **أيّ كبد لرسول الله صلى الله عليه وآله فريتم؟! وأيّ دم له سفكتم؟! وأيّ حريم له ورثتم؟! وأيّ حرمة له انتهكتم؟! ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾[١١]، لقد جئتم بها خرقاء شوهاء طلاع الأرض، أفعجبتم أن أُمطرت السماء دماً؟! ولعذاب الآخرة أخزى، وأنتم لا تُنصرون. فلا يستخفّنكم المهل ولا يحقره البدار، ولا يخاف عليه فوت الثأر، كلا! إنّ ربّك لبالمرصاد**». قال خزيمة: «**فو الله! لقد رأيت الناس يومئذ حيارى قد ردوا أيديهم في أفواههم...**»[١٢].

وقد كان الإمام السجاد عليه السلام وقتئذٍ حاضراً في ذلك المجلس يستمع إلى كلام عمته زينب عليها السلام وهي تبيّن مصاب الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، مستحسناً أداءها لمهمتها التي أُنيطت بها.

ثم قام هو عليه السلام بدوره الإصلاحي التوعوي عن طريق المراسم التأبينية للإمام الحسين عليه السلام، فتولّى زمام هذه المهمة في مجلس يزيد بن معاوية في الشام حين قام خطيباً في الناس بعد أن قال: «**يا يزيد، أتأذن لي أن أصعد هذه الأعواد فأتكلم بكلام فيه رضا الله ورضا هؤلاء الجلساء وأجر وثواب؟... حتّى صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم خطب خطبة أبكى منها العيون وأوجل منها القلوب، ثم قال: أيها الناس، مَن عرفني فقد عرفني، ومَن لم يعرفني أنبأته بحسبي ونسبي، أيها الناس، أنا ابن مكّة ومنى وزمزم والصفا... فلم يزل يعيد ذلك حتّى ضجّ الناس بالبكاء والنحيب...**

وخشي يزيد أن تكون فتنة، فأمر المؤذن فقال: اقطع عنّا هذا الكلام... فلما قال المؤذّن: أشهد أن محمداً رسول الله، التفت علي بن الحسين من فوق المنبر إلى يزيد فقال: محمد هذا جدّي أم جدّك؟! فإن زعمت أنه جدّك فقد كذبت وكفرت، وإن زعمت أنه جدّي فلم قتلت عترته؟!»[١٣].

وبعد رجوعه إلى المدينة أقام العزاء على الإمام الحسين عليه السلام قبل أن يدخل مدينة جدّه عليهما السلام؛ حين اجتمع إليه الناس في أطراف

المدينة المنورة، فقام خطيباً فيهم وقال: «... **أيّها القوم، إنّ الله ـ وله الحمد ـ ابتلانا بمصائب جليلة وثلمة في الإسلام عظيمة، قتل أبو عبد الله الحسين عليه السلام وعترته، وسُبي نساؤه وصبيته، وداروا برأسه في البلدان من فوق عامل السنان، وهذه الرزية التي لا مثلها رزية...**»[١٤].

ومن حينها أخذ الإمام زين العابدين عليه السلام بتعبئة شيعته وأتباعه وحثهم على إحياء مصيبة الإمام الحسين عليه السلام، كما يروي لنا الإمام الباقر عليه السلام حديثاً يقول فيه: «**كان علي بن الحسين عليهما السلام يقول: أيّما مؤمن دمعت عيناه لقتل الحسين بن علي عليهما السلام دمعة حتّى تسيل على خدّه، بوّأه الله بها في الجنة غرفاً يسكنها أحقاباً، وأيّما مؤمن دمعت عيناه حتّى تسيل على خدّه فينا، لأذىً مسَّنا من عدونا في الدنيا، بوّأه الله بها في الجنة مبوأ صدق، وأيّما مؤمن مسَّه أذىً فينا، فدمعت عيناه حتّى تسيل على خده من مضاضة ما أوذي فينا، صرف الله عن وجهه الأذى، وآمنه يوم القيامة من سخطه والنار...**»[١٥].

كما أنه عليه السلام ساهم في إقامة العزاء الذي تقيمه النساء من بني هاشم في مدينة جدّه صلى الله عليه وآله؛ فقد نقل البرقي رواية في هذا المضمار تقول: «**لما قُتل الحسين بن علي عليهما السلام لبسن نساء بني هاشم السواد والمسوح، وكنَّ لا يشتكين من حر ولا برد، وكان علي بن الحسين عليهما السلام يعمل لهن الطعام للمأتم**»[١٦].

وإعداده عليه السلام للطعام الذي يعطى للحضار في المأتم الحسيني إنما يُعدّ إضفاءً للشرعية على ذلك.

ولست أدري لماذا تجاهل الكاتب هذه النصوص وأمثالها مع أنها تتماشى مع التنظير العلمي والاجتماعي، من كون أصحاب المصيبة وذوي الفقيد أجدر بالتفاعل مع مصيبتهم، وأوْلى من سائر الناس؟!

النقطة الثانية: عدم موافقة رأيه للمكانة الاجتماعية التي يحتلها أهل البيت عليهم السلام

على فرض عدم عثورنا على أيّ نصّ تاريخي حول إقامة الإمام السجاد عليه السلام وأهل بيته مراسم العزاء على مصيبة أبي عبد الله الحسين عليه السلام، فهل من الممكن أن نتصور مرور هذه الفاجعة الأليمة على أهل بيته وذويه من دون الجلوس لاستقبال المعزّين؟!

ولك أن تتصور عزيزي القارئ كيفية تعاطي أهل البيت عليهم السلام مع نبأ استشهاد الإمام

الحسين عليه السلام بعد أن عايشه معظمهم، ورأوا مشاهد المأساة المفجعة بأُمّ أعينهم، ومع ذلك حين انتهت تلك الفاجعة الأليمة طووا صفحة جديدة، وتركوا عميدهم وإمامهم يُقتل بتلك الطريقة المأساوية، ومن دون أيِّ أصداء لرثائه وتأبينه، فأيُّ عذر سوَّغ لهم ارتكاب تلك المخالفة الواضحة لما عليه الشرع والعرف من الحثِّ على جلوس ذوي الفقيد وأهل بيته لاستقبال المعزّين والبكاء على فقد عزيزهم[17]؟! وكيف سمح عالم الاجتماع إبراهيم الحيدري لنفسه أن يتصور مرور مصيبة الحسين عليه السلام المفجعة لقلوب البعداء قبل مقرَّبيه من دون أن تذرف عين أحد منهم عليه، أو يعلنوا الحداد على ذلك؟! حتّى يأتي التوّابون فيقيموا العزاء على الإمام المظلوم، لا لشيء نابع من الأعماق، سوى أنهم أرادوا تهييج مشاعر الناس وتأليبهم على الحكم الأُموي.

مع أنّ الأئمّة عليهم السلام وفي أحلك الظروف وأخطرها عليهم وعلى شيعتهم، أقاموا مآتم العزاء على الإمام الحسين عليه السلام، وعلَّموا شيعتهم كيفية التعاطي مع الأزمة الراهنة آنذاك، فقد علّم الإمام الباقر أصحابه ـ الذين لا يتمكنون من أداء مراسم العزاء والزيارة في يوم عاشوراء حضورياً عند قبر الإمام الحسين عليه السلام ـ بقوله: «... **إذا كان ذلك اليوم برز إلى الصحراء، أو صعد سطحاً مرتفعاً في داره، وأومأ إليه بالسلام، واجتهد على قاتله بالدعاء، وصلّى بعده ركعتين، يفعل ذلك في صدر النهار قبل الزوال، ثم لينـدب الحسين عليه السلام ويبكيه، ويأمر مَن في داره بالبكاء عليه، ويُقيم في داره مصيبته بإظهار الجزع عليه، ويتلاقون بالبكاء بعضهم بعضاً بمصاب الحسين...**»[18].

ومن المؤكّد أنّ هذه الطريقة وهذه الآلية قد عمل بها الإمام الباقر عليه السلام حفيد الإمام الحسين عليه السلام، والذي شاهد المصائب بعينه، فهو الأحرى والأجدر بتطبيق تلك الطريقة قبل تعليمها، وهي طريقة نافعة للحفاظ على تلك المراسم العزائية في ذاكرة أجيال المحبين والشيعة وذراريهم، فتوكل هذه المهمة إلى ربّ الأسرة والقائم عليها، حتّى في الأيام الحرجة التي يمنع فيها الحكّام والسلاطين من إقامة العزاء؛ فلو فرضنا ـ جدلاً ـ أن المؤلّف يعتقد بأنّ المراسم العلنية لم يُسمَح بها لأهل بيت الحسين عليه السلام وذويه، ولم تكن من الأهمية بمكان بحيث يجازفون من أجلها.. فلا أقل من القول بوجود مراسم العزاء بالطريقة السرية.

وبعد هذا كلّه، للقارئ الكريم أن يحكم في

مسألة نشوء المراسم الحسينية، ومن هو واضع بذرتها الأُولى، فهل هم أهل البيت النبوي تبعاً لجدّهم المصطفى صلى الله عليه وآله، أو أنّ التوّابين والمختار هم مَن أقاموا العزاء، كما توهمه الحيدري؟

ثانياً: اختزاله أهداف مراسم العزاء بالهدف السياسي

بما أن اعتقاد الكاتب ورؤيته بُنيت على أن المؤسّس لهذه المراسم العزائية هم التوّابون الذين ثاروا على الحاكم الأُموي وقتئذٍ، فقد رتّب على رأيه هذا أنّ الهدف المنشود بالدرجة الأساسية من هذه الاحتفالات سياسيٌّ، يراد منه تحريك المسلمين، وشحذ هممهم، وتحريضهم على محاربة الحكومة الأُموية ليس إلا، فقال: «**لقد كان الهدف الأساسي من هذه الاحتفالات هو تحريك المسلمين وشحذ هممهم وتحريضهم لمحاربة الأُمويين، ودفعهم للأخذ بالثأر من قاتلي الحسين**»[١٩].

لم يبيّن المؤلّف ما هي الأهداف غير الرئيسة التي دفعت بالتوابين لإقامة العزاء عند قبر الإمام الحسين عليه السلام، ولعل جلد الذات ومعاقبتها[٢٠] ـ الذي يعتبره أحد أسباب إقامة العزاء لدى الشيعة ـ هو الذي جعل التوابين يقيمون هذه المراسم الحزينة على قبر الحسين عليه السلام.

التقييم العلمي لهذا الكلام

تأسيساً على ما تبنّاه الكاتب من تحديد خاطئ لتاريخ المراسم الحسينية ونشوئها، نراه حصر أهداف المراسم العزائية بهذه الزاوية الضيقة؛ إذ لم يتمكّن الحيدري أن يجد مبرراً آخر حمل التوابين على إقامة مأتم حول قبر الإمام الحسين عليه السلام سوى إرادة الهدف السياسي، وهو قلب الأُمور لمصلحتهم عن طريق تهييج مشاعر المحبّين لأهل البيت عليهم السلام وتحريضهم ضد الأُمويين.

مع أن تتبع هذا الموضوع يوصل الباحث إلى البتّ بوجود أهداف عديدة من وراء تلك المآتم العزائية التي أقامها الأئمّة المعصومون عليهم السلام، وحثوا على المواظبة عليها، وقد ذكرنا في بحثنا الموسوم بـ(التوظيف العقدي والديني لمأساة كربلاء في تراث المعصومين عليهم السلام) جملة من الأهداف والنتائج التي حققها أهل البيت عليهم السلام عن طريق التذكير بمأساة واقعة الطف[٢١]، وكلّما طال بنا الزمن ندرك أهدافاً أرادها أهل البيت عليهم السلام لم نكن قد وقفنا عليها من قبل، ولا نريد أن نثقل على قرائنا الكرام بذكر جميع ما

سُجّل من أهداف لتلك المراسم المقدّسة، وإنما نكتفي بالنقاط التالية:

أ .تخليد ذكرى الإمام الحسين عليه السلام ومشروعه الإصلاحي

ويعتبر هذا الهدف من أبرز الأهداف الإلهية المتبعة في القرآن الكريم، حيث إن كمّاً هائلاً من الآيات القرآنية قد سلطت الضوء على جهود ومعاناة الأولياء والأنبياء والرسل، فقد ورد في الآيات الكريمة ما لا يحصى عدده[٢٢]، بل إن الروايات الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله في هذا الصدد كثيرة أيضاً[٢٣].

ومن هذا المنطلق، نجد التركيز على هذا الجانب ـ فيما ورد من ذكر وثناء على الإيثار والتضحيات والبطولات التي قدّمها الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه في يوم عاشوراء ـ من خلال الزيارات التي شكّلت جزءاً كبيراً من مراسم إحياء ذكرى أبي عبد الله عليه السلام، المرتبطة بشهداء واقعة الطف، والتي علّمها الأئمّة عليهم السلام لأتباعهم، أو خاطبوا بها الإمام الحسين عليه السلام بشكل مباشر، حيث جاء معظمها للتأكيد على تضحية الإمام وأهل بيته وأصحابه، وبيان معالم مشروعه الإصلاحي؛ ليبقى خالداً في ذاكرة الأجيال على مرّ العصور. فقد شُهِدَ للإمام عليه السلام بكلمات ذات مضامين عالية ـ وفي نصوص يصعب إحصاؤها ـ من ضمنها: «... **أشهد أنك قد أقمت الصلاة، وآتيت الزكاة، وأمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر، ودعوت إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة**»[٢٤]. كما لقب أصحابه بـ «**أنصار دين الله...**»، وخوطبوا أيضاً: «**طبتم وطابت الأرض التي فيها دفنتم، وفزتم فوزاً عظيماً، فيا ليتني كنت معكم فأفوز معكم...**»[٢٥]. والعبارات الدالة على هذا المعنى كثيرة جداً لا تحصى في بحث أو مقال مختصر.

ب .ترسيخ المبادئ التي استشهد الإمام عليه السلام من أجلها في ذاكرة الأجيال

لقد نهض الإمام الحسين عليه السلام في مسيرة إصلاحية واضحة المعالم والأهداف، مصرّحاً بمبادئه التي قام من أجلها في مواطن متعددة[٢٦]؛ ضماناً لسلامتها من التحريف المتعمد من قبل أعدائه. وقد دأب الأئمّة المعصومون عليهم السلام من بعده على ترسيخ هذه المبادئ القويمة في نفوس شيعته ومحبّيه من المسلمين، فاختاروا أنجع الأساليب والطرق التي تجعل من الحسين عليه السلام مثالاً يعيش في نفوس المسلمين عامة، والشيعة بشكل خاص، فأمروا

النـاس بالتواصـل الروحـي مـع الحسـين عليه السلام ونهضـته المباركـة عـن طريـق الاجتمـاع والاستماع إلى حديثه وسيرته العطرة، ويدخل فـي إطـار الأحاديـث الآمـرة بـذلك مـا ورد عـن الإمام الصـادق عليه السلام: «**إن تلك المجالس أُحبّها، فأحيوا أمرنا يا فضيل، فرحم الله مَـن أحـيى أمرنـا**»[٢٧]. وقولـه عليه السلام: «**مَـن ذكرنـا عنـده، ففاضت عيناه ولو مثل جناح الـذباب، غفـر الله ذنوبه، ولو كانت مثل زبد البحر**»[٢٨].

جـ ـ الحفاظ على التلاحم بين شيعة أهل البيت عليهم السلام

يحرص الإسلام على أن يبقى المسلمون متكاتفين متكافلين متحابّين فيما بينهم؛ لكي يـراهم أعـداء اللـه: ﴿صَـفًّا كَـأَنَّهُم بُنْيَـانٌ مَّرْصُوصٌ﴾[٢٩]، ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْـنَهُمْ...﴾[٣٠]. ويـؤدي هـذا الغـرض بعـض الطقوس العبادية التـي تـؤدّى بصـورة جماعيـة، كصلاة الجمعة، والجماعة، والعيدين، وحج بيت اللـه، ومراسـم التشـييع، وإقامـة العـزاء علـى المؤمنين والأولياء، ومن أوضحها مراسم العـزاء علـى الإمـام الحسـين عليه السلام؛ ولـذا يقـول بعـض الأعـلام: «**إن ما يوجب الوحدة بين المسلمين هذه المراسم السياسية، ومراسم العزاء علـى الأئمّة الأطهار عليهم السلام هي التي حفظـت هويـة المسلمين، ولا سيّما الشيعة الإمامية**»[٣١].

وهنا من المناسب أن نـورد عبـارة مختصـرة لبعض أساتذتنا (دامـت بركاتـه) تضـمنت معـاني ومداليل سامية حول أهـداف المراسـم العزائيـة؛ فقال: «**واستكمالاً للحديث السـابق في الـردّ علـى الإشـكال الـذي يقـول: إنّ الشـعائر الحسينيّة شعائر تتضمّن عقدة الذنب، وإيقاع العقوبة على النفس من أجـل الـتكفير عـن الذنب، وأنّها نتيجة الفشل واليأس والتقهقر والانتكاس الذي يعيشه الشيعة، ومرّ علينـا أنّه لا بدّ أن ندرس الشـعائر الحسـينيّة مـن حيـث المضـامين الـتي تنطـوي عليهـا هـذه الشعائر من الفداء والتضحية والإباء والتغيير الإيجابي ورفض الظلم، وتحشيد الطاقات من أجل النهوض بالمعروف والنهي عـن المنكـر والجهـاد، وعـدم الركـون للـدنيا وزخرفهـا وزبرجها، والثبات والصمود والاستبسال.**

إضافة لما للإعلام الحسيني من دور كبير في توضيح معالم الـدين، فـالبرغم مـن أنّـه ينطوي على الحزن والجزع، إلّا أنّه يضـخّ في وجدان الأُمّة وفكرها وروحها أرقى حالات الاستعداد والتفاعل، بل إنّه يعمل على تعبئة النفوس بمفاهيم التضحية والفداء، وهذا ما لا

يتناسب مع الكسل والخمول والفشل والتراجع واليأس والتقهقر كما يطرحه هذا الإشكال. وحالة تعبئة الأُمّة بالحماس، وبحبّ الوطن، حالة متعارفة عند إرادة المقاومة والصمود»[٣٢].

وعلى هذا الأساس؛ فلا يبقى مجال للتبرير والدفاع عن المؤلّف، إذ مع هذه الأهداف التي ذُكرت لمراسم العزاء الحسيني، كيف اقتصر على بيان جزء يسير من الهدف السياسي في حادثة خاصة فقط؟!

ثالثاً: وصفه المراسم الحسينيّة بأنّها سبب في إثارة الفتنة

يصف إبراهيم الحيدري النياحة ومراسم العزاء بقوله: «**وكانت النياحة أحياناً سبباً في إثارة بعض الخلافات المذهبية بين السُّنة والشيعة، وبخاصة في محال بغداد؛ مما سبّب نشوب حرائق في أواخر عام (٣٤٦هـ)... كما أدت تلك الخلافات عام (٣٩٤هـ) إلى تعطيل صلاة الجمعة في جميع مساجد بغداد عدا مسجد براثا**»[٣٣].

وقال في موضع آخر من كتابه: «**وقد أثارت تلك الاحتفالات حفيظة أهل السُّنة؛ لأنهم اعتبروها من البدع المحرمة... ممّا أدى إلى صدامات بين الطرفين، وأخذ كل طرف منهما يبالغ في انحيازه لطائفته**»[٣٤].

التقييم الدقيق لكلامه هذا

لقد عكس لنا الكاتب صورة مقلوبة عن حقائق الأُمور التي حفّت بالمراسم الحسينية بصورة عامة، وزيَّف الحقائق المبنية على أُسس وقواعد متينة، ولعل الكثير من قرّاء الكتاب قد تأثروا به، فأصبحت نظرتهم إلى مراسم العزاء ومَن يقوم بها نظرة ازدراء وحقد؛ لما يترتّب عليها من آثار سلبية؛ إذ أشعلت فتيل الفتنة، وساهمت في نشوب حرب لا هوادة فيها، بقي المجتمع الإسلامي يئن منها إلى هذه اللحظات، حيث الطائفية والتفرقة بين المسلمين وسفك الدماء، وغير ذلك من النتائج السلبية المترتبة على إقامة العزاء على الحسين عليه السلام.

ولو أضاف إلى ذلك بعض الأُمور التي تشبه هذه الطقوس من هذه الحيثية

ــ إذ إنّ كثيراً من العبادات والطقوس كالصلاة، والأدعية المتضمنة لبعض المفاهيم التي يعتبرها المخالفون دالة على الشرك والغلو، بل كل ما يُعتبر من مختصات الفقه الشيعي ـ لأصبح إمكان تجريم وإدانة الشيعة أمراً طبيعياً حينئذٍ.

ولعل رأي المؤلّف ـ على معياره هذا ـ في

الممارسات التبليغية التي قام بها النبي صلى الله عليه وآله بصحبة المسلمين في مكّة المكرمة بداية بعثته صلى الله عليه وآله.. أنها كانت من أهم الأسباب في تفرقة المجتمع المكّي آنذاك، وإثارة الفتنة بينهم؛ إذ إنها أثارت حفيظة المشركين الذين كانوا يعيشون فيما بينهم أجواءً ملؤها السلام!!

وسؤالنا الذي نوجهه للكاتب هنا هو: هل كان القتل وحصول الفتن التي أُثيرت في زمن معاوية، ومَن على شاكلته من الحكام الظلمة[٣٥]، ناتجاً طبيعياً عن الممارسات التي كان يقوم بها أتباع أهل البيت عليهم السلام؟! وهل يسوغ لعالم اجتماع، اطّلع على جميع زوايا هذه الظاهرة الدينية، أن يُعبّر عنها بأنها سبب في إثارة بعض الخلافات؟!

وأقول للكاتب: قديماً قالها الإمام الصادق عليه السلام في رواية معاوية بن وهب حين استأذنه، فأذن له الإمام عليه السلام، فدخل، فوجده في مصلّاه في بيته... فسمعه وهو يناجي ربّه ويقول: «**اللّهم، يا مَن خصّنا بالكرامة، ووعدنا بالشفاعة، وخصّنا بالوصية... اغفر لي ولإخواني، وزوّار قبر أبي عبد الله الحسين، الذين أنفقوا أموالهم، وأشخصوا أبدانهم، رغبةً في برّنا، ورجاءً لما عندك في صلتنا، وسروراً أدخلوه على نبيّك، وإجابةً منهم لأمرنا، وغيظاً أدخلوه على عدونا، أرادوا بذلك رضوانك. فكافهم عنّا بالرضوان... اللهم، إن أعداءنا عابوا عليهم بخروجهم، فلم ينههم ذلك عن الشخوص إلينا خلافاً منهم على مَن خالفنا، فارحم تلك الوجوه التي غيرتها الشمس...**»[٣٦].

فمن خلال قوله عليه السلام: «**غيظاً أدخلوه على عدونا**»، وقوله عليه السلام: «**اللهم، إن أعداءنا عابوا عليهم بخروجهم...**»، نفهم أن مَن يزعجه الحداد وإقامة العزاء على الإمام الحسين عليه السلام إنما يقف في الجبهة المعادية لأهل البيت عليهم السلام، ويصطف في الطابور الظالم لهم؛ وهذا ما أدلت به صريح عبارتي الرواية الواردة عن الإمام الصادق عليه السلام. فكان من اللازم على رجل محايد كالحيدري أن يتتبع مناشئ الحوادث التي وقعت في بغداد وغيرها، والبحث عن الأيادي الخفية التي تطوّعت لتحريك مَن يقف بوجه أتباع أهل البيت عليهم السلام المقيمين لمراسم العزاء وقتئذٍ.

وباستطاعتنا أن نكفيه عن البحث والتتبع، وإرشاده إلى حقيقة هؤلاء الذين أوغلوا في دماء المسالمين لسائر أبناء نوعهم، فضلاً عن بني دينهم وملّتهم؛ إذ إن مَن عارض الشيعة في ذلك الزمان هم مَن وصفهم بعض المؤرّخين

بقوله: «**وقد عاكس الرافضة والشيعة يوم عاشوراء النواصبُ من أهل الشام، فكانوا إلى يوم عاشوراء يطبخون الحبوب، ويغتسلون، ويتطيبون، ويلبسون أفخر ثيابهم، ويتخذون ذلك اليوم عيداً، يصنعون فيه أنواع الأطعمة، ويظهرون السرور والفرح؛ يريدون بذلك عناد الروافض ومعاكستهم**»[٣٧]. وهذا هو الصنف الأول ممن عارض الشيعة في ذلك الزمان من الأعداء لأهل البيت ٦، لا أنّهم أعداء الروافض والمبتدعة على حدّ تعبير بعضهم؛ كما يدلّل عليه ابن كثير بصريح قوله ووصفه لهم بالنواصب، والتي تعني: البغض والعداء لأهل البيت عليهم السلام[٣٨].

وهناك صنف آخر، وهم: المناهضون لأيّ فعل يُعبِّر عن تضامن مع أهل البيت عليهم السلام، لعل الحياء والخجل الانحيازي الآثم منع ابن كثير من تسميتهم بالنواصب، فسماهم أهل السُّنة؛ حين قال في أحداث (٤٢١ هـ): «**وفيها عملت الرافضة بدعتهم الشنعاء، وحادثتهم الصلعاء في يوم عاشوراء، من تعليق المسوح، وتغليق الأسواق، والنوح والبكاء في الأزقة، فأقبل أهل السُّنة إليهم في الحديد، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فقُتل من الفريقين طوائف كثيرة، وجرت بينهم فتن وشرور مستطيرة...**»[٣٩].

فالأفعال والبدع التي استوجبت تجريم الشيعة، واستحقوا بسببها سفك دمائهم هي:

١ـ تعليق المسوح: وهي عبارة عن قماش أسود يتم تعليقه على الجدران والأبواب؛ تعبيراً عن الحداد والحزن[٤٠].

٢ـ غلق الأسواق: فيقوم الروافض المبتدعة ـ على حد تعبير ابن كثير ـ بغلق الدكاكين في يوم عاشوراء فقط، وهو جرم كبير لا يُغتفر، وبدعة ما أنزل الله بها من سلطان!! إذ كيف يحق للشخص أن يتوقف عن العمل ولمدة يوم بأكمله؟!

٣ـ النوح والبكاء في الأزقة، ويراد من النوح: البكاء بصوت مرتفع يسمعه الآخرون[٤١]. وهذا جرم آخر ارتكبه أتباع أهل البيت عليهم السلام؛ إذ كيف يحق للإنسان أن يبكي لذكر عزيز له أو رمز من رموزه؟! خصوصاً إذا كان البكاء بصوت يسمعه الآخرون!

أُنظر عزيزي القارئ إلى هذه الأُمور التي نتج عنها الاقتتال وسفك دماء الأبرياء!! فهل تستحق مثل هذه الأفعال أن توصف بالبدعة الشنعاء، والحادثة الصلعاء، فضلاً عن القول بقتل أصحابها؟!! على أن معظم هذه الأُمور قد وردت في نصوص كثيرة ومتضافرة، مما دفع

بأتباع الأئمّة إلى العمل بها[٤٢].

والنتيجة الطبيعية أن يقف بوجه هؤلاء المبتدعة ـ على حد تعبير ابن كثير ومَن ماثله بعقليته الضحلة ـ ثلّة صالحة من أهل السُّنة، وبأُسلوب سلمي! لإرجاعهم إلى رشدهم! إلّا أنهم اصطحبوا معهم الحديد ـ وأظنه السيوف والخناجر والسكاكين وغيرها ـ ليبيّنوا لهم أنّ بإمكانهم استعمال العنف والقوة إن أرادوا ذلك! وبما أنهم قد أرادوا ذلك؛ حصل الاقتتال، ووقع من الطرفين قتلى كُثُر!!

أيّ منطق سمح لهؤلاء التافهين من المجتمع أن يتفوّهوا بهذه الكلمات؟! وأيّ دين سوّغ لهؤلاء المجرمين من المجتمع أن يعتدوا على أبناء دينهم؟! وكيف يُلقى باللوم والعتب على المظلوم دون الظالم؟!

ولعل الموازين تنعكس هنا ويكون الحق مع مَن يلوم الشيعة في هذا الموقف، ويجرّم مراسمهم العزائية ويدينها بشدة؛ إذ كان من المفترض على الشيعة ـ على هذا الرأي الجائر والظالم ـ أن لا يدافعوا عن أنفسهم، فيُقتل حينها طرف واحد من المسلمين وهم الشيعة فقط، لا أن يُقتل من الطرفين جمع من القتلى!!

والأضنى من ذلك كلّه أن تجد شخصاً يدعي أنه متنوِّر بالعلم، وباحث اجتماعي ـ له خبرة كبيرة، واستفاد من تجارب الشعوب المتحضرة ـ يُحمِّل تلك المراسم البريئة مسؤولية إثارة الفتنة، وإشعال فتيل النار بين المسلمين!

رابعاً: إيهامه القرّاء بأنّ زيارة الإمام الحسين عليه السلام نشأت في القرن الخامس الهجري

بعد أن نقل كلام ابن الجوزي حول أوّل ظاهرة عُرِفَ من خلالها معنى اللّطم، وأن ذلك قد جرى في حدود منتصف القرن الخامس الهجري، أي: الحادي عشر للميلاد. عقّب هذه العبارة بقوله: «**ومنذ ذلك الحين أيضاً أصبحت كربلاء مزاراً يؤمّه الكثير من المسلمين، بالرغم من محاولات الاضطهاد والتنكيل التي قام بها الأُمويون ومن بعدهم العباسيون لمنع الناس من زيارة قبر الإمام الحسين، وتقديم العزاء لأهل البيت، كما أن تلك الزيارات لم تنقطع ولم تتوقف، وبصورة خاصة في شهر محرم من كلّ عام، وقد أصبح قبر الإمام الحسين يوم عاشوراء في القرن التاسع الميلادي مركزاً لتجمّع الشيعة من كلّ حدب وصوب...**»[٤٣].

تقييمنا لهذه المعلومة

جاء هذا النص المرتبك في مراده والمتناقض في فقراته ليؤرخ لنا الانطلاقة الواسعة لزيارة الإمام الحسين عليه السلام، تلك المفردة التي اعتبرها الأئمّة عليهم السلام من الأركان المهمة للمراسم الحسينية.

وكلامه هذا يوهم القرّاء الكرام ـ الذين ليست لهم معرفة وإلمام بثقافة وتاريخ الزيارة الحسينية ـ بأن بدايات التاريخ الذي تكوّنت فيه زيارة الإمام الحسين عليه السلام هو منتصف القرن الخامس الهجري، مع أن هذا الأمر بعيد كل البعد عن الواقع والمتعارف عن هذه المفردة المقدّسة؛ ويكفينا لإبطال كلامه ما تقدم آنفاً في الرواية التي وردت عن الإمام الصادق عليه السلام التي يدعو فيها لزوّار الحسين عليه السلام الذين شكّلوا ظاهرة ملفتة للنظر، حتّى عاب عليهم أعداء أهل البيت عليهم السلام فعلهم هذا، بل تقدّم أيضاً أنّ الوفود المتدافعة إلى قبر الإمام الحسين عليه السلام في عصر الإمام الباقر عليه السلام كانت أمراً شائعاً ومتعارفاً بين الشيعة، حتّى أخذ أصحابه الذين لا يقدرون على زيارة الإمام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء يسألون عن وظيفة مَن لم يستطع الزيارة عن قرب.

وبغضّ النظر عن جميع ما تقدم، فإن هذا النص الذي ذكره الكاتب حول نشأة زيارة الإمام الحسين عليه السلام مخالف تمام المخالفة للحقائق العلمية المثبتة لهذه المفردة، وسنذكر بعض النقاط المهمة لبيان نقاط الخلل في كلامه:

١ـ كان الأجدر بالكاتب أن يحقق في هذا الموضوع الحساس بشكل دقيق وموضوعي؛ ليحدد الانطلاقة الحقيقية لزيارة الإمام الحسين عليه السلام، وبإمكانه أن يجد النصوص الوثائقية في الموسوعات المختصة بهذا الموضوع، كما في كتاب (كامل الزيارات) لابن قولويه[٤٤]، و(المزار) للمفيد[٤٥]، و(المزار الكبير) لابن المشهدي[٤٦]، فضلاً عن المصادر الحديثية العامة التي اشتملت على نصوص كثيرة في هذا المجال، وقد تعددت قنوات تلك المصادر وطرقها التي تناقلت مضامينها زماناً ومكاناً، حتّى استجمعت كل شرائط التواتر، بحيث لا يمكن لأحد إنكارها.

٢ـ لم تكن عبارة الكاتب واضحة المدلول، فلا ندري عن أي حين يتكلم؟ فهل يريد منتصف القرن الخامس، وهو أقرب الاحتمالات وأقرب العبائر إليها[٤٧]، أو يريد بذلك الحين فترة تطوُّر النياحة إلى قراءة المقاتل[٤٨] كمقتل ابن نما، أو أنه أراد فترة تجمّع الشيعة لإقامة العزاء في القرن الثالث للهجرة[٤٩]؟ مع أن هذه

الاحتمالات بأجمعها مجانبة للواقع كما تُدلي بذلك الأدلّة والشواهد التاريخية الكثيرة التي ذكرنا مصادرها آنفاً، وليس بوسعنا أن ننقل النصوص في هذا البحث المختصر، وإنما نحيل مَن أراد أن يطلع على ذلك إلى ما ذكرناه من موسوعات اختصّت بالزيارة المقدّسة.

كما أنه لم يكن هناك انسجام بين ما ذكره في مطلع عبارته هذه وبين وسطها، بل وآخرها، فالعبارة التي ذكرناها للقراء الكرام لم تكن موفقة إطلاقاً، وليست سوى تشويش وتشويه لصورة هذه المراسم المقدّسة.

وإلى هنا نكون قد انتهينا من تسجيل مجموعة من نقاط الخلل والضعف التي أحصيناها على هذا الكاتب، وجميع ذلك فيما يرتبط بجانب نشأة المراسم الحسينية. ولعلنا نوفق ـ في بحث لاحق ـ لتسليط الضوء على ما ذكره في تطوّر مراسم العزاء؛ لبيان المخالفات العلمية الكثيرة التي تركنا ذكرها هنا حذراً من الإطالة على قرائنا الكرام.

الهوامش

[١] وُلِد إبراهيم الحيدري في العاصمة بغداد/في مدينة الكاظمية عام (١٩٣٦م)، وتدرّج في دراسته الابتدائية والمتوسطة في الكاظمية، والدراسة الثانوية في بغداد. نالَ شهادة بكالوريوس آداب من قسم الاجتماع (كلية الآداب ـ جامعة بغداد) عام (١٩٦٢م). ثمّ حصل على الماجستير في علم الاجتماع من جامعة فرانكفورت بألمانيا عام (١٩٦٩م). وبعد ذلك نال دكتوراه الفلسفة في الاثنولوجيا الاجتماعية بدرجة امتياز من جامعة برلين الغربية عام (١٩٧٤م). يحمل الدرجة العلمية أُستاذ مشارك في علم الاجتماع. درّس في معهد الاثنولوجيا الاجتماعية ـ جامعة برلين الغربية (١٩٧٢ ـ ١٩٧٦م) وقسم الاجتماع ـ كلية الآداب ـ جامعة بغداد (١٩٧٧ـ ١٩٨٠م). أُنظر: إبراهيم الحيدري، ويكيبيديا الموسوعة الحرة:

https: //ar. wikipedia. org/wiki.

[٢] إذاعة العراق الحر:

http: //www. iraqhurr. org/a/٢٦٦٦٩٧٤٩. html

[٣] أُنظر: جريدة البينة:

http: //www. al-bayyna. com/modules. php?name=News ٪ file=article sid=٣٩٤٥٦

وأيضاً: الأخبار (صحيفة عراقية مستقلة):

http: //www. akhbaar. org/home/١٨٤٠٢٠/١/٢٠١٥. html

[٤] كتبت الباحثة فاطمة منصور مقالاً تحت عنوان: قراءة في كتاب تراجيديا كربلاء، قدّمت من خلاله نبذة مختصرة للكتاب، مبدية نقاط القوة التي امتاز بها المؤلّف وكتابه، مع إعطاء لمحة مختصرة عن كلّ فصل من فصوله، مع إبداء رأيها في أهم الفصول فيه. أُنظر: معارف إسلامية: العدد٢٦٧.

http: //baqiatollah. net/essaydetails. php?eid=١١٩٦ chcid=٧٤٠. VypRcFJztkA

[٥] ومن بين ما جاء في هذا الصدد ما ذكره الناقد المصري فاروق عبد القادر؛ إذ قال في مقال: «**لفت هذا الكتاب اهتمامي منذ أن قرأته ـ للمرة الأُولى ـ قبل أكثر من عام. ورأيت فيه وجوه امتياز عديدة، لعلّ أهمها أنه أول دراسة عربية ـ فيما أعرف ـ تضع هذه الظاهرة (ظاهرة التعزية) في سياقاتها الموضوعية المتعددة، ثم إنه يلتزم منهجاً علمياً صارماً في تناولها... تتعدد مصادره ومراجعه ـ في اللغة العربية والألمانية بوجه خاص ـ وتشمل مصادره دراسة ميدانية قام بها في مدينة الكاظمية عام (١٩٦٨)**». مجلة (وجهات نظر)، يونيو، عام (٢٠٠٣). وممن اصطف في هذا الركب ـ أيضاً ـ مسجّلاً إعجابه بهذا الكتاب ومؤلّفه: جمال الغيطاني، ومحمود الورداني، وعبد الرحيم حسن، وحميد الكفائي، وغيرهم. أُنظر: فاطمة منصور، قراءة في تراجيديا كربلاء، معارف إسلامية: العدد٢٦٧.

[٦] الحيدري، إبراهيم، تراجيديا كربلاء: ص٨.

[٧] المصدر السابق: ص٥١.

[٨] المصدر السابق: ص٥٢.

[٩] لقد أحصى العلّامة الأميني سبعة عشر مأتماً أقامها النبي صلى الله عليه وآله على ولده الحسين عليه السلام في مواطن ومناسبات متعددة، أخرجها من المصادر المهمة لدى المسلمين، وقد تركنا نقلها هنا خوفاً من الإطالة، كما أنها أصبحت من الواضحات المسلّمات عند المسلمين، وللاطلاع عليها أُنظر: الأميني، عبد الحسين، سيرتنا وسنتنا: ص٤٩ـ١٢٨.

[١٠] لقد اغتنم الإمام زين العابدين عليه السلام ـ ومَن معه من الأسارى ـ فرصة تواجدهم في المجتمع الكوفي والشامي آنذاك؛ ليقلبوا الموازين لمصلحة الإسلام والدين، ويبيّنوا عظم المصاب الذي جرى على الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه في يوم عاشوراء.

[١١] مريم: آية٩٠.

[١٢] الكوفي، أحمد بن أعثم، الفتوح: ج٥، ص١٢٢. وأُنظر: المفيد، محمد بن محمد، الأمالي: ص٣٢٠. وأيضاً: ابن طيفور، أبو الفضل، بلاغات النساء: ص٢٤.

[١٣] الكوفي، أحمد بن أعثم، الفتوح: ج٢، ص١٣٣.

[١٤] ابن طاووس، علي بن موسى، اللّهوف على قتلى الطفوف: ص١١٧.

[١٥] ابن قولويه، جعفر بن محمد، كامل الزيارات: ص٢٠١.

[١٦] البرقي، أحمد بن محمد، المحاسن: ج٢، ص٤٢٠.

[١٧] أُنظر: المصدر السابق: ص٤١٩.

[١٨] المصدر السابق: ص٣٢٦.

[١٩] الحيدري، إبراهيم، تراجيديا كربلاء: ص٥٢.

[٢٠] أُنظر: المصدر السابق: ص١٣.

[٢١] أُنظر: الساعدي، صباح عباس، التوظيف العقدي والديني لمأساة كربلاء في تراث المعصومين عليهم السلام، مجلة الإصلاح الحسيني: العدد ٩، ص١٨١.

[٢٢] المسيرة الجهادية للنبي إبراهيم عليه السلام من أجل هداية المجتمع، والوقوف بوجه الظالمين والمتكبرين في عصره،

فوقف بوجه مدّ جارف من الضلالات والأباطيل، مع أنه لم يجد ناصراً يقف إلى جنبه، فقال لهم: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ (الأنبياء: آية٦٧ـ٧٠)؛ لذا وصفه الله في نهاية المطاف بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل: آية ١٢٠). وكذا النبي موسى وعيسى ويحيى عليهم السلام، فقد أثنى على تضحياتهم النبيلة، وخلّد لهم الذكر الجميل بقوله: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (النمل: آية٥٩). أو بقوله في عيسى عليه السلام: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ (مريم: آية١٥).

[٢٣] ورد في مسند أحمد أن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**لما رجع من أُحد، فجعلت نساء الأنصار يبكين على مَن قُتل من أزواجهن. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ولكن حمزة لا بواكي له. قال: ثم نام فاستنبه وهن يبكين. قال: فهن اليوم إذا يبكين يندبن بحمزة**». ابن حنبل، أحمد، مسند أحمد: ج٢، ص٤٠.

[٢٤] ابن قولويه، جعفر بن محمد، كامل الزيارات: ص٣٧٨.

[٢٥] الطوسي، محمد بن الحسن، مصباح المتهجد: ص٧٢٣.

[٢٦] ومن جملة المبادئ التي ذكر الإمام عليه السلام أنه قام من أجلها:

١ـ بث روح الإصلاح في نفوس المسلمين، كما في قوله عليه السلام: «**وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدي...**»، وقوله: «**لنري المعالم من دينك، ونظهر الإصلاح في بلادك**».

٢ـ القيام بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما في قوله: «**أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر...**»، وكما في قوله: «**مَن رأى سلطاناً جائراً، مستحلاً لحُرم الله ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسُنّة رسول الله صلى الله عليه وآله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يُغيّر عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله**»، وكما في قوله: «**ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، أحلّوا حرام الله، وحرّموا حلاله، وأنا أحق مَن غيّر**».

٣ـ إعادة الكرامة المسلوبة من المسلمين، كما في قوله عليه السلام: «**ألا وإنّ الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين: السلّة والذلّة، وهيهات منا الذلّة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت، وحجور طهرت، ونفوس أبية وأنوف حمية، من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام...**». إذ في قوله عليه السلام هذا ترسيخ لمبدأ العزة والكرامة التي يتحتم على المؤمن أن يعيش في ظلها أو يموت من أجلها. إلى غير ذلك من المبادئ الأُخرى التي ذكرها الإمام الحسين عليه السلام في بياناته الكثيرة.

[٢٧] الحميري، عبد الله بن جعفر، قرب الإسناد: ص٣٦.

[٢٨] البرقي، أحمد بن محمد، المحاسن: ج١، ص٦٣.

[٢٩] الصف: آية٤.

[٣٠] الفتح: آية٢٩.

[٣١] الخميني، روح الله، وصية الإمام الخميني السياسية (صحيفة النور): ج٢١، ص١٧٣. نقلاً عن موقع هيئة علماء بيروت.

www. allikaa. net «print

[٣٢] السند، محمد، الحداثة، (العولمة، الإرهاب في ميزان النهضة الحسينية): ص١٤١.
[٣٣] الحيدري، إبراهيم، تراجيديا كربلاء: ص٥٣.
[٣٤] المصدر السابق: ص٥٩.
[٣٥] لا داعي لأن نبرهن على القتل الجماعي الذي قام به معاوية وأزلامه في حق الأبرياء من أتباع أهل البيت عليهم السلام؛ فالتاريخ مليء بذلك، حتّى وصل الأمر بأمير المؤمنين عليه السلام أن يخطب في أصحابه إثر حادثة الأنبار: «هذا أخو غامد قد وردت خيله الأنبار، وقتل حسان بن حسان البكري، فلو أنّ امرءاً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان عندي به جديراً». الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج٥، ص٥. كما خاطب الإمام الحسين عليه السلام معاوية بقوله: «... ألست القاتل حجر بن عدي أخا كندة، والمصلين العابدين الذين كانوا ينكرون الظلم، ويستعظمون البدع، ولا يخافون في الله لومة لائم؟! ثم قتلتهم ظلماً وعدواناً من بعد ما كنت أعطيتهم الأيمان المغلّظة، والمواثيق المؤكدة، لا تأخذهم بحدث كان بينك وبينهم، ولا بأحنة تجدها في نفسك». الطوسي، محمد بن الحسن، اختيار معرفة الرجال: ج١، ص٢٥٣.
[٣٦] ابن قولويه، جعفر بن محمد، كامل الزيارات: ص٢٢٨.
[٣٧] ابن كثير، إسماعيل، البداية والنهاية: ج٨، ص٢٢٠.
[٣٨] أُنظر: الذهبي، محمد بن أحمد، المنتقى من منهاج الاعتدال: ج١، ص١٢١.
[٣٩] ابن كثير، إسماعيل، البداية والنهاية: ج١٢، ص٣٥.
[٤٠] أُنظر: ابن منظور، لسان العرب: ج٢، ٥٩٦. وأيضاً: الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس: ج٤، ص٢٠٥. وأيضاً: الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين: ج٢، ص٤١٤.
[٤١] قال الراغب الإصفهاني: «النَّوحُ:... مصدر ناح، أي: صَاحَ يعَويلٍ». مفردات ألفاظ القرآن: ص٨٢٧.
[٤٢] ونحن نكتفي بذكر نموذج واحد من هذه الأحاديث التي عمل أتباع أهل البيت عليهم السلام على وفقها، فقد ورد عن الإمام الرضا عليه السلام قوله: «مَن ترك السعي في حوائجه يوم عاشورا قضى الله له حوائج الدنيا والآخرة، ومَن كان يوم عاشورا يوم مصيبته وحزنه وبكائه، جعل الله يوم القيامة يوم فرحه وسروره، وقرَّت بنا في الجنان عينه، ومَن سمّى يوم عاشوراء يوم بركة، وادّخر فيه لمنزله شيئاً، لم يُبارك له فيما ادّخر، وحُشر يوم القيامة مع يزيد وعبيد الله بن زياد وعمر بن سعد (لعنهم الله) إلى أسفل درك من النار». الصدوق، محمد بن علي، الأمالي: ج١، ص٢٢٧.
[٤٣] الحيدري، إبراهيم، تراجيديا كربلاء: ص٥٤.
[٤٤] ابن قولويه، جعفر بن محمد، كامل الزيارات: ص٢٢١.
[٤٥] المفيد، محمد بن محمد، المزار: ص٢٣.
[٤٦] ابن المشهدي، محمد، المزار الكبير: ص٣٢٣.
[٤٧] أُنظر: الحيدري، إبراهيم، تراجيديا كربلاء: ص٥٤.
[٤٨] أُنظر: المصدر السابق: ص٥٣.
[٤٩] أُنظر: المصدر السابق: ص٥٢.

الشيخ ماهر الحكاك
باحث اسلامي / حوزة قم المشرفة

العنف والإرهاب في أصول الإسلام الوهابي
ـ الهجوم على مدينة كربلاء أُنموذجاً ـ

توطئة

أصبحت ظاهرة الإرهاب أعقد ظاهرة سياسيّة وأمنيّة واجتماعيّة يواجهها العالم الإسلامي، وقد ترعرعت في أحضان عملاء الاستعمار في المنطقة، وزُرِعت في البيئة العربيّة والإسلاميّة؛ فوجدت المناخ المناسب لها، وسقتها بعض الفِرَق بأفكارها التي تدَّعي انتماءها إلى الدين.

ونتيجةً لتفاعل هذه الظاهرة ومساسها بحياة الناس، نتجت دراسات ومقالات وردود فكرية، تحدّثت عن جذورها التاريخيّة والسياسيّة والدينيّة.

يتمحور هنا المقال حول تطرف الحركة الوهابيّة وإرهابها وأعمال العنف التي قامت بها من خلال هجومها على كربلاء. فاقتضى ذلك أن نبدأ بتعريف العنف والإرهاب لغةً واصطلاحاً، ثمّ دلالات الآيات القرآنيّة التي وردت فيها مفردة الإرهاب بمشتقاتها، والتفريق بين الجهاد والإرهاب.

وبما أنّ البحث يرتبط بالوهابيّة تطرّقنا إلى التعريف بنشأة الوهابيّة: الاعتقاديّة والتاريخيّة، لنصل بعد ذلك إلى تفاصيل هجوم تلك الفئة على كربلاء والعنف الذي مارسوه آنذاك.

تعريف الإرهاب

أ. الإرهاب لغةً

يعود المعنى اللغوي للإرهاب إلى كلمة (رَهِبَ).

وقد قام علماء اللغة ببحث عدّة معانٍ لها، وهي كالآتي:

١ ـ «رهب: الرَّهْبَة: الراء والهاء والباء أصلان، أحدهما يدل على خوفٍ، والآخر على دقة وخفَّة»[١].

٢ ـ «رهب: الرَّهْبَة والرُّهْبُ مخافةٌ مع تحرّز واضطراب، قال: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً﴾»[٢].

٣ ـ «رهب: رَهِبَ، يَرهَبُ رَهْبَةً ورُهباً، بالضم، ورَهَباً، بالتحريك، أي: خاف. ورَهِبَ الشيء رَهْباً ورَهَباً ورَهْبَةً: خافه. وأرهَبَهُ ورَهَّبَهُ واسترهَبَه، أخافه وفزّعه»[٣].

٤ ـ «الأرهاب (بالفتح) ما لا يصيد من الطير كالبغاث، والإرهاب (بالكسر) الإزعاج والإخافة»[٤].

ومما تقدّم يظهر المراد من الإرهاب، وهو: الإخافة، والإفزاع، والإزعاج.

ب. الإرهاب اصطلاحاً

هناك خلاف كبير في تعريف الإرهاب وتحديد معناه، ومع ذلك فقد صاغ رجال الفكر، والسياسة، والاجتماع، والقانون، وربما الشريعة، تعاريف تُبيّن ماهية الإرهاب. نورد فيما يلي بعضاً منها:

١ـ «الإرهاب: استخدام العنف غير القانوني أو التهديد به، بأشكاله المختلفة: كالاغتيالات، والتشويه والتعذيب، والتخريب والنسف، بُغية تحقيق هدف سياسي معين»[٥].

٢ـ «الإرهاب: هو استعمال غير مشروع للقوة، في سبيل الوصول إلى غاية ما»[٦].

٣ـ «الإرهاب: هو إحداث أثر سلبي يطال النفس البشرية؛ وذلك بإدخالها في حالة من الخوف والقلق، والرعب والتوتر، بما يؤدي إلى التأثير على اتجاهاتها وآرائها تجاه قضية ما»[٧].

٤ـ «الإرهاب: استخدام جميع الوسائل والأساليب المشروعة، في بث الرعب في قلب العدو؛ من أجل أهداف معينة»[٨].

٥ ـ «الإرهاب: هو كلّ استخدام، أو تهديد باستخدام عنف غير مشروع؛ لخلق

حالة من الخوف والرعب؛ بقصد تحقيق التأثير، أو السيطرة على فرد، أو مجموعة من الأفراد، أو حتى المجتمع بأسره، وصولاً إلى هدف معيّن يسعى الفاعل إلى تحقيقه»[٩].

التعريف المختار

إنّ التعريف الخامس من التعاريف المتقدّمة يشتمل على ما يلي:

١ـ قيّد العنف بغير المشروع لا مطلق العنف، والذي قد يكون نتيجةً وردّ فعل لِما يُستخدم ضدّ الضحيّة.

٢ـ استخدام العنف، أو التهديد به.

٣ـ ذكر الحالة النفسيّة التي يخلقها الإرهاب في نفس الضحيّة من الخوف والذعر.

٤ـ بيّن الجهة التي يطالها الإرهاب سواء كانت فرداً، أو مجموعة من الأفراد، أو حتى المجتمع بأسره.

٥ـ أشار التعريف إلى الجهة المنفّذة، أو الفاعل للعنف والإرهاب، بغض النظر عن هويته.

٦ـ لم يحصر التعريف هدف الإرهاب في جانب معيّن.

٧ـ هذا الحدّ وسّع من دائرة مفهوم الإرهاب، متجاوزاً التأثير على الضحيّة إلى السيطرة عليها ودخولها تحت رحمته[١٠].

والتعريف الرابع كان لباحث إسلامي استنتجه من مصادره الشرعيّة التي يعتمد عليها، ويمكن أن تسجل بعض الملاحظات عليه:

١ـ الإرهاب نتيجة وليس وسيلة في دفع العدو.

٢ـ لم يحدد العدو في ساحة القتال، أو في غيرها.

لِما تقدّم نرجّح التعريف الخامس.

الاستعمال القرآني لمفردة الإرهاب

وردت مشتقات لفظة (الإرهاب) في آيات مُتعددة من سور القرآن، حيث ذكر القرآن الكريم الفعل (رَهِبَ) في سبعة مواضع يهمّنا منها موردان:

١ـ قوله تعالى: ﴿**لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ**﴾[١١]، بمعنى الخشية[١٢].

٢ـ قوله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ**﴾[١٣].

ولتوضيح المقصود من الآيتين الكريمتين ينبغي الالتفات إلى عدّة أُمور:

الأوّل: إنّ الآية الثانية تأمر المؤمنين بأن يعدّوا القوة للكافرين، عند خوف خيانتهم وغدرهم، بمعنى: «**وأعدوا لهؤلاء الذين كفروا بربهم، الذين بينكم وبينهم عهد، إذا خفتم خيانتهم وغدرهم أيّها المؤمنون بالله ورسوله ما استطعتم من قوة**»[١٤].

الثاني: الأمر بإعداد القوة، هو نتيجة وليس سبباً، فهو ينشأ من خوف خيانة العدو.

وبعبارة أُخرى: «**إعداد القوة إنّما هو لغرض الدفاع عن حقوق المجتمع ومنافعه الحيوية، والتظاهر بالقوة المعدّة ينتج إرهاب العدو، وهو أيضاً من شُعب الدفع ونوع منه، فقوله تعالى: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّـهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾... يذكر فائدة من فوائد الإعداد الراجعة إلى إفراد المجتمع**»[١٥].

الثالث: تجدر الإشارة إلى أنّ القرآن الكريم يأمر المسلمين بإعداد القوة: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ**﴾. وهذا غير استخدام العنف غير المشروع، الذي يستهدف الأفراد والجماعات البشريّة، ويملأ الناس خوفاً وفزعاً، وبوسائل غير شريفة، وأهداف غير إنسانيّة، وهو ما نقصده في بحثنا هذا.

الرابع: قوله تعالى: ﴿**لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّـهِ**﴾، فإنّ الخوف الناشئ في نفوس المنافقين يرجع إلى جهلهم بحقائق الأشياء، فهم يخافون المؤمنين أشدّ من خوفهم من الله «**يخافونكم ما لا يخافون الله؛ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ الحق، ولا يعرفونه، ولا يعرفون معاني صفات الله**»[١٦].

فسبب هذه الرهبة التي للمؤمنين في صدور يهود بني النضير والمنافقين ليس بأعمال العنف، ولا استخدام المؤمنين للقوة والإرهاب على أرض الواقع. ومن هنا نخلص إلى أنّ الاستعمال القرآني للفظة الإرهاب الواردة في القرآن يتباين في الموضوع والوسائل والغرض مع الإرهاب الذي ذكرنا بعض تعريفاته.

الجهاد ليس إرهاباً

لم يكن الغرض من تشريع الجهاد الذي جُعِلَ الإرهاب مرادفاً له في المعنى عند المتطرّفين قتل النفوس، وإراقة الدماء، وتخريب البلاد، بل إنّ الغاية من تشريعه هي تحرير البلاد من الظالمين، الذين يُصادرون حريات شعوبهم، ويقفون سداً منيعاً أمام رسل الله؛ ويعارضون إخراج المجتمع من عبادة المخلوقين إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة.

وقد سنّ الشارع قوانين وسنناً للمجاهدين؛

لكي يؤدوا وظيفتهم الرساليّة بشكل يصدّهم عن تجاوز منهج الحقّ والعدل، ويوقفهم على واجباتهم في هذا المضمار؛ حتى لا يختلط الجهاد بالإرهاب كما وقع فيه محمد بن عبد الوهاب وأتباعه.

وإذا درسنا روايات الجهاد نجدها تُظهر وظائف المجاهدين في الميدان على مستويات مختلفة:

١ـ نهيُ الإسلام عن الغدر بالعدو، فكانت من تعاليمه: «**لا ينبغي للمسلمين أن يغدروا، ولا يأمروا بالغدر، ولا يقاتلوا مع الذين غدروا**»[١٧].

فيجب على المجاهد أن لا يقاتل أحداً فضلاً عن غدره والفتك به غِيلةً عبر المتفجرات والسيارات الموقوتة حتى يبيّن له حقيقة الإسلام، ويدعوه إلى ما جاء به النبي صلى الله عليه وآله.

قال النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام عندما بعثه إلى اليمن: «**يا علي، لا تقاتلن أحداً حتى تدعوه إلى الإسلام، وأيم الله، لأن يهدي الله (عزّ وجلّ) علي يديك رجلاً، خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت**»[١٨].

٢ـ إنّ الإسلام في الوقت الذي أمر فيه بالجهاد، قرنه برعاية المثُل والأخلاق، ففي فتح مكّة، قال صلى الله عليه وآله: «**مَن أغلق بابه فهو آمن، ومَن ألقى سلاحه فهو آمن**»[١٩].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام بعد ما فقأ عين الفتنة في البصرة، منادياً أصحابه بصوت عالٍ: «**لا تسبوا لهم ذرية، ولا تجهزوا على جريح، ولا تتبعوا مدبراً، ومَن أغلق بابه وألقى سلاحه فهو آمن**»[٢٠].

ومع كلّ ما تقدّم حاول بعضٌ أن يُظهر الإسلام بهيئة الفتك، والعنف، والإرهاب، وما هو إلّا أحد اثنين: إمّا جاهل بالقيم والمثل الإسلاميّة العليا، وإمّا مغرض يُريد تشويه صورة الإسلام في أعين وأذهان الناس؛ ليصدّهم عن سبيل الله، من أجل أن يُطبّق مشروعاً استعمارياً في البلاد الإسلاميّة، الغاية منه الحدّ من الإسلام وتعاليمه بعد أن انتشر في ربوع المعمورة، وأصبح يهدد مصالح المستكبرين في العالم.

فالأصل الأوّل في الإسلام: هو السلم ونبذ الإرهاب والعنف إلّا ما دعت إليه الضرورة، وهي تعتبر حالة استثنائية شرّع الإسلام فيها العنف إن جاز التعبير للضرورات الحتميّة التي تقتضي ذلك، مثل: الجهاد، والحدود، والتعزيرات، والقصاص، وبعض مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

نشأة الفرقة الوهابيّة

تُنسب فرقة الوهابيّة إلى محمد بن عبد الوهاب بن سليمان النجدي، المولود سنة (١١١١هـ).

درس مبادئ العلوم الدينيّة عند أبيه، ثمّ رحل إلى الحجاز، وبقيَ أشهراً، حضر عند بعض الشيوخ في المدينة المنورة أثناء إقامته فيها، ثمّ عاد إلى نجد، لكنّه لم يستقر فيها، فاستأنف الرحلة إلى البصرة، وحينما بدأ بنشر آرائه بين أهلها أنكروا عليه، وطردوه، فولّى هارباً، وعاد إلى نجد، وكان أبوه قد ترك العُيينة إلى بلدة (حريملة).

وفى سنة (١١٤٣هـ) حينما أظهر محمد بن عبد الوهاب الدعوة إلى مذهبه الجديد، وقف بوجهه والده ومشايخه، فأبطلوا أقواله، فلم تَلقَ رواجاً، وقد سأم أهل (العُيينة) منه وطردوه من بلدتهم، فاتجه نحو (الدرعيّة)[٢١]. و«في سنة (١١٦٠هـ) وصل الشيخ إلى الدرعيّة، وكان أميرها آنذاك محمد بن سعود، جدّ السعوديين، وتمّ الاتفاق بين الشيخ والأمير، على أن يهب الشيخ نجداً وعربانها لابن سعود، ووعده أن تكثر الغنائم عليه، والأسلاب الحربية، التي تفوق ما يتقاضاه من الضرائب؛ على أن يدع الأميرُ الشيخ ما يشاء من وضع الخطط لتنفيذ دعوته، وتقول الرواة: إنّ الأمير السعودي بايع محمد عبد الوهاب على القتال في سبيل الله. وبعد أن شعر محمد بن عبد الوهاب بقوته عن طريق هذا التحالف، وأنّ الأمارة السعودية أصبحت تناصره وتؤازره، جمع الشيخ أنصاره وأتباعه، وحثّهم على الجهاد، وكتب إلى البلدان المجاورة المسلمة أن تقبل دعوته، وتدخل في طاعته»[٢٢].

عقيدة الوهابيّة

«إنّ المبدأ الأوّل للوهابيّة، وشعارهم الوحيد: إمّا الوهابيّة، وإمّا السيف. فمَن اعتنقها سَلِم، ومَن أبى أُبيح دمه، وذُبحت أطفاله، ونُهبت أمواله، ومحال أن ينظر الوهابي إلى غيره إلّا بهذه العين المكفّرة المستحلّة للأرواح والأموال. قال الشيخ سليمان عبد الوهاب، أخو محمد عبد الوهاب... مخاطباً الوهابية: فأنتم تكفّرون بأقلّ القليل من الكفر، بل تكفّرون بما تظنون أنتم أنّه كفر، بل تكفرّون بصريح الإسلام، بل تكفّرون مَن توقّف عن تكفير من كفرتموه.

و[حينما] ننظر إلى كتبهم، وما خطّوه

بأيديهم، فإنّ الأمر يزداد وضوحاً... قال محمد عبد الوهاب مؤسس مذهب الوهابيّة...: ولا تنفعهم لا إله إلّا الله، ولا كثرة العبادات، ولا ادعاء الإسلام؛ لِما ظهر منهم من مخالفة الشرع... وقال...: وإن قالوا: نحن لا نشرك بالله، بل نشهد أنّه لا يخلق، ولا يرزق، ولا ينفع، ولا يضر إلّا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً رسول الله لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولكن الصالحين لهم جاه عند الله، وأنا أطلب من الله بهم، فجوابه: إنّ الذين قاتلهم رسول الله مُقرّون بما ذكرت، ومُقرّون بأنّ أوثانهم لا تدبّر شيئاً، وإنّما أرادوا الجاه والشفاعة.

وأيضاً قال...: وإذا قالوا: نحن نشهد أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمداً رسول الله، ونصدّق القرآن، ونؤمن بالبعث، ونصلّي ونصوم، فكيف تجعلوننا مثل أولئك؟ فالجواب: إنّ الرجل إذا صدّق رسول الله في شيء، وكذّبه في شيء فهو كافر لم يدخل في الإسلام»[٢٣].

والوهابيّة في واقعها ليس هدفها الدين، والدفاع عن حريمه، وإنّما ذلك غطاء لهدف آخر هو: «تمزيق المسلمين، وإثارة الفتن والحروب فيما بينهم؛ خدمة للمستعمر الغربي. وهذا هو المحور الذى دارت حوله جهود الوهابيّة منذ نشأتها وحتى اليوم. فهو الأصل الحقيقي الذى سُخِّر له الأصل المُعلن؛ من أجل إغواء البسطاء وعوام الناس... ولقد أثبت المحققون في تاريخ الوهابيّة أنّ هذه الدعوة قد أُنشئت في الأصل بأمر مباشر من وزارة المستعمرات البريطانية»[٢٤].

هجوم الوهابيين على كربلاء

«إنّ أعظم فاجعة من بعد وقعة الطفّ مرّت على كربلاء في التاريخ، هي غزو الوهابيين لها في عام (١٢١٦) من الهجرة»[٢٥]. فقد دخلت أوباش ابن سعود بفتوى محمد بن عبد الوهاب التكفيريّة مدينة كربلاء، وعاثوا فيها الفساد، حتى دنّسوا الحرمين الطاهرين، وقتلوا مَن فيهما فسُميّت هذه الوقعة (بالطفّ الثانية)[٢٦]. «وقد أدمت هذه الفاجعة العيون، وأوجعت قلوب المسلمين في مختلف أقطار الأرض، وهزّت العالم الإسلامي بأسره من أدناه إلى أقصاه؛ لأنّها جددت أرزاء كربلاء كما وصفها الشاعر الحاج محمد رضا الأزري (ت ١٢٤٠هـ):

ونادى به نادي الصلاح مؤرِّخاً
لقد عاودتنا اليوم أرزاء كربلاء».[٢٧]

وقد وصف الغارةَ السماوي بهذه الأبيات[٢٨]:

فشدّ لا يُثني هواه الثاني
ومزّق الكتاب والمثاني
وهدّم الشباك والرواقا
واستلب الحُليّ والأعلاقا
وقتل النساء والأطفال
إذ لم يجد في كربلاء رجالا
لأنّهم زاروا الغدير قصدا
فأرخوه بغدير عدا
مداهمة كربلاء

قال (لونگريك) في وصف الغارة الوهابيّة المُنكرة على مدينة كربلاء: «انتشر خبر اقتراب الوهابيين من كربلاء في عشية اليوم الثاني من نيسان (١٨٠١م)، عندما كان معظم سكّان البلدة في النجف يقومون بالزيارة. فسارع مَن بقيَ في المدينة لإغلاق الأبواب، غير أنّ الوهابيين وقد قُدّروا بستمائة هجان وأربعمائة فارس نزلوا فنصبوا خيامهم وقسّموا قوتهم إلى ثلاثة أقسام. من ظل أحد الخانات هاجموا أقرب باب من أبواب البلد، فتمكّنوا من فتحه عسفاً ودخلوا، فدُهِشَ السكان، وأصبحوا يفرّون على غير هدى، بل كيفما شاء خوفهم.

أمّا الوهابيون الخُشّن، فقد شقّوا طريقهم إلى الأضرحة المقدّسة، وأخذوا يخرّبونها، فاقتُلِعت القُضُب المعدنيّة، والسياج، ثمّ المرايا الجسيمة، ونُهبت النفائس والحاجات الثمينة من هدايا الباشوات، والأُمراء، وملوك الفرس. وكذلك سُلِبت زخارف الجدران، وقُلِعَ ذهب السقوف، وأُخِذت الشمعدانات، والسجاد الفاخر، والمعلّقات الثمينة، والأبواب المرصّعة، وجميع ما وُجد من هذا الضرب، وقد سُحبت جميعها ونُقِلت الى الخارج»[٢٩]. «وقُتِلَ زيادة عن هذه الأفاعيل قراب خمسين شخصاً بالقرب من الضريح، وخمسمائة أيضاً خارج الضريح في الصحن. وأمّا البلدة نفسها، فقد عاث الغزاة المتوحشون فيها فساداً وتخريباً، وقتلوا من دون رحمة جميع مَن صادفوه، كما سرقوا كلّ دار، ولم يرحموا الشيخ ولا الطفل، ولم يحترموا النساء ولا الرجال، فلم يَسلم الكلّ من وحشيّتهم ولا من أسرهم»[٣٠]. «على أنّ الفاجعة الكبرى كانت على قاب قوسين أو أدنى، تلك الفاجعة التي دلّت على منتهى القسوة والهمجيّة، والطمع الأشعبي[٣١]،

واستُعملت باسم الدين، وأنّ الجيوش الوهابيّة تحرّكت للغزو المختص بالربيع. فأرسل الكهية إلى الهنديّة إلّا أنّه ما كاد يغادر بغداد حتى وافت أخبار هجوم الوهابيين على كربلاء ونهبهم إيّاها، وهي أقدس المدن الشيعيّة وأغناها»[٣٢].

وجاء في كتاب تاريخ المملكة العربيّة السعوديّة ما نصّه: «**في سنة (١٢١٦ هـ) سار الأمير سعود على رأس قوات كبيرة، جمعها من نجد والعشائر، والجنوب، والحجاز، وتُهامة، وغيرها، وقصد بها أهل العراق، وتمكّن جماعة من هذه القوة من الوصول إلى بلدة (كربلاء)، وحاصروها وتسوروا جدرانها، ودخلوها عنوةً، وقتلوا أكثر أهلها في الأسواق والبيوت، وخرجوا منها قرب الظهر، ومعهم أموال كثيرة، وارتحل القوم بعدها إلى الماء المعروف باسم (الأبيض)، فجمع سعود الغنائم، وعزل خُمسها، وقسّم الباقي بين جنوده، للراجل سهم، وللفارس سهمان، ثمّ عاد إلى وطنه الدرعيّة»**[٣٣].

أسباب الهجوم الوهابي على كربلاء

نستعرض فيما يلي الأسباب التي دعت آل سعود للهجوم على كربلاء، مستندين في ذلك إلى ما ورد من نصوص أرّخت لهذه الحادثة الأليمة، ومن خلال ذلك نستكشف الدافع الذي يقف وراء الهجوم الوهابي على كربلاء المقدّسة، ونمط الإرهاب الذي مارسته الوهابيّة في ذلك الهجوم الغاشم.

١ـ الميول الدنيويّة، والبيئة البدويّة المعتمدة على الغزو في عيشها

يرصد القارئ ما كتبه أحد المستشرقين في هذا المجال، حينما يتكلّم عن الوهابيّة آنذاك: «**لم تكن أعراب نجد تختلف في العقيدة والمذهب عن بقيّة المسلمين، إلى أواخر القرن الثاني عشر الهجري، حين نشر محمد بن عبد الوهاب تعاليمه الجديدة، التي جاءت موافقة لميول أُمّة بدويّة تعيش على الفطرة، معتمدة على الغزو في عيشها، ولاقت قبولاً حسناً من محمد بن سعود أميرهم**»[٣٤].

يُريد أن يُرجع سبب غزو الوهابيّة لكربلاء على حدّ تعبيره إلى البيئة التي كان تعيش فيها الوهابيّة من جهة، وإلى الرغبة في التوسع، والتحكم في البلدان، والسيطرة على ثرواتها ومقدراتها من قبل الأمير محمد بن سعود من جهة أُخرى، ومَن يُراجع تاريخه وتطلعاته لا يشكّ في ذلك.

نوافق المستشرق في أنّ الميول الدنيويّة لأميرهم، كانت وراء كلّ غزوة غزاها ابن سعود في نجد وما قاربها، ويدلّ عليه ما جاء في كتاب (تاريخ العربيّة السعوديّة بين القديم والحديث): «**وكان الانشغال الوهابي في بلاد ما بين النهرين يتركّز على أخذ الغنائم من هذه الأقاليم الغنيّة**»[٣٥].

ولكن لا نوافقه على أنّ البيئة التي كان تعيش فيها الوهابيّة، هي التي ولّدت هذا النوع من القسوة، والعنف، والإرهاب، ولعلّ هذا ما ذهب إليه ابن خلدون تحت عنوان (الحتميّة الجغرافيّة)؛ حيث أرجع بعض التصرّفات إلى عامل البيئة ودورها في التأثير على تكوين شخصيّة الفرد فيها.

وهذه النظريّة يمكن دحضها بسيرة النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه، وهم من نفس البيئة، بل أشدّ منها، مما يدلّ على أنّ البيئة ليست علّة تامّة، على أنّ كثيراً من الإرهابيين الجدد ينحدرون من بلدان ذات طبيعة جميلة.

٢ ـ ضعف جبهة المواجهة لمدينة كربلاء

وهذا السبب يتألف من عدّة نقاط:

الأُولى: قلّة العدّة والعدد

كانت الهجمة الشرسة في يوم الغدير، وهو في العادة يوم توجه الزائرين من مختلف أنحاء البلاد الإسلاميّة لزيارة أمير المؤمنين عليه السلام، ومن ضمن هؤلاء الزوّار أهالي كربلاء المقدّسة، فلم يبقَ في المدينة إلّا القليل من الرجال، والأطفال، والشيوخ، والنساء، وبعض الزوار.

يوافينا (لونگريك) بوثيقة تُبيّن أسباب الهجوم على كربلاء المقدّسة: «**انتشر خبر اقتراب الوهابيين من كربلاء في عشيّة اليوم الثاني من نيسان (١٨٠١م)، عندما كان معظم سكان البلدة من النجف يقومون بالزيارة، فيسارع مَن بقيَ في المدينة لإغلاق الأبواب، غير أنّ الوهابيين وقد قُدّروا بستمائة هجان وأربعمائة فارس نزلوا...**»[٣٦].

ويقول (لويس دوكورانسي): «**انتظر عبد العزيز حلول العيد لمحاولة الاستيلاء على البلدة، وقام بتنفيذ خطّته في (٢ نسيان ١٨٠١ م)، وكان ذلك يوم الحجّ إلى مقام علي، فكانت البلدة شبه مُقفرة**»[٣٧].

الثانية: ضعف التحصينات الدفاعية

«**وكان سور المدينة يعني كربلاء مركبّاً**

من أفلاك نخيل مرصوصة خلف حائط من طين»[٣٨].

الثالثة: خيانة الحامية العثمانيّة وتأخّر التعزيزات العسكريّة

«ذكر السائح الهندي ميرزا أبو طالب خان وكان قد زار كربلاء بعد الواقعة أنّ الناس كانوا يتّهمون عمر آغا حاكم البلدة، بأنّه كان متواطئاً مع الوهابيين، وقام بمكاتبتهم، ولم يعمل شيئاً لحماية البلدة، والثابت أنّه هرب إلى قرية قريبة من كربلاء أوّل ما عَلِم بالخطر، فلم يدافع قطُّ، وقد قتله سليمان باشا أخيراً»[٣٩].

وهناك وثيقة أُخرى تدلّ على هذا الأمر «لم يكد يستقرّ به [الوالي العثماني] المقام في الخالص حتى وصله نبأ شيخ المنتفق حمود الثامر، يعلمه بأنّ جيشاً وهابياً قادماً نحو العراق؛ يريد الانتقام لحادثة النجف [وقد كان وقع قتال بين الوهابيّة وأهالي النجف، وقُتل مجموعة من الوهابيّة في النجف]. لم يكن الوالي على وضع يؤهله لمواجهة خطر، فترك الأمر للكهية [وزير الباشوات العثمانيين] علي باشا، والظاهر أنّ هذا الكهية لم يكن متحمّساً للأمر، أو راغباً فيه من أعماق قلبه، فخرج من بغداد، ولكنّه توقّف في موقع الدورة، زاعماً أنّه ينتظر التحاق العشائر به، وبينما كان على وشك مواصلة السفر من هناك، جاء الخبر بالكارثة نتيجة الهجوم الوهابي على كربلاء»[٤٠].

لا ينبغي الشكّ في أنّ بعض الدواعي والأسباب تحتلّ الصدارة في تحريض هجوم الوهابيّة، وبعضها الآخر يحصل على الرتبة الثانية أو الثالثة، وربما لا يرقى إلى أيّ نسبة من الاهتمام، وأعتقد أنّ هذه النقطة المتقدّمة التي عدّها بعضٌ من أسباب الهجوم الوهابي على كربلاء، لا ترقى لتحريك الوهابيّة نحو كربلاء، فضلاً عن كونها سبباً للهجوم، ولمَن تابع أخبار الوهابيّة في الهجوم على كربلاء بعد هذه الوقعة الأليمة، أو هجومهم على النجف الأشرف، يجد خير دليل على انخفاض نسبة هذا السبب في تحريض الوهابيّة على الهجوم على كربلاء المقدّسة.

ومما يدلّ على ذلك ما جاء في (تراث كربلاء): «وقد صارت كربلاء بعد هذه الحادثة في حال يُرثى لها... وفي أوائل القرن التاسع عشر زار المدينة أحد ملوك الهند، فأشفق على حالها... وبنى للبلدة سوراً حصيناً؛ لصدّ هجمات الأعداء، وأقام حوله

الأبراج والمعاقل، ونُصبت له آلات الدفاع على الطراز القديم، وصارت على مَن يهاجمها أمنع من ذي قبل»[٤١].

ومع ذلك عاودت الوهابيّة الهجوم، ولم تترك كربلاء، وقامت بحرق مزارعها، وقتل الزائرين الذين كانوا متوجّهين لزيارة الإمام الحسين عليه السلام، إلّا أنّهم لم يتمكنوا من دخول المدينة؛ بسبب استعداد أبنائها بعد أن علموا بأنّ هؤلاء النكرة متوجّهين للهجوم على مدينتهم.

وبعد فشل حملتهم استعدوا لحملة أُخرى للهجوم، لكنّهم فشلوا أيضاً؛ بسبب تقوية أسوار المدينة، وكانت هذه الحملة عام (١٢٢٠هـ)[٤٢].

فلو كان ذلك هو السبب في الهجوم لمَا تجرّؤوا على الهجوم مرّات بعد وقعة الطفّ الثانية.

وأمّا خيانة الحامية العثمانيّة على كربلاء، وهروب حاكم المدينة، وتأخر الجيش العثماني، فهو الآخر لا يملك رصيداً من القوة؛ لوضعه تحت قائمة أسباب الهجوم على كربلاء المقدّسة.

والسبب واضح جداً كما يظهر من هذه الوثيقة التي جاءت في كتاب (لونگريك) ما نصّها: «**كان ابن سعود هذا ذا قوّة عظيمة في الجزيرة، فأصبحت منذ ذلك الحين تُعرَف إمبراطورية ابن سعود النجديّة بالعقيدة الوهابيّة، وقد توسعت غزواتهم الدينيّة في جميع الجهات. وقد أصبح العراق من قبل (١٢٠٥هـ) يحس بوجود جار حديث غير مستقر**»[٤٣].

فقد تكرّرت هجماتهم على حدود الدولة العثمانيّة آنذاك، ولم يأتِ الصلح المنعقد معهم في بغداد في عام (١٢١٤هـ) بنتائج نافعة للمنطقة.

علاوة على أنّ المدّ الخفي للاستعمار البريطاني الذي كان يُنازع الإمبراطورية العثمانيّة بشتى الوسائل، ومختلف الطرق، ومنها إيجاد مذهب جديد في المنطقة ينافس التوجه الديني للعثمانيين، وكلّ مَن اطّلع على تاريخ الحركة الوهابيّة تبيّن له علاقة محمد ابن عبد الوهاب مع أزلام الاستعمار البريطاني في البصرة وإصفهان، وحتى في نفس الجزيرة العربيّة، ومداومة ذلك فيما بعد من رجال جُدد، فنخلص إلى أنّ هذه النقطة ذات الشُعب الثلاث، لا تُعدّ سبباً من أسباب الهجوم الوهابي على كربلاء المقدّسة.

ولا يخفى على اللبيب أنّ التوسع الوهابي لا يتمّ إلّا بإزاحة العدو القريب منه، وهم العثمانيون، فكيف يقبل مقولة أنّ حاكم كربلاء

العثماني قد تواطأ معهم في الهجوم عليه؟!

ويؤيد ذلك هذه الوثيقة: «**من عبد العزيز إلى قبيلة... واجبكم يدعوكم إلى الإيمان بالكتاب الذي أُرسل لكم، لا تكونوا وثنيين كالأتراك الذين يشركون بالله**»[٤٤].

٣. قتال المشركين واستباحة أموالهم

ليس من الغريب أن يسمع إنسان مسلم شيعي أو سني في القرن الثامن عشر، بأنّ أُناساً في بلاد المسلمين، لا يعرفون من التوحيد شيئاً، ولا يرون التوحيد الحقيقي إلّا اتّباع الحركة الوهابيّة بعد ظهورها، وعليه لا بدّ أن يُدعى المسلمون لدين جديد، هو دين محمد بن عبد الوهاب، ومناصرة دنيا ومُلك ابن سعود.

قال ابن عبد الوهاب لابن سعود: «**إنّي أرجو إن أنت قمت بنصر (لا إله إلّا الله) أن يظهرك الله، وتملك نجداً وأعرابها**»[٤٥].

وكأنّه لا يرى من أهل القبلة أحداً يقول أو ينصر (لا إله إلّا الله).

وبدأ المشروع التوسعي تحت غطاء ديني، ولكنّه بلباس جديد، وأحكام من متبنيّات محمد بن عبد الوهاب؛ لأنّه تنكّر لعقائد المسلمين جميعاً حتى لمذهبه الذي كان عليه، فخالف إمامه أحمد بن حنبل.

وقد أعطى بذلك ـ لأتباعه من أجلاف وعتاة نجد ـ الحجّة لغزو كلّ مَن خالفهم باعتبارهم مشركين، تحلّ دماؤهم، وأموالهم، ونساؤهم[٤٦].

وإليك أيّها القارئ العزيز وثيقة أُخرى من أميرهم سعود في تكفير الشيعة بالخصوص، وكان قد بعثها إلى علي باشا يطلب بها الصلح من العثمانيين، ما نصها: «**من سعود العبد العزيز إلى علي، أمّا بعدُ، ما عرفنا سبب مجيئكم إلى الحسا، وعلى أيّ منوال جئتم، أمّا أهل الحسا فهم أرفاض ملاعين، ونحن جعلناهم مسلمين بالسيف [إلى أن يقول:] فالآن مأمولنا المصالحة، فهي خير لنا ولكم، والصلح سيّد الأحكام**»[٤٧].

وهل توجد صراحة أكثر من هذه الرسالة تُبيّن دين مَن خالفهم، ولم نكن نعلم قبل الوهابيّة أنّ أهل الحسا كفار أو مشركون.

وهذه وثيقة أُخرى من أقرب الناس إلى محمد بن عبد الوهاب، وهو أخوه سليمان، إذ كتب المؤرِّخ الحجازي زيني دحلان: «**وقال له سليمان [لمحمد بن عبد الوهاب] يوماً: كم أركان الإسلام يا محمد بن عبد الوهاب؟ فقال: خمسة، فقال: بل أنت جعلتها ستة، السادس: مَن لم يتبعك فليس بمسلم. هذا**

ركن سادس عندك للإسلام»[٤٨].

وهذا ابن سند البصري يوافيك في وصف الحركة الوهابيّة وكان معاصراً لها تقريباً بقوله: «**... ولولا ما في الوهابيّة من هذه النزعة أعني نزعة تكفير مَن عداهم تملّكوا جميع بلاد الإسلام، وأدخلوهم تحت حكمهم بطوعهم واختيارهم، ولكن بسبب هذه النزعة أبغضتهم الأُمم، وتسلّطت عليهم الدول**»[٤٩].

أمّا العثمانيون بنظر الحركة الوهابيّة، فهم وثنيون، كما يُعبّر عبد العزيز في رسالة له إلى قبيلة من القبائل، يدعوها إلى إسلام محمد بن عبد الوهاب: «**من عبد العزيز إلى قبيلة... واجبكم يدعوكم إلى الإيمان بالكتاب الذي أُرسِل لكم، لا تكونوا وثنيين كالأتراك الذين يشركون بالله، إذا آمنتم نجوتم، وإلّا فنقاتلكم حتى الموت**»[٥٠].

وهذا عامل آخر للهجوم على كربلاء المقدّسة التي كانت تحت النفوذ العثماني، إضافة إلى كون قاطنيها الشيعة أرفاض ملاعين كما يدّعي.

ومن قبلُ فقد: «**توافقت رغبة محمد بن عبد الوهاب، الذي ينشد الدعم العسكري، ورغبة الأمير الطموح، الذي ينشد الدعم الديني في توحيد جهودهما، وتمّ التحالف المنشود**»[٥١].

وكانت هذه الدعوة الجديدة تحتاج إلى فرصة مؤاتية تقتضيها التحضيرات للهجوم على كربلاء، واستغلال الوقت والحال المناسب للغزو، ومما شجع الوهابيين الأنباءُ التي وردت عن دخول جيش نابليون إلى مصر في عام (١٧٩٨م).

وعجز الباب العالي أمام الغازي الفرنسي. وبتتابع الأحداث وفي عام (١٨٠١م) حلّ الإنجليز محلّ الفرنسيين في مصر، والتي كانت تناكف الإمبراطوريّة العثمانيّة لبسط الهيمنة على أرجاء العالم. فغدت الجزيرة العربيّة طرفاً بعيداً عن مسرح العمليّات الحربيّة الرئيس، وهذا ما أطلق يد الوهابيين في مواصلة توسعهم خارج نجد، فاختمرت فكرة الهجوم على كربلاء؛ لنهبها وسلبها، والقضاء على مشركيها، وهدم صرح الشرك والضلال والكفر بزعم الوهابيّة[٥٢].

وطبق النظرة العسكرية للغازي، هجمت الوهابيّة على كربلاء في ربيع (١٨٠١ أو ١٨٠٢م) على اختلاف التواريخ ـ في جيش قوامه على أقلّ التقديرات (١٢) ألفاً بين فارس وهجان ـ على حين غرة من أهلها وفي يوم

الغدير. وقد «**انتظر عبد العزيز حلول موعد العيد؛ لمحاولة الاستيلاء على البلدة، وقام بتنفيذ خطته في (٢ نسيان ١٨٠١م)، وكان ذلك يوم الحج إلى مقام علي، فكانت البلدة شبة مقفرة**»[٥٣].

وفعلوا فعلتهم التي أدانها القريب والبعيد، وسُطِّرت في كتبهم، وتداولوا الحديث عنها في أنديتهم.

كلّ ما قدّمناه من وثائق لسبب الهجوم على كربلاء كان قبل الواقعة، أمّا وثائق ما بعد الواقعة، فتؤكد أنّ السبب في الهجوم كان سببه فكرة تكفيريّة للشيعة، وأنّ كربلاء بلاد الشرك والضلال:

الوثيقة الأُولى: قول أمير الوهابيّة بعد أن خرج من كربلاء، وفعل فعلته النكراء متبجحاً: «**لو لم نكن على الحق لَمَا انتصرنا**»[٥٤]. وفيها دلالة واضحة على الرؤية الطائفية التي يتمتع بها هذا الرجل مع كل ما ارتكبه من قتل ونهب وتخريب في بلاد الإسلام والمسلمين.

الوثيقة الثانية: جاء في تاريخ العربيّة السعوديّة: «**عندما كان الوهابيون يحتلّون واحة أو مدينة، يحطّمون الشواهد والأضرحة على قبور الأولياء والصالحين، ويحرقون كتب الفقهاء الذين يختلفون معهم**»[٥٥].

وهذا ما وقع حقيقةً بعد سيطرتهم على كربلاء؛ إذ اتجهوا نحو الضريحين المقدّسين وخرّبوهما، ونهبوا كلّ ما فيها بعد قتل كلّ أو أغلب مَن التجأ إليهما واحتمى بهما. وهل يجوز احتلال بلاد المسلمين؟! إلّا أنّ الوهابيّة يعتبرون كربلاء بلد كفر وأوثان، وهذا الأمر ليس من نسج الخيال، أو من حكايات الحكواتي، فإنّك تجد اليوم الامتداد لهذا النهج من داعش وأمثالهم.

الوثيقة الثالثة: تقسيم الغنائم حسب الحكم الشرعي، خُمسه لأميرهم، والباقي للغزاة: للفارس سهمان، وللهجان سهم.

جاء في كتاب تاريخ المملكة العربيّة السعوديّة تحت عنوان (مداهمة كربلاء): «**في سنة (١٢١٦هـ)، سار الأمير سعود على رأس قوات كبيرة جمعها في نجد، والعشائر، والجنوب، والحجاز، وتُهامة، وغيرها، وقصد أهل العراق، وتمكّن جماعة من هذه القوة، من الوصول إلى بلدة (كربلاء)، وحاصروها وتسوّروا جدرانها، وخرجوا منها قرب الظهر... فجمع سعود الغنائم وعزل خمسها، وقسّم الباقي بين جنوده: للراجل سهم، وللفارس سهمان**»[٥٦].

وهل يوجد أدّل من تقسيم الغنائم على هذا النحو في غير أموال المسلمين؟

إذاً، فالإرهاب الوهابي على كربلاء كان من نتائج الفكر الوهابي التكفيري، المبتني على عقائد محمد بن عبد الوهاب في تكفير المسلمين، وإن كان الهدف الذي يصبُّ في خدمة التوسع السياسي والسلطوي لا يُغفل في الهجوم على كربلاء المقدّسة.

إذاً، إرهاب الوهابيّة نمط من الإرهاب استغل اسم الإسلام، ولا زال العالم الإسلامي يعيش تبعاته إلى اليوم، وأخبار العراق والشام واليمن شاهد حي على الفكر التكفيري، الذي زُرِع في قلب الإسلام للنيل منه، وإظهاره بأبشع صورة يتنفّر منها الطبع الإنساني؛ بُغية خدمة الأغراض التي تصبُّ في صالح اليهود والاستعمار؛ لوقف التمدد الطبيعي للإسلام البديل الحتمي للأنظمة الأُخرى بعد أن عانت الشعوب في ربوع المعمورة من الظلم الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، وفقد العدل وتحوّلت البلدان إلى غابات بصور آدميين.

الهوامش:

[١] ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة: ج٢، ص٤٤٧.
[٢] الراغب الإصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن: ص٢٣٠.
[٣] ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج٥، ص٣٣٧.
[٤] الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس: ج١، ص٢٨١.
[٥] الكيالي، عبد الوهاب، موسوعة السياسة: ج١، ص١٥٣.
[٦] مصباح ذباره، مصطفى، الإرهاب مفهومه وأهم جرائمه في القانون الدولي والجنائي: ص٤٤.
[٧] الأسود، شعبان طاهر، علم الاجتماع السياسي: ص٩٨.
[٨] عبد السلام، هيثم، مفهوم الإرهاب في الشريعة الإسلاميّة: ص٤٢.
[٩] حريز، عبد الناصر، النظام السياسي الإرهابي الإسرائيلي: ص٢٦.
[١٠] المصدر السابق.
[١١] الحشر: آية١٣.
[١٢] الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج١٩، ص٢١٢.
[١٣] الأنفال: آية ٦٠.
[١٤] الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان: ج١٠، ص٣٩.
[١٥] الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج٩، ص١١٧.
[١٦] الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن: ج٩، ص٥٦٨.
[١٧] الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج١٥، ص٦٩.

[١٨] المصدر السابق: ص٤٣.
[١٩] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٢١، ص١١٧.
[٢٠] الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج١٥، ص٢٧.
[٢١] أُنظر: مغنية، محمد جواد، هذه هي الوهابيّة: ص١٢٣.
[٢٢] السبحاني، جعفر، في ظل أُصول الإسلام: ص٣٤٣.
[٢٣] مغنية، محمد جواد، هذه هي الوهابيّة: ص٧٧ ـ ٧٩.
[٢٤] لجنة التأليف في مركز الغدير، الوهابيّة في صورتها الحقيقية: ص١٩ـ ٢٠.
[٢٥] الكليدار، عبد الجواد، تاريخ كربلاء وحائر الحسين عليه السلام: ص٢٠٨.
[٢٦] أُنظر: زميزم، سعيد رشيد، الهجمات على كربلاء: ص٥٦.
[٢٧] الكليدار، عبد الحسين، تاريخ كربلاء المعلى: ص٢٠ ٢٢.
[٢٨] السماوي، محمد، مجالي اللطف بأرض الطفّ: ص٣٠٩ ـ ٣١٠.
[٢٩] المصدر السابق: ص٢٦٠ـ ٢٦١.
[٣٠] المصدر السابق: ص٢٦٠.
[٣١] وأشعب: اسم رجل كان طمّاعاً. وفي المثل: أطمع من أشعب. الجوهري، الصحاح: ج١، ص١٥٧.
[٣٢] ستيفن هيمسلي، لونگريك، أربعة قرون من تاريخ العراق: ص١٦١، وص٢٦٢.
[٣٣] زميزم، سعيد رشيد، الهجمات التي تعرضت لها كربلاء عبر التاريخ: ص٥٦، نقلاً عن كتاب تاريخ المملكة العربيّة السعوديّة: ج١، ص٧٣.
[٣٤] الكليدار، عبد الجواد، تاريخ كربلاء وحائر الحسين عليه السلام: ص٢٠٨.
[٣٥] الرشيد، مضاوي، تاريخ العربيّة السعوديّة بين القديم والحديث: ص٢٨.
[٣٦] ستيفن هيمسلي، لونگريك، أربعة قرون من تاريخ العراق: ص٢٥٩.
[٣٧] لويس دوكورانسي، الوهابيون (تاريخ ما أهمله التاريخ): ص٧٧.
[٣٨] الكليدار، عبد الحسين، تاريخ كربلاء المعلى: ص٢٢.
[٣٩] خان، أبو طالب (رحلات في آسيا وأوروبا وأفريقيا)، نقلاً عن ستيفن هيمسلي، لونگريك، حاشية ص٢١٥.
[٤٠] الوردي، علي، لمحات اجتماعية: ص١٨٩.
[٤١] آل طعمة، هادي، تراث كربلاء: ص٣٧١.
[٤٢] أُنظر: زميزم، سعيد رشيد، الهجمات التي تعرضت لها كربلاء عبر التاريخ: ص٦٣.
[٤٣] أُنظر: ستيفن هيمسلي، لونگريك، أربعة قرون من تاريخ العراق: ص٢٦١.
[٤٤] لويس دوكورانسي، الوهابيون (تاريخ ما أهمله التاريخ): ص٦٢.
[٤٥] الآلوسي، محمود شكري، تاريخ نجد: ص١٠٦ـ ١٠٨.
[٤٦] أُنظر: الوردي، علي، لمحات اجتماعية: ج١، ص١٨٠.
[٤٧] المصدر السابق: ص١٨٦.
[٤٨] اليكسي فاسيليف، تاريخ العربيّة السعوديّة: ص١٠٦. أُنظر: درويش، تاريخ السعودية: ص٢٦ ـ٢٧.

[٤٩] الوردي، علي، لمحات اجتماعية: ج١، ص٨١ ٨٢.
[٥٠] لوس دوكورانسي، الوهابيون (تاريخ ما أهمله التاريخ): ص٦٢.
[٥١] اليكسي فاسيليف، تاريخ العربيّة السعوديّة: ص١٣١.
[٥٢] أُنظر: المصدر السابق: ص١٣٢.
[٥٣] لويس دوكورانسي، الوهابيون (تاريخ ما أهمله التاريخ): ص٧٧.
[٥٤] البصري، عثمان، مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داوُد: ص٧٤. وأُنظر: محب الدين الخطيب، أمين ابن حسن، خمسة وخمسون عاماً في تاريخ العراق: ص٧٤.
[٥٥] اليكسي فاسيليف، تاريخ العربيّة السعوديّة: ص١١٣.
[٥٦] زميزم، سعيد رشيد، الهجمات التي تعرضت لها كربلاء عبر التاريخ: ص٥٦، نقلاً عن كتاب تاريخ المملكة العربيّة السعوديّة: ج١، ص٧٣.

د. محمد العبادي
أكاديمي عراقي/ جامعة بغداد

الوزير ابن العلقمي
المفترى عليه في سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ

تميزت مواقف علماء الشيعة بالاعتدال والاتزان إنطلاقاً من الأحاديث التي تأمر بأن يسلك الانسان سبيلاً وسطاً للخروج من فكي الافراط والتفريط.

وفي العصر العباسي الأخير كان الشيعة عرضة لحملات طائفية يقودها بعض الطائفيين ضدهم، ولم يكتف أولئك المتطرفون بما يجري على الشيعة، بل استهدفوا علماءهم ورموزهم الدينية والسياسية، حيث سيقت ضدهم تهماً باطلة وفي جميع الاتجاهات، وممن استهدف آنذاك الوزير ابن العلقمي، والخواجة نصير الدين الطوسي وغيرهما، حيث قام الطائفيون وبمساندة العوام بحملات مسعورة ضد الشيعة، ومما يبعث على الأسف زالأسى أن بعض المؤرخين عرضوا الأحداث التاريخية بلهجة مذهبية متعصبة، وتغافلوا عن أقوال المؤرخين الذين لا يؤيدون ذهنيتهم المذهبية بسبب تضارب الأقوال بشأن ذلك العصر ورموزه مما جعل الحقيقة يكتنفها الغموض.

من أجل هذا سوف نسلط الضوء على بعض الأحداث التي حصلت في نهاية العصر العباسي لتتبيّن لنا جلية الأمر في طبيعة التهم الملصقة بالشيعة وعلمائهم، وقبل بيان مواقف ابن العلقمي نتوقف قليلاً للتعرف على شخصيته وملامحها الاجتماعية والعلمية والسياسية وهي:

ابن العلقمي ٥٩٣ - ٦٥٦ هـ

هو محمد بن أحمد بن علي، أبو طالب، أبو طالب، مؤيد الدين الأسدي البغدادي المعروف بابن العلقمي، وزير المستعصم العباسي.[١]

ومن حيث النسب واللقب «**هو أسدي أصلهم من النّيل، وقيل لجدّه العلقميّ لانه حفر النّهر المسمّى بالعلقمي**»[٢].

وهو من أهالي الحلّة السيفية، حيث قضى فجر حياته الأولى فيها[٣].

وله من الأبناء ولدان أحدهما: شرف الدين أبو القاسم علي بن محمد بن العلقمي والذي تولى منصب الوزارة بعد وفاة أبيه[٤] والآخر أبو الفضل محمد بن محمد بن العلقمي وقد كان عالماً وشاعراً وقد ترك أشعاراً منسوبة له[٥].

وتوفي ابن العلقمي في سنة ٦٥٦ هـ في جمادى الاولى سنة ٦٥٦ هـ ودفن في مشهد موسى بن جعفر الكاظم ببغداد[٦].

نشأته العلمية

بدأ ابن العلقمي رحلته العلمية في الحلّة، فقد ذكر الصفدي أن ابن العلقمي في أثناء صباه «**اشتغل بالحلّة على عميد الرؤساء أيوب**»[٧]، وكان قد فاق أقرانه في الأدب فقد أورد ابن الطقطقي ذلك قائلاً «**اشتغل في صباه بالأدب ففاق فيه، وكتب خطاً مليحاً، وترسّل ترسّلاً فصيحاً، وضبط ضبطاً صحيحاً**»[٨] وبعد ذلك ذهب الى بغداد ليدرس علم الحديث عند أبي البقاء عبد الله بن حسين العكبري والذي يعد أحد كبار المشايخ آنذاك فسمع الحديث عنده[٩].

لقد كان ابن العلقمي فرداً في إنشاء الرسائل، وذلك ما يستشف من عبارة الزركلي حيث قال أنه كان «**كاتباً فصيح الإنشاء**»[١٠].

وفي أثناء ذهابه إلى بغداد وطلبه العلم كان مقيماً عند خاله عضد الدين ابي نصر المبارك بن الضحاك والذي كان يشغل منصب استاذ الدار[١١].

ونظراً لسابقته العلمية وفضله في علم الأدب والنحو والحديث فقد «**اشتهر ابن العلقمي بعلمه واستقامته وجودة خطة، وكان من هواة جمع الكتب، كما كان نصيراً للعلم**»[١٢].

وذكر ابن الطقطقي ان ابن العلقمي «**كان**

يحبّ أهل الأدب ويقرّب أهل العلم، اقتنى كتباً كثيرة نفيسة.

حدَّثني ولده شرف الدين أبو القاسم عليّ، رحمه الله، قال: اشتملتْ خزانةُ والدي على عشرة آلاف مجلّد من نفائس الكتب. وصنف له الكتب، فممن صنّف له الصاغاني اللغوي، صنّف له العُباب وهو كتاب عظيم كبير في لغة العرب؛ وصنّف له عزّ الدين عبد الحميد بن أبي الحديد كتاب شرح نهج البلاغة، يشتمل على عشرين مجلداً، فأثابهما وأحسن جائزتهما. وكان ممدّحاً، مدحه الشعراء، وانتجعه الفضلاء»[١٣].

ومن هنا نلاحظ أن ابن العلقمي كان رجلاً عالماً فاضلاً له صلات بأهل العلم والفضل كما هو في علاقته بالسيد رضي الدين بن طاوس حيث كان عشيراً ورفيقاً له، وقد أشار إلى ذلك العزاوي[١٤].

تجدر الإشارة إلى أن ابن العلقمي كان يعتنق المذهب الشيعي الاثنى عشري ولهذا وسَمَه كثير من المؤرخين بالرافضي بغضاً لمذهبه.

ابن العلقمي والانتقال إلى الحياة الساسية

دخل ابن العلقمي ميدان السياسة عن طريق خاله عضد الدين ابن الضحاك، حيث كلّفه بكتابة الرسائل في الديوان، ثم تدرج في سلم المسؤولية الإدارية، وقد ذكر ذلك الغساني بقوله «**ثم انظم إلى خاله استاذ دار الخلافة عضد الدين أبي نصير المبارك ابن الضحاك، وكان شيخ الدولة فضلاً وعلماً ورئاسة وتجربة، فتخلق بأخلاقه وتأدَّب بآدابه، واستنابه في ديوان الأبنية، وشغله بعلم الإنشاء إلى أن توفي خاله، فانقطع ولزم داره، فاستدعى مؤيد الدين إلى دار التشريفات وأمره بالتردد إليها في كل يوم، ومشاركة النواب بها، فلما نقل استاذ الدار أحمد بن الناقد**[١٥] **إلى الوزارة نقل مؤيد الدين إلى استاذية الدار**»[١٦]. وبعد أن توفي ابن الناقد نصّب ابن العلقمي وزيراً مكانه «**وارتقى إلى رتبة الوزارة (سنة ٦٤٢) فوليها أربعة عشر عاماً. ووثق به «المستعصم»** فألقى إليه زمام أموره، وكان حازماً خبيراً بسياسة الملك[١٧].

وقد وصف ابن طباطبا كفاءته السياسية وسلوكه الاداري بقوله كان: «**وقوراً محبّاً للرياسة كثير التجمّل، رئيساً متمسكاً بقوانين الرياسة خبيراً بأدوات السياسة لبيق الأعطاف بآلات الوزارة**»[١٨]. كما أن الغساني

هو الآخر وصف أهلية ابن العلقمي السياسية قائلاً عنه «**كريم الطباع، خير النفس كارهاً للظلم خبيراً بتدبير الملك، لم يباشر قلع بيت ولا استيصال مال**»[١٩].

ومما سبق يتضح ان ابن العلقمي تدرّج في مناصب إدارية مختلفة في مدة تزيد على ثلاث عقود زمنية.

الوزير ابن العلقمي رجل الوسطية والاعتدال في زمن التعصب

كتب صاحب الفخري: أن ابن العلقمي كان رجلاً فاضلاً كاملاً لبيباً كريماً وقوراً[٢٠]. فهو يؤدي وظائفه الإدارية والدينية بشكل جيد، وبعيد عن التعصب لمذهبه، ويحضر في محافل أهل السنّة ومساجدهم ويستمع إلى خطبهم في جامع القصر[٢١].

وكان يدعو الأساتذة من المذاهب الإسلامية إلى إلتزام الاعتدال والابتعاد عن الأساليب التي تثير حساسية الناس، وتهدد وحدتهم ففي سنة ٦٤٥ هـ «**أحضر مدرسو المستنصرية إلى دار الوزير وتقدّم إليهم أن لا يذكروا شيئاً من تصانيفهم، ولا يلزموا الفقهاء بحفظ شيء منها، بل يذكروا كلام المشايخ تأدباً معهم وتبركاً بهم، وأجاب جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي مدرس الحنابلة بالسمع والطاعة، ثم مدرس المالكية سراج الدين عبد الله الشرمساحي، وقال «ليس لأصحابنا تعليقة، فأما النقط من مسائل الخلاف فمما أرتبه**» فبان بذلك عذره، وأما شهاب الدين الزنجاني مدرس الشافعية وأقضى القضاة عبد الرحمن بن اللمغاني مدرس الحنفية، فأنهما قالا ما معناه «**أن المشايخ كانوا رجالاً ونحن رجال**» ونحو ذلك من إيهام المساواة فأنهيت صورة الحال، فتقدم الخليفة أن يلزموا بذكر كلام المشايخ واحترامهم، فأجابوه بالسمع والطاعة[٢٢] إن الوزير كان يمارس دور التهدئة، انطلاقاً من موقعه في الدولة، ويحاول أن يجعل الخطاب الديني أكثر قبولاً.

وكان ابن العلقمي يتعامل حتى مع غير المذاهب الإسلامية بروح العدالة والإنصاف، كما هو في شكوى اليهودي ضد نسيبه وقريبه[٢٣].

سطوة الطائفية ضد الشيعة في العصر العباسي الأخير

تمّت مصادرة حقوق الشيعة الحياتية والاجتماعية والثقافية من قبل الخلفاء الأُمويين وأكثر الخلفاء العباسيين، وأيضاً نبذوا وهُجروا

من الناحية السياسية.

وقد تعرضوا للقتل والسبي وانتهاك أعراضهم لا لشيء سوى أنهم يوالون الرسول وأهل بيته عليهم السلام؛ وإليك بعض نماذج تلك السطوة وكيفية بدايتها بمنع الشعراء إلى أن تطورت، وذلك من خلال الحملات التي قام بها عوام الناس ضد الشيعة. فقد كان متعارفاً حينذاك أن يأتي الشعراء في أيام عاشوراء إلى الوزير ويقرأون قصائدهم في رثاء الحسين وأهل بيته إلا أنه في سنة ٦٤٧ هـ لم يحضروا عند الوزير ما عدا نفر واحد.

ففي أول المحرم سنة ٦٤٧ هـ لم يحضر أحد من شعراء الديوان إلا ابن أبي الحديد فأورد قصيدة[٢٤]. وتم تبرير وتوجيه عدم مجيء الشعراء بفيضان دجلة!!

وفي سنة ٦٤٨ هـ منع أهل الكرخ والمختارة في بغداد من النياحة والإنشاد وقراءة مقتل الحسين عليه السلام؛ خوفاً من تجاوز ذلك إلى وقوع فتنة![٢٥].

وفي سنة ٦٥٠ هـ تجدد منع الشيعة من ممارسة شعائرهم الدينية، وبنفس الذريعة فمنعوا من قراءة المقتل في يوم عاشوراء خوفاً من وقوع الفتنة!!.

وفي سنة ٦٥٣ هـ قام أولئك الذين يطففون في موازينهم المذهبية بالهجوم على الشيعة في عقر دارهم بهجومين: الأول في المحرم، والهجوم الثاني في ذي القعدة، وقد ذكر ابن الفوطي ذلك فقال: «**في محرم حدثت فتنة بين أهل الكرخ وباب البصرة، قتل فيها عدة كثيرة من الفريقين، ودام الشر بينهم، فأرسل الديوان طائفة من الجند نزلوا بين المحلتين لمنع الفتنة فمالوا على أهل الكرخ، ونهبوا الدور المتطرفة منها، ثم أخذوا خطوط المشايخ[٢٦] من أهل المحلتين بكف الجهال عن الشر، ونصبت أخشاب على أبواب المحلتين لصلب من يثير الفتنة، فكفوا أنفسهم، ثم عادوا الى ذلك في ذي القعدة فخرج العسكر لكفهم عن ذلك فلم يمتنعوا وقتل بينهم خلق كثير، ثم اصطلحوا ظاهراً، فعاد العسكر عنهم، وتجدد بسبب ذلك بين محال أهل بغداد فتن من أجل المذهب فكفهم الديوان ومنعهم**»[٢٧].

وفي سنة ٦٥٤ هـ قام الطائفيون بحملة مسعورة أُخرى ضد الشيعة وذلك في «**ذي الحجة، قتل أهل الكرخ رجلاً من أهل قطفتا فحمله أهله إلى باب النوبي، فدخل جماعة من الخدام إلى الخليفة، وعرفوه وعظموا ذلك ونسبوا إلى أهل الكرخ كل فساد، فأمر بردعهم فركب الجند إليهم، وتبعهم العوام**

ونهبوا محلّة الكرخ، وأحرقوا عدة مواضع، وسبوا كثيراً من النساء والعلويات والخفرات، وسفكوا الدماء، وعملوا كل منكر، وكان الجند والعوام يتغلّبون على من قد نهب شيئاً فيأخذونه منه، وعظمت الحال في ذلك فخوطب الخليفة في أمرهم بالكف عنهم ونودي بالأمان، فدخل جماعة من الكرخ إلى منازلهم وقد تخلّف بها قوم من العوام وغيرهم فقتلوهم ثم تقدم الخليفة إلى الجند وغيرهم باحضار ما نهبوه إلى باب النوبي فأحضروا شيئاً كثيراً، فرد على من عرف ماله ما وجده وكان شيئاً لا يحصى كثرة، ونودي بحمل النساء والأسرى إلى دار الرقيق فحملوا وأعيدوا إلى أربابهم ثم حصل الذي كانت الفتنة بسببه، وقتل وصلب قاتل القطفتي بباب الكرخ»[٢٨].

إن قاتل الشخص القطفتي قد قتل وصلب، أما قتلة الشيعة ومنتهكوا أعراضهم فاعفوا من ذلك. إن هذه الاجراءات وغيرها تشير إلى أن الشيعة هم عبارة عن مواطنين من الدرجة الثالثة أو الرابعة، فقاتلوهم لا يقاصّون، وبائعوهم في أسواق الرقيق لا يحاسبون!!

وفي سنة ٦٥٥ هـ «**ثارت فتنة مهولة ببغداد بين السنّة والرافضة**[٢٩] **أدت إلى نهب عظيم وخراب وقتل عدّة من الرافضة**»[٣٠]. وقريب من هذه القصة يوردها الذهبي في تأريخه[٣١].

ومما هو جدير بالذكر أن كلمة (الفتنة) التي اتفقت عليها كلمة المؤرخين السنة ما هي إلا لتضليل القارئ في أن الشيعة وباقي المذاهب كانوا على حد سواء في إذكائها وإدامة نيرانها، في حين أن الواقع التاريخي يثبت أن الشيعة كانوا ضحية لاولئك النواصب، وهم يقومون برد فعل ليس إلاّ، كما أن هذه الهجمات المحمومة كانت متزامنة مع إحياء المناسبات الدينية عند الشيعة في شهر ذي الحجة، ومحرم، وصفر، وهو مايشير الى ضيق أفق الآخرين وغليان مرجل الطائفية في صدورهم؛ فهم لايستطيعون أن يشاهدوا الشيعة في محافلهم ومراسمهم مجتمعون.

إن هذه الأوضاع المتوترة وفي عاصمة الخلافة العباسية تشير الى أن الجبهة الداخلية كانت هشة جداً، وقد كان العامل الطائفي يقبع خلف كل هذا التفكك. إنه يشير الى وجود علماء يحركون في الناس غرائزهم وعواطفهم عندما تأتي مناسبات الشيعة، ولذا كان الشيعة ضحايا تلك الهجمات التي غالباً ما تصدر من الطائفيين.

كل هذا التشرذم والتشتت والضياع، وهم لاهون عن الخطر الخارجي المتمثل بالمغول

الـذين كـانوا يتقـدمون بإضـطراد فـي قضـم وإحتلال الأراضي الإسلامية شرقاً منـذ حـوالي أربعة عقود، وقد أصبحوا على مرمـى حجـر مـن عاصمة الخلافة العباسية!.

الجيش في العصر العباسي الأخير

كـان المستنصـر العباسـي قـد اسـتكثر مـن الجنـد حتـى بلـغ مائـة ألـف، ولـم يسـتفد هـذا الخليفة من هـذه القـدرة العسـكرية فـي الـدفاع عن حياض الـوطن الإسـلامي الكبيـر، كمـا أن الخليفة المستعصم العباسي هو الآخر لم يستفد من الجيش بل إنه قام بتسريح الجيش وتفكيك قواه العسكرية.

فقد ذكـر الـذهبي فـي تأريخـه أن «**الخليفـة أهمل حال الجند وتعثّروا، وافتقروا، وقُطعـت أخبارهم، ونُظِم الشّعر في ذلك**»[٣٢].

وذكر ابـن شـاكر الكتبـي «**أن الخليفـة قـد أهمل حال الجنـد ومـنعهم أرزاقهـم، فآلـت أحوالهم إلى سؤال الناس، وبذل وجوههم في الطلب في الأسواق والجوامع**»[٣٣].

فالخليفة هـو المسؤول الأول والأخيـر عـن اضعاف قدرة الجيش ولا حاجـة إلـى إلقـاء تبعـة سوء التدبير في عهدة الوزير ابن العلقمي

لقد كان الجيش يعاني من المشكلة الماليـة قبل أن يأتي الوزير ابن العلقمي للـوزارة، أي فـي زمن الوزير ابـن الناقـد، ففـي شـعبان مـن سـنة ٦٤٠ هــ حصـلت وقعـة الأتـراك حيـث حضـر جماعة مـن المماليـك الظاهريـة والمستنصـرية عند شرف الدين اقبـال الشـرابي وطلبـوا الزيـادة في معايشهم وبالغوا في القول، والجد في الطلب فرد عليهم، وقال: ما نزيدكم بمجرد قولكم، بـل نزيد منكم من نزيد إذا أظهر خدمة يستحق بها، فنفـروا مـن فـورهم إلـى ظـاهر السـور وتحـالفوا وتعاضـدوا، وطالـت المسـألة إلـى أن حسـمت وحلت برجوعهم واعتذارهم[٣٤].

وكانت المشكلة الاقتصادية التي تعاني منها الخلافة، مضافاً إلى حالة البخل التي يتصف بها الخليفة وعـدم خبرتـه فـي ادارة المـوارد الماليـة هما السبب في انحلال الجيش، ولو كان الوزير ابن العلقمي هو السـبب لثـاروا عليـه، وقـد ذكـر الذهبي أن الجند ثاروا، ولم ينحوا باللائمـة علـى الوزير. ففي سنة ٦٤٨ هـ «**ثـارت طائفـة مـن الجُند ببغداد ومنعوا يوم الجمعة الخطيب مـن الخطبة، واستغاثوا لأجل قطع أرزاقهم**»[٣٥].

وفي سنة ٦٥١ هـ «**نزح خلْقٌ من الجند من بغداد إلى الشام لقطع أرزاقهم**»[٣٦].

لقـد كـان الطـائفيون يمارسـون نوعـاً مـن الإسـقاط فالتعـاون مـع المغـول كـان مـن قبـل

الأمـراء والملـوك مـن المنتسـبين للمـذاهب الأخـرى فـي حـين أنزلـوا التهمـة علـى الـوزير الشيعي ابن العلقمي (رمتني بدائها وانسلت)! إن المغول بقيادة هولاكو تحركوا باتجاه الغرب وقدّم لهـم أُمـراء تركسـتان ومـا وراء النهـر فـروض الطاعـة[٣٧]، وتوجـه الملـك الكامـل محمـد بـن شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين إلى خدمة هولاكـو فأكرمـه وأمّنـه[٣٨]، وآخـرون قـدّموا طـاعتهم لهولاكـو وزادوا بـأن طلبـوا نجـدة مـن هولاكو للتخلص من المماليك، كما فعـل ذلـك الملك الناصر صاحب دمشق.

وقد أمر هولاكو بإرسال عشرين ألـف فـارس معه ضد المماليك[٣٩]. وغيرهم أيضاً تعـاونوا مـع المغول.

وقد أصاب الدكتور القزاز بقوله عنـد تحميلـه جـزءاً مـن المسـؤولية علـى الأُمـراء بسـبب انقسـاماتهم وصـراعاتهم مـن دون أن يقـدّروا المرحلـة الخطيـرة التـي يعيشـها العـالم الإسلامي[٤٠].

أما بشـأن المراسـلات والكتـب التـي نسـبها البعض فيما بـين ابـن العلقمـي والمغـول، فهـي محـض إفتـراء، وجهـل بالأحـداث التأريخيـة وتجاوز لنصوصها.

فقـد كـان مـن الأعـراف السـائدة فـي ذلـك الزمان عندما يرسل مبعوثاً مـن أحـد الأمصـار أو من بلد معين أن يكون هناك استقبال رسمي له في سور البلد خارج بغداد ويقوم باستقباله أستاذ الدار ومعه جماعة من الجند، وبعد ذلك يأتي إلى الوزير ليعرض ما عنده، وكمثال علـى ذلـك فـي سنة ٦٤٣ هـ وصل إلى بغداد رسول من المغـول وتم استقباله من قبل رجال الدولة، وتم استقباله من قبل الوزير[٤١]. إلا أن هنـاك بعـض الأخبـار المغرضة تحاول التشكيك في نزاهة الـوزير ابـن العلقمي (ففي سـنة ٦٤٤ هــ قـدم رسـولان مـن التتـر واجتمعـا بـالوزير وتعمّـت[٤٢] علـى النـاس بواطن الأمور.)[٤٣] ويصـور لنـا بعضـهم الحادثـة وكأن الوزير يجري مفاوضات سرية مع المغـول، والناس خفي عليهم مـا يـدور خلـف الكـواليس. في حـين أن الخليفـة وأركـان دولتـه بمـا فـيهم الوزير كانوا لا يذيعون ما دار بينهم وبين المغـول إلى الناس، فضلاً عن أنهم لا يشركون أحداً في أمورهم.

وكيف للخليفة أن يبقـي الـوزير فـي منصـبه إلـى سـنة ٦٥٦ هــ ويعلـم أنـه يجتمـع بـالمغول ويتآمر عليه؟. وقد كان الوزير ابـن العلقمـي فـي سنة ٦٤٤ هـ تربطه بأكثر أرباب الدولة علاقـات وثيقة فكيف يتآمر عليهم.

كما أن المقريزي هو الآخر لمز ابن العلقمي

في قضية تردد الرسل إليه فقال: في سنة ٦٥٤ ؟ جاءت رسل المغول وقد اجتمعوا وتحدّثوا مع الوزير ابن العلقمي[٤٤].

وهناك مؤرخين قالوا وبشكل واضح حقيقة ما بعث به هولاكو إلى ابن العلقمي، ولم يحاولوا أن يعرضوا الخبر على أنه خيانة قام بها ابن العلقمي في مجيء الرسل إليه فقد ذكر ابن العبري: أن هولاكو أثناء حصاره لقلاع الملاحدة بعث إلى الخليفة يطلب نجدة فأراد أن يسير جيشاً إليه، فلم يقدر، ولم يمكنه الوزراء والامراء[٤٥].

كان ذلك في ٦٥٤ هـ فإذن هولاكو بعث بالرسل إلى الخليفة لأجل هذا الغرض وهو تزويده بجيش أو نجدة يساعدونه في حصاره لقلاع الاسماعيلية في منطقة الألموت.

كما أن هولاكو عندما أراد التوجه إلى بغداد في سنة ٦٥٥ هـ أرسل رسولاً آخر إلى الخليفة وعاتبه على إهماله تسيير هؤلاء الرسل عندما يأتون يستقبلهم الديوان، ويبعث بهم إلى الوزير، ومن ثم يأتون إلى الخليفة.

إنّ بعض المؤرخين وبدوافع طائفية ساق الأخبار التاريخية على غير وجهتها من أجل تعليق كل مايجري في العالم الإسلامي بعامل واحد وهو شخص ابن العلقمي.

من المفارقات ان صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ كان قد تعاون مع المغول وأرسل لهم الإمدادات من السلاح والميرة وأكثر من ذلك فإن صاحب الموصل قد أرسل ولده الملك الصالح ركن الدين وهيأ لهم الولائم والإقامات ثم بعد كل هذا التعاون من صاحب الموصل يتعامى بعض المؤرخين عن مجريات الأحداث التاريخية ويقولون أن الوزير ابن العلقمي قد منع وصول رسائل صاحب الموصول بدر الدين لؤلؤ الى الخليفة وحجبها عنه لكي لايعرف الخليفة عن المغول شيء وحجبها ابن العلقمي إن صاحب الموصل كان قد تعاون مع هولاكو، وأرسل مدداً من الموصل برفقة ولده الملك الصالح ركن الدين، وكان لؤلؤ قد هيأ لهم الإقامات والسلاح[٤٦].

فأي رسائل لصاحب الموصل كان الوزير يخفيها عن الخليفة؟ وما مدى أهمية تلك المعلومات التي يقدّمها والمغول منذ أربعة عقود يتحركون ويقتلون في بلاد المسلمين؟! وهل تستحق أن يأخذ بها الوزير؟!.

الوزير ابن العلقمي أبدى النصح للخليفة

المعلومات عن احتلال بغداد كانت بيّنة،

وقد أوضحتها المصادر التاريخية بوضوح، إلا أن بعض الاقلام عرضتها وكأنها جميعاً حصلت في ساعة واحدة، أو كأنّها كلّها حدثت في أثناء حصار بغداد.

إن الوزير ابن العلقمي عرف أن هولاكو رجل يستطيع الخليفة أن يمدّه بهدية ومال ويثنيه عن القدوم الى بغداد، لذلك عرض نصيحته بأن يقدم له هدية علناً أمام الملأ، إلا أن أعداءه حتى في تلك اللحظات كانوا حانقين عليه فاتهموه بأنه يدبر أمر نفسه، وقالوا ان لدينا القدرة على مواجهة المغول!!

ولكننا نتساءل ونقول: أيهما أحق أن يتبع دفع المال إلى هولاكو وإقناعه بذلك أم مواجهته بجيش ضعيف واختار الخليفة رأي الوزير، إلا أن الدويدار[٤٧] وجنده آثروا مخالفة الوزير مهما كانت النتائج واتهامه بالضعف، وجرّبوا خيار الدويدار فسقطت بغداد وقتل أهلها.

وقد قالوا إن ابن العلقمي خرج إلى هولاكو فتوثق منه لنفسه وأجرى مع هولاكو اتصالاً[٤٨].

وهذه الحقيقة بعكس ما ورد في النصوص الصريحة وغير القابلة للتأويل فقد كان خروج الوزير بطلب من الخليفة وقدّر الوزير أن ذهابه إلى هولاكو فيه مخاطر، والبلد تحتاج إلى تدبير، فخرج الوزير إلى الخليفة «**وقال: يا مولانا إذا خرجتُ فمن يُدبّر البلد ومن يتولّى المهامّ؟ فقال له الخليفة: لا بدّ أن تخرج. فقال: السمع والطاعة**»[٤٩]. إن خروج الآخرين لملاقاة هولاكو كابن الجوزي وسليمان شاه وغيرهم لا يثير ريبة[٥٠] في حين خروج الوزير وبطلب من الخليفة يثير الشكوك!! ما لكم كيف تحكمون؟!

وهناك ملاحظة جديرة بالاهتمام، وهي أن الوزير كان على طاعة الخليفة إلى اللحظات الأخيرة، وهو ما ذكر في النص، ولو كان قد خامر وتخابر مع المغول أو تعاون معهم، فإنه سيتنمّر على الخليفة والدويدار وأركان الدولة عندما وصلت جيوش المغول بغداد، غير أن أياً من ذلك لم يحصل.

أما القصة المفتعلة في العرض الذي قدّمه الوزير للإيقاع بالخليفة في زواج ابنه من ابنة هولاكو، فهي قصة عجيبة، ولا ندري كيف استساغ بعض المؤرخين تصديق مثل هذه القصة التي لا يرتضيها من له بقية من عقل، وقد قبلها بعض المؤرخين تحت سطوة التعصب المقيت!!

إذ كيف يعقل ان هولاكو يريد تزويج ابنته من ابن الخليفة وهو على أبواب بغداد، وفي قبضته وقد قطع طريقاً طويلاً مع جيشه العرمرم الذي كان يأتي القرى فيهلك أهلها، ويستبيح

حرماتها؟! وإليك ما أورده ابن العبري حيث ذكر انه بعد الاستيلاء على أسوار بغداد وتسللهم من برج العجمي «**أمر هولاكو أن يخرج إليه الدويدار وسليمانشاه، وأما الخليفة ان اختار الخروج فليخرج وإلا فليلزم مكانه. فخرج الدويدار وسليمانشاه ومعهما جماعة من الأكابر، ثم عاد الدويدار من الطريق بحجة أنه يرجع ويمنع المقاتلين الكامنين بالدروب والأزقّة لئلا يقتلوا أحداً من المغول، فرجع وخرج من الغد وقُتل. وعامة أهل بغداد أرسلوا شرف الدين المراغي وشهاب الدين الزنكاني ليأخذ لهم الأمان. ولما رأى الخليفة أن لا بد من الخروج أراد أو لم يرد استأذن هولاكو أن ينزلوه بباب كلواذي وشرع العساكر في نهب بغداد، ودخل بنفسه إلى بغداد ليشاهد دار الخليفة وتقدّم باحضار الخليفة فأحضروه، ومثل بين يديه وقدّم جواهر نفيسة ولآلئ ودرراً معبَّاة في أطباق ففرَّق هولاكو جميعها على الأُمراء...**»[٥١].

لقد قدّم الخليفة العباسي الهدايا النفيسة الى هولاكو بعد أن قضي الأمر واستوت على الجودي، وفي حالة واضحة للإنهزام ذهب عدد من الوجوه السياسية والإجتماعية والدينية في بغداد الى هولاكو يطلبون منه الأمان!!!، ولو كان لإبن العلقمي وجاهة عند هولاكو أو تعاون معه لذهب الناس له تحت ضغط عوامل الخوف والفزع ليتوسل لهم عنده أن يستبقيهم، وأن لاينزل عليهم سيفه، لكن لم يحدث شيئاً من ذلك.!

ولو كان الشيعة متواطئين مع المغول لما ركبهم السيف، ولو كان الوزير قد تواطأ معهم لشاهدناه مرشداً واضحاً للمغول في تلك الأحداث الجسام، لكنه كان مسلوب الإرادة والقوة أمام تلك السطوة للمغول وتخاذل الناس.

ثم ان الوزير له تاريخ حسن ضد المغول، فهو الذي كان يدير العمليات العسكرية ضد المغول في سنة ٦٤٣ هـ، وألحقوا بالمغول الهزيمة، وكان قائدهم آنذاك بجكتاي[٥٢] ولو كان ابن العلقمي قد تعاون مع المغول لما وبخه هولاكو، ولما قتله شر قتلة في أول سنة سبع وخمسين وستمائة، وذلك ما ذكره صاحب تاريخ الخميس[٥٣]، أو على الأقل أنه توفي بعد الغزو المغولي بثلاثة أشهر وفي ظروف غامضة، ولو كان المغول أكرموه لكان بعض المؤرخين قد أثبت التهمة الموجهة إليه بأنه ساعدهم وأكرموه إلاّ أنّ المغول كانوا يرون فيه عدواً لهم، ولذا «**ذاق من التتار الذّل والهوان، ولم تطل أيامه**»[٥٤].

وقد كتب المؤرخون عن بعض أولئك الأمراء الذين خدموا المغول، فلم يكتبوا لنا أنهم قد ذاقوا الهوان منهم، إلا أن بعض المؤرخين جرى وراء تعصبه في اصدار الأحكام جزافاً.

تجدر الإشارة إلى أن الوزير ابن العلقمي هو من بني أسد ولد في الحلة ولم يكن فارسياً، ولا عيب في أن ينحدر الإنسان من قومية معينة، إنما العيب أن يسخر مسلم من قومية معينة[٥٥].

وعليه يظهر أن الوزير مؤيد الدين بن العلقمي كان خبيراً بأمور الملك، وكان يرى أن البلد بحاجة الى الإستقرار والوحدة والتلاحم وقد أوصى العلماء بنبذ الخلاف والفرقة، ولم يتخابر أو يتعاون مع المغول، على عكس أولئك الملوك والأمراء الذين بذلوا مودتهم وأبدوا تعاونهم مع المغول.

الهوامش

[١] الأعلام: الزركلي، ج٥ ص٣٢١.
[٢] الفخري في الآداب السلطانية: ابن الطقطقي، ج١ ص٢٤١.
[٣] انظر: فوات الوفيات، ابن شاكر الكتبي، ج١ ص١٨٦.
[٤] جامع التواريخ: رشيد الدين فضل الله الهمداني، ج٣ ص٦٢.
[٥] انظر العسجد المسبوك: الأشرف الغساني، ص٥٧٤ و٥٨٢ و٥٩٤، ونحوه في أنوار المشعشعين: الشيخ محمد علي بن الحسين النائيني ج٣ ص٣٩٧.
[٦] الأعلام: الزركلي، ج٥، ص٣٢١.
[٧] الوافي بالوفيات: الصفدي، ج١ ص١٨٦.
[٨] الفخري في الآداب السلطانية: ابن الطقطقي، ص٣٣٧.
[٩] الوافي بالوفيات: الصفدي، ج١ ص١٨٦.
[١٠] الأعلام: الزركلي، ج٥ ص٣٢١.
[١١] صاحب الديوان عند الخليفة الناصر لدين الله.
[١٢] دائرة المعارف الاسلامية: مجموعة من المستشرقين، ج١ ص٢٤١.
[١٣] الفخري في الآداب السلطانية: ابن الطقطقي، ص٣٣٧.
[١٤] تاريخ العراق بين احتلالين: عباس العزاوي، ج١ ص٢٦٢.
[١٥] كان ابتداء أمره وكيل للخليفة المستنصر، فمكث مدة في الخلافة، ثم انتقل منها إلى استاذية الدار، ثم منها إلى الوزارة. انظر: الفخري في الآداب السلطانية: ابن الطقطقي، ص٣٣١.
[١٦] العسجد المسبوك: الأشرف الغساني، ص٦٤٠.
[١٧] الأعلام: الزركلي، ج٥ ص٣٢١.
[١٨] الفخري في الآداب السلطانية: ابن الطقطقي، ص٣٣٧.

[١٩] العسجد المسبوك: الأشرف الغساني، ص٦٤٠.
[٢٠] الفخري في الآداب السلطانية: ابن الطقطقي، ص٣٣٧.
[٢١] العسجد المسبوك: الأشرف الغساني، ج٢، ص٥٦٣.
[٢٢] الحوادث الجامعة: ابن الفوطي، ص١٠٨.
[٢٣] المصدر نفسه: ص١٢٢.
[٢٤] العسجد المسبوك: الاشرف الغساني، ج٢ ص٥٧١.
[٢٥] الحوادث الجامعة: ابن الفوطي، ص١٢٢.
[٢٦] خطوط المشايخ: أخذوا تعهداً من المشايخ من كلا الطائفتين «**الشيعة والسنة**» بكف الناس ونصحهم عن تبادل التهم فيما بينهم.
[٢٧] الحوادث الجامعة، ابن الفوطي، ص١٣٥.
[٢٨] الحوادث الجامعة: ابن الفوطي، ص١٥٢.
[٢٩] من المحتمل أن تكون هذه الحادثة هي نفسها حصلت سنة ٦٥٤ هـ واختصرها صاحب تاريخ الخميس، وذكرها في حوادث سنة ٦٥٥ هـ
[٣٠] تاريخ الخميس: الديار بكري، ج٢ ص٢٧٦.
[٣١] تاريخ الاسلام: الذهبي، ج٤٨ ص٢٩.
[٣٢] تاريخ الاسلام: الذهبي، ج٤٨ ص٤٢.
[٣٣] عيون التواريخ: ابن شاكر الكتبي، ج٢٠ ص١٢٩.
[٣٤] الحوادث الجامعة: ابن الفوطي، ص٨٦.
[٣٥] تاريخ الاسلام: الذهبي، ج٤٧ ص٦٣.
[٣٦] المصدر نفسه: ج٤٨ ص٨.
[٣٧] تاريخ الاسلام: الدكتور حسن ابراهيم حسن، ج٤ ص١٥٤.
[٣٨] تاريخ الاسلام: الذهبي، ج٤٨ ص٢٥.
[٣٩] السلوك لمعرفة دول الملوك: المقريزي، ج١ ص٥٠٠.
[٤٠] الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير: محمد صالح داود القزاز، ص٣٢٣.
[٤١] الحوادث الجامعة: ابن الفوطي، ص١٤١.
[٤٢] خفيت.
[٤٣] تاريخ الاسلام: الذهبي، ج٤٧ ص٢٩.
[٤٤] السلوك لمعرفة دول الملوك: المقريزي، ج١ ص٤٩١.
[٤٥] تاريخ مختصر الدول: ابن العبري، ص٢٦٩.
[٤٦] تاريخ الاسلام: الذهبي: ج٤٨ ص٣٥.
[٤٧] قائد الجند.
[٤٨] تاريخ ابن الوردي: ابن الوردي، ج٢ ص٢٨١.

[٤٩] الفخري في الآداب السلطانية: ابن الطقطقي، ص٣٣٨.
[٥٠] انظر: تاريخ مختصر الدول: ابن العبري، ص٢٧٠ – ٢٧١.
[٥١] المصدر نفسه: ص٢٧١.
[٥٢] شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد المعتزلي، ج٨ ص٢٣٩.
[٥٣] تاريخ الخميس: الديار بكري، ج٢ ص٣٧٧.
[٥٤] تاريخ الخلفاء: جلال الدين السيوطي، ص٥٥٦.
[٥٥] الأعلام: الزركلي، ج٥ ص٣٢١.

أ. حسن على الهاشمى
باحث إسلامي/ العراق

الأسس المنهجية لتقسيم المدارس الاستشراقية نقد وتأصيل

إنَّ المراجعة الدقيقة لتقسيم المدارس الاستشراقية من قبل مختلف الباحثين إلى القول: بعدم وجود مثل هذه المدارس لما تعنيه المدرسة من وضوح نظرياتها ومعالمها والتي بموجبها يكون وصفها بالمدرسة مناسباً لمخرجاتها الراسخة في مجال معين، ولكن يجد الباحث نفسه أمام مسمّى المدرسة، وهي في واقعها محاولات متواضعة لم يكتب لها النجاح. وهنا تبرز إشكاليات التقسيم ومناهجه المعتمدة في تصنيف المستشرقين أو حتى تقسيم الفكر الاستشراقي بناءً على محددات غير دقيقة، ومن ذلك ما فعله (الهراوي)[1]، فقد عمد إلى تصنيف المستشرقين إلى ثلاث مدارس، على النحو الآتي:

١ ـ المدرسة المختصّة بالمباحث القرآنية.

٢ ـ المدرسة المختصّة بحياة النبيّ الأكرم وسيرته.

٣ ـ المدرسة المختصّة بالتاريخ العربي.

ولكنه تقسيم غير واضح المعالم، ضبابي الملامح، ولا يستقيم لا عكساً ولاطرداً، وذلك لأنه يحصر الاستشراق بالجانب الإسلامي. مضافاً إلى استحالة تصوّر مدرسة استشراقية تعنى بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله

ولا تبحث في القرآن الكريم، أو تفصل التاريخ العربي عن جانبه الإسلامي، وتأثير القرآن فيه. فإننا لو أخذنا صاحبنا (ثيودور نولدكه) مثلاً، لوجدناه قد كتب في تاريخ القرآن، وهو الكتاب مورد البحث، كما ألف في السيرة النبوية كتابه (حياة محمد عرض مبسّط مستمدّ من المصادر)، وأسهم في مجال الكتابة عن التاريخ الإسلامي، إذ اضطلع بالجزء الخاص بالساسانيين عند إخراج طبعة ليدن النموذجية لتاريخ الطبري، وشفعها بترجمة ألمانية هي: (تاريخ الفرس والعرب في عصر الساسانيين). وبذلك يدخل عضواً في جميع المدارس التي اقترحها الهراوي. وكان بإمكان الهراوي أن يضيف إلى مدارسه الاستشراقية المقترحة (المدرسة الأدبية واللغوية)، التي تعنى بالتراث الأدبي للشرق والعرب، كالأدب الجاهلي، أو الإسلامي بعصريه الأموي والعباسي. وسيمكن لنولدكه أيضاً أن يدخل هذه المدرسة من أوسع أبوابها بسبب إسهامه في الكثير من الأعمال التي قام بها في هذا المجال، ومنها كتاباه: (مختارات من الشعر العربي)، و(نحو اللغة العربية الفصحى).

وهناك محاولة خجولة أخرى قام بها الدكتور (نجيب العقيقي)[٢]، قسّم فيها الاستشراق إلى مدرستين، هما:

١ ـ المدرسة السياسية التي تبحث في الأدب بمفهومه العام.

٢ ـ المدرسة الأثرية التي تهتم بالآثار.

وعلى الرغم من هذا التقسيم والتصنيف، نجد الدكتور (العقيقي) نفسه، قد خصص جزءاً كبيراً من كتابه لدراسة المستشرقين على أساس تقسيمهم إلى مدارس جغرافية، ومع ذلك لم يتطرّق إلى بيان ما يميّز كلّ مدرسة من الأخرى، بل حصر اهتمامه بأشخاص المستشرقين، وكأنه قد اقتنع في نهاية الأمر بالتوزيع الجغرافي للمستشرقين، وعدل عن التقسيم الأول، حتى خرج كتابه في طبعته الجديدة دون أن يضمّنه فصلاً خاصاً بالمدارس الاستشراقية[٣].

أمّا نحن فنقول: لا بأس بتقسيم المدارس الاستشراقية على الأساس الجغرافي، ولكنه حتى في هذه الحالة ينبغي أن يخضع لمتبنيات علمية تميز الاستشراق الفرنسي من الاستشراق الألماني مثلاً، وإنّ المناهج المتبعة في هذه المدرسة الاستشراقية تختلف عن المدرسة الاستشراقية الأخرى في مناهجها ومتبناياتها. إلا أننا لا نجد من ذلك شيئاً، ونجدهم يميزون المدارس الاستشراقية المزعومة على الأساس

الجغرافي على أمور سطحية وقشرية يقحمونها إقحاماً، حتى لتكاد تكون مضحكة لشدة ما يبدو عليها من الصنعة والتكلف، من ذلك مثلاً أنهم يميزون المدرسة الاستشراقية الإيطالية من غيرها بحضور الكثير من المستشرقات والعناصر النسوية، من أمثال: (ماريا نللينو)[٤] وهي بنت المستشرق (كارلو نللينو). و(أولجا بنتو)[٥]، و(أنجيلا كوداتزي)[٦]، و(إيستر بانيتا)[٧] وغيرهنّ. وكأن مجرّد الحضور النسوي يجعل من الاستشراق الإيطالي مدرسة. كما أنهم يشيرون إلى ظاهرة التوريث في الاستشراق الإيطالي، حيث نجد الأولاد يكملون مسيرة آبائهم، ونذكر مثالاً على ذلك: (ميكلنجلو) ابن (جويدي)، و(فرانتشيسكو) ابن (غبريالي).

وكما ترى، فإن مجرد الحضور النسوي، أو توريث الآباء الصنعة لأبنائهم، لا يصحّ مقياساً علمياً لتحديد معالم مدرسة من المدارس.

ولتوضيح الفكرة أكثر، نضرب مثلاً بتقسيم المدارس النحوية وحصرها في المدرستين الكوفية والبصرية، فإنّ الكوفة والبصرة وإن كانتا حاضرتين جغرافيتين، ولكننا لا نجد للتراب مدخلية في هذا التصنيف، فهناك نحاة مبثوثون في كافة الأقطار والعواصم الإسلامية في الحجاز، والمغرب العربي، والقاهرة، والأندلس، وبغداد. ولم تكن لهذه الحواضر على الرغم من ذلك مدارس تعرف بها، وما ذلك إلا لرجوعها في النهج إلى إحدى هاتين المدرستين، إذ تقوم المدرسة النحوية البصرية بزعامة (سيبويه)[٨] على اعتماد الأقيسة العقلية في تأسيس القواعد النحوية. بينما تعتمد المدرسة الكوفية بزعامة (الكسائي)[٩] على الرواية والنصوص العربية، قرآنية وشعرية، ومن هنا كانت المدرسة الكوفية مدرسة استقرائية، بينما كانت المدرسة البصرية مدرسة قياسية.

ولذلك حينما تم اختراع المدرسة البغدادية، انتفض بعض أعلام النحو واللغة من المعاصرين[١٠] بالاعتراض على ذلك، مبيناً أن هذه المدرسة البغدادية المزعومة ما هي إلا صورة للمدرسة الكوفية، إذ وجدها تقتفي آثارها في التأسيس للقواعد النحوية باتباع المنهج الاستقرائي. أو بكلمةٍ أدقّ: إن نشأة المدارس النحوية، وانقسامها إلى الكوفية والبصرية إنما كان في بغداد، حيث بدأ أتباع البصريين من البغداديين يطلقون على أنفسهم تسمية البصريين تمييزاً لأنفسهم من تلك الجماعة البغدادية الأخرى التي كانت تسير على نهج الكوفيين.

هذا وقد حاول بعض اختراع مذاهب

ومدارس نحوية أخرى، لا موطن لها إلا في خياله كالمدرسة الحجازية، أو المصرية، أو الأندلسية، وفي ذلك يقول العلامة الدكتور مهدي المخزومي:

(وقع المحدثون والمعاصرون في الوهم، وراحوا يبالغون في تصنيف النحاة، حتى تجاوزوا ثلاثة المذاهب إلى أكثر من ذلك وزعموا أنّ هناك مذهباً أندلسياً وآخر مصرياً... وأغلب الظن أن (فلوجل) الذي حقق الفهرست ونشره هو الذي أوقع المحدثين والمعاصرين في مثل هذا الوهم؛ فقد كان نشر له بحثٌ عن المدارس النحويّة، أشار إليه (بروكلمان) في (تاريخ الأدب العربي)، و(كوتولد فايل) في مقدّمة (الإنصاف). وعنوان البحث يدلّ على تعدّد المدارس أو المذاهب عنده، وكان العرب يصدرون عن هذا الرأي في أكبر الظنّ منذ اتصالهم بكتابات المستشرقين. وكان (فايل) على صواب حين قال: (إنّ فلوجل لابد أن يكون قد عانى كثيراً من الجهد للوصول إلى هذه النتيجة، وهي القول بتعدد المذاهب والمدارس النحوية). وإنعام النظر في حقيقة الأمر يجعل أمثال هذه المحاولات المعاصرة من قبيل الأوهام التي لا وجود لها إلا في أذهان أصحابها)[١١].

وعليه لو كانت لدينا مثل شجاعة هذا العالم النحوي، لأرجعنا جميع المدارس الإستشراقية القائمة على أساس الانتماء الجغرافي إلى مدرستين أو ثلاثٍ مثلاً، دون أن تكون هناك أهمية للهوية الجغرافية لهذه المدرسة الاستشراقية أو تلك. وإنما نأخذ البلد عنواناً مشير إلى أتباع المدرسة الاستشراقية، حتى وإن كان المنتمي لها من بلد آخر.

علاوة على ذلك فإننا نجد غياباً كاملاً للمدرسة النمساوية في التقسيمات الاستشراقية المزعومة، في حين أن من أقطابها المستشرق (أوليفي شتراوس)[١٢]، ولا نجد أيضاً أدنى ذكر للمدرسة المجرية، في حين أن المستشرق المجري (إجناتس جولدزيهر) يعدّ من أبرز أعلام الاستشراق في العالم، ومع ذلك فإننا نجد هذا المسكين مقطع الأوصال؛ لكثرة ما يتم سحبه إلى هذه المدرسة الاستشراقية تارة، وإلى تلك المدرسة تارة أخرى، وبذلك كان وفقاً للتقسيم الجغرافي للمدارس الاستشراقية، رغم شهرته مستشرقاً بالتبني!

لذلك كله فإننا نفضل أن يتمّ تقسيم المدارس الاستشراقية على أساس توجهات المستشرقين وأهدافهم ومناهجهم، وبذلك فإننا نقترح في هذه العجالة التأسيس لمدارس استشراقية ثلاث، وهي:

١ ـ مدرسة الاستشراق الديني. ومن أقطابها: (البابا غريغوريوس الثالث عشر)[١٣]، والراهب الفرنسي (جربير) المعروف بالبابا سلفستر الثاني.

٢ ـ مدرسة الاستشراق الاستعماري. ومن البارزين فيها: (تي أي لورنس العرب)، و(المس جريترود بيل)، و(إدوارد هنري بالمر).

٣ ـ مدرسة الإستشراق العلماني. ومن أهم رموزها: المجري (اجناتس جولدزيهر)، والألماني (ثيودور نولدكه).

إلا أن هناك أمرين يحولان دون الخوض في بيان معالم هذه المدارس وأبعادها، والمنتسبين إليها من المستشرقين على اختلاف جنسياتهم وانتماءاتهم الجغرافية، وذانك الأمران هما: ضيق الوقت الممنوح لنا لإنجاز هذا البحث. والثاني: ندرة المصادر الاستشراقية المتاحة لنا، التي توفر المواد الإنشائية لبناء مثل هذا الصرح. يضاف إلى ذلك أنّ البحث في أبعاد هذه المدارس سيخرجنا عن موضوع هذا الكتاب ونطاقه. ولذلك فإننا سنترك الخوض في هذا البحث إلى دراسة أوسع، نسأل الله تعالى أن يوفقنا إليها.

وإذا سلمنا صحّة تقسيم المدارس الاستشراقية على اساس البعد الجغرافي، فإننا حتى في هذه الصورة نستدرك على بعض الباحثين ما أهمله من البلدان التي نشط فيها الاستشراق، من قبيل الفاتيكان، التي تعتبر حالياً دولة معترفاً بها رسمياً. ونستبعد الحركة الصهيونية، خلافاً لبعض الباحثين مثل (سعدون محمود الساموك)؛ وذلك لعدم وجود رقعة جغرافية معروفة للصهاينة، وإذا سلمنا جدلاً باعتبار الأرض الفلسطينية المحتلة بلداً لهم، فهي إنما تقع في الشرق الأوسط بإجماع الجغرافيين، وبذلك سيخرجون تخصّصاً عن كونهم مستشرقين، لكون فلسطين شرقية بالأصالة. اللهم إلا من باب التوسع في اللفظ.

والذي يهمّنا من هذا التقسيم ذي البعد الجغرافي في بحثنا هذا، هو الاستشراق الألماني، وأعلام المستشرقين فيه، ومنهم على وجه الخصوص (ثيودور نولدكه) وكتابه (تاريخ القرآن)، ولذلك سنشبعه بحثاً بعد استيفاء البلدان الاستشراقية الأخرى. وعليه نستعرض تلك البلدان على النحو الآتي:

الاستشراق الإيطالي:

يرجع بعض الباحثين صلة إيطاليا بالاستشراق إلى ما قبل الميلاد، نظراً لقربها الجغرافي من البلاد العربية والإفريقية[١٤]. وهناك من ذهب إلى أن الدراسات الاستشراقية

في إيطاليا ترقى إلى القرن السادس عشر، ثمّ ترقّى إلى إرجاع جذور الاستشراق فيها إلى العصور الوسطى. ولكن هذه الدراسات لم تتطوّر إلا في القرن التاسع عشر، حين تأسست (الجمعية الإيطالية للدراسات الإستشراقية) سنة ١٨٧١م، فاتخذ الاستشراق منذ ذلك الحين طابعاً سياسياً، واقتصادياً، وثقافياً، فأدّى إلى التمهيد لغزو الأراضي الليبية سنة ١٩١٢م[١٥]. ويمكننا منح الاستشراق الإيطالي المميزات الآتية:

١ ـ كانت باكورة الاستشراق الإيطالي ذات طابع ديني، ثم تطوّرت أهدافه لتكون استعمارية، وقد ظهر ذلك جلياً في ظلّ الاحتلال الإيطالي لليبيا، والحبشة، والصومال.

٢ ـ إرسال البعثات الاستشراقية للعيش في الشرق والبلاد العربية، والتدريس في مؤسساتها العلمية وجامعاتها وخاصة مصر، وقد درس على يد هؤلاء المستشرقين عدد من قادة الفكر العربي، ومنهم على سبيل المثال: (طه حسين)[١٦]، الذي درس على يد المستشرق (كارلو نللينو)[١٧].

٣ ـ تمكن بعض المستشرقين الإيطاليين من نيل شرف العضوية في أكثر من مجمع، ونذكر منهم: (كارلو نللينو)، و(فرانتشيسكو غبريالي)[١٨]، و(إغناطيوس جويدي)[١٩].

٤ ـ عدم اهتمام الاستشراق الإيطالي بسائر أجزاء الشرق الأخرى، وخاصة الشرق الأقصى[٢٠].

٥ ـ حضور الكثير من المستشرقات والعناصر النسوية، من أمثال: (ماريا نللينو) بنت المستشرق (كارلو نللينو)، و(أولجا بنتو)، و(أنجيلا كوداتزي)، و(إيستر بانيتا)، وغيرهن[٢١].

٦ ـ تميز الاستشراق الإيطالي من غيره بظاهرة التوريث، ونذكر مثالاً على ذلك: (ميكلنجلو) ابن (جويدي)، و(فرانتشيسكو) ابن (غبريالي)، و(ماريا) بنت (كارلو نللينو)، إذ نجد الأولاد يكملون مسيرة آبائهم[٢٢].

الاستشراق الفاتيكاني:

إن الفاتيكان وإن كانت في واقعها مقاطعة تحيط بها البلاد الإيطالية من جميع جهاتها، ولكنها تعدّ حالياً دولة دينية ذات سيادة، ومعترفاً بها بين الدول العالمية وأروقة الأمم المتحدة، وقوام جيشها ألوية من القسس غير المسلحين. وإنهم رغم فقدانهم تلك السلطة التي كانوا يتمتعون بها قبل عصر النهضة، والتي كانت تخوّلهم قيادة الدول الأوربية سياسياً، وعسكرياً،

ودينياً. لا يزال كلّ بابا في الفاتيكان يدعو إلى دراسة الإسلام وتراث المسلمين. وقد تجلى هذا الاهتمام من خلال تأسيس البابا (غريغوريوس الثالث عشر) الكلية المارونية في روما، التي لا تزال قائمة إلى يومنا هذا، وقد تخرّج فيها نخبة من المتخصصين باللغات الشرقية، وانتشروا في مختلف البلدان الأوربية[٢٣]. ومن خصائص الاستشراق الفاتيكاني، ما يلي:

١ ـ يتميّز الاستشراق الفاتيكاني من غيره بحكم طبيعة هذه الدولة الدينية والتبشيرية بكونه استشراقاً دينياً بحتاً، ولا يعني ذلك تبرئة ساحته من سائر مناهج الاستشراق الأخرى، فإن الاستعمار السياسي لا يكون مراداً للفاتيكان إلا على نحو الطريقية، للوصول إلى غايته الدينية.

٢ ـ نظراً للدافع الديني الذي تمتاز به الفاتيكان، فإن دائرة نشاطه تستوعب جميع أجزاء العالم، ولكنه فيما يتعلق بالجانب الإسلامي، فقد تمحورت دراساتها الاستشراقية حول اللغة العربية، وتأليف الكتب فيها وفي بعض لهجاتها.

٣ ـ إن البعد الروحي الذي تتمتع به الفاتيكان، وهيمنتها على جميع العالم المسيحي من الناحية الدينية، يجعل من الصعب تصنيفها ضمن جغرافية محدّدة. ولا نجد أنفسنا بحاجة إلى التذكير بعدم قناعتنا بتقسيم المدارس الاستشراقية على أساس الانتماء إلى الرقعة الجغرافية.

الاستشراق الهولندي:

إن علاقة هولندا بالاستشراق عريقة جداً، ولعل جامعة ليدن من أشهر الجامعات التي اهتمت بالدراسات الاستشراقية، وهي تحتوي أضخم مجموعة للمخطوطات والمراجع العربية، وقد خدمت هذه المدينة الفكر الاستشراقي في كلّ أوربا، كما أن لجامعتها مطبعة شهيرة أسسها المستشرق (توماس أربينوس)، ثمّ أشرف عليها المستشرق بريل سنة ١٨١٢م. وقد ظهرت في هولندا الكثير من الكتب في قواعد اللغة العربية، ومعجمات عربية ـ لاتينية، وحققت فيها الكثير من المخطوطات، واشتهر من بين مستشرقيها الكثيرون، ومنهم: (رينهارت دوزي)[٢٤]، و(فنسنك)[٢٥]، وهذا الأخير هو واضع المعجم المفهرس لألفاظ الحديث[٢٦].

ولا يخفى أن بداية الطباعة في أوربا إنما نشأت وتطورت في هولندا على يد (جوهان غوتنبرغ)[٢٧]؛ فلقب بمخترع الطابعة، وكان أول

كتابٍ قام بطبعه نسخة من الكتاب المقدس سنة (١٤٥٦م)[٢٨].

ويمتاز الاستشراق الهولندي باحتضانه الكثير من المؤسسات العلمية التي تعنى بالتراث الشرقي، ومنها: جامعة ليدن التي تحتوي أكبر مجموعة للمخطوطات، والمراجع العربية والإسلامية. مضافاً إلى معهد الشرق الأوسط الحديث بجامعة أمستردام[٢٩].

الاستشراق الفرنسي:

يعود الاهتمام باللغة العربية في الاستشراق الفرنسي إلى أواسط القرن الثالث للميلاد، حين أخذت فرنسا بالاهتمام باللغات الشرقية، ثمّ ازداد هذا الاهتمام في القرن السادس عشر عندما أُنشئت (الكلية الملكية) لتدريس اللغات الأجنبية، وقد نشطت الدراسات الشرقية فيها في القرن السابع عشر لأسباب سياسية. وكانت أبرز تلك الدراسات تبحث في تاريخ البربر في الشمال الإفريقي، حيث كان الفرنسيون يحتلون شمال إفريقيا، بالاضافة إلى لبنان وسوريا.

ولم تكن فرنسا كغيرها من الدول الاستعمارية في الغرب، فلم تكن لتكتفي بنقل التراث وتشويهه، بل كانت تسعى مع ذلك إلى مسح أهمّ الآثار التي تربط الشعب بتراثه، ومن هنا فقد عملت على فرنسة اللغة في البلدان التي تستولي عليها[٣٠].

وهناك من يُرجع توطيد صلة الفرنسيين بالشرق إلى تواجد الدولة الإسلامية في الأندلس، ثم ربطها بحملة نابليون على مصر، وأخيراً بالاحتلال الفرنسي للكثير من البلدان الشرقية[٣١]، ويمكن رسم الملامح الآتية للاستشراق الفرنسي:

١ ـ له الأثر الكبير في توجيه الاستشراق الألماني والانحراف به نحو منعطفات دينية وسياسية. وبرز ذلك من خلال دراسة الكثير من المستشرقين الألمان على يد المستشرقين الفرنسيين، منهم: (سلفستر دي ساسي)[٣٢]، و(فرايتاج)[٣٣]، و(فلوجل)، و(فلايشر)[٣٤].

٢ ـ كان لجامعة السوربون ذات الشهرة العالمية أثرٌ واضح في تنشيط الدراسات الشرقية في فرنسا.

٣ ـ تأسيس الكثير من المعاهد، والمدارس، والمراكز الثقافية، في بلاد الشرق التي كان لها التأثير الكبير في فرنَسَة لغاتها.

٤ ـ يعدّ الاستشراق الفرنسي المرجع الأوربي الأول في الأبحاث والدراسات الخاصة بالطوارق والبربر، وقد ساعد على ذلك تمركز المستعمرات الفرنسية في أفريقيا. وإن اهتمام الاستشراق

بهذا النوع من الدراسات، لا يخلو من نوايا استعمارية خبيثة.

٥ ـ ضمّ بين صفوفه الكثير من ضباط القوات المسلحة الفرنسية، وأتاح لهم عملهم في المستعمرات الفرنسية النبوغ في ميدان الدراسات الشرقية في مختلف جوانبها، ونذكر من هؤلاء: (جاكو)[٣٥]، و(مونتاني)[٣٦]، و(برشيه)[٣٧]، وغيرهم[٣٨].

الاستشراق الأمريكي:

ورثت الولايات المتحدة الأمريكية في بداية أمرها الاستشراق من مجموعة من البلدان الأوربية، إذ شكّل سكانها مزيجٌ من الألمان، والهولنديين، والبريطانيين، والأسبان، والإيطاليين، وغيرهم من الذين هاجروا إلى العالم الجديد بُعيد اكتشافه من قبل البحار الإيطالي (كريستوفر كولمبوس)[٣٩] من باب الصدفة إذ أراد اجتياز المحيط الأطلسي للوصول إلى الساحل الشرقي من الهند الصينية، في رحلة أريد منها التخلص من دفع الإتاوة للدولة العثمانية؛ فرست به سفنه الثلاث ـ في غفلةٍ من أمره ـ على ساحل العالم الجديد، متصوّراً أنه قد وصل إلى الساحل الهندي، فأطلق على (حمر الجلود) تسمية (الهنود) من باب الخطأ في تحديد المصداق، وبقي على جهله بحقيقة اكتشافه حتى وافته المنية. بل بقي البحارة الذين واصلوا مسيرته على جهلهم هذا حتى عام ١٥٠٢م، حين أدرك مواطن إيطالي آخر هو (أمريكو فسبوتشي)[٤٠] أن ما وصل إليه زميله (كريستوفر كولومبوس) لم يكن هو الهند أو الصين، بل هو عالم جديد، ومنذ ذلك الحين اشتهرت (أمريكا) باسم هذا الملاح الإيطالي[٤١].

ثم تتابع المهاجرون من سائر البلدان الأوربية إلى الوفود على هذا العالم البكر جماعاتٍ جماعات، ولم تمض مدّة طويلة حتى انصهر هؤلاء المهاجرون في مجتمع واحد، له سمات مشتركة حملت هدفاً ومساراً واحداً. الأمر الذي انعكس على الاتجاه الاستشراقي فيه.

إن الاستشراق الأمريكي خلافاً للمدارس الاستشراقية الأخرى، لا يتمتع بماض عريق، فهو حديث حداثة أمريكا نفسها، فلم يلحظ الاستشراق الأمريكي إلا في فترات قريبة جدّاً، وبشكل مثير في القرن العشرين تحديداً، بحيث صارت معقلاً لأهم مراكز الاستشراق وأخذ أبرز أعلام الاستشراق يتخذون من أمريكا وجامعاتها مقرّاً لهم.

وفي هذه المرحلة لم يعد الاستشراق ذا طبيعة دينية، وإنما نجده متمحّضاً للأغراض السياسية، والاقتصادية، والاستعمارية البحتة.

فتأسست مجلة (الشرق الأوسط) في عام١٩٢٧م، ونظمت جمعية الاستشراق الأمريكي ندوة خاصة عن الإسلام، وكان من نتائجها أن وجد الاستشراق الأمريكي نفسه أمام حاجة ملحة لدراسة مركّزة للتاريخ الإسلامي الحديث، بدلاً من الوسيط. ويشير (بيتر جران) إلى هذه الحقيقة قائلاً:

(إن صانع القرار السياسي الأمريكي لم يكن ليتكهن بالثورات التي حدثت في المنطقة العربية، من هنا فقد صارت الدعوة ضرورية وملحة لاستحداث نوع جديد من الاستشراق، يركز على التاريخ الحديث والمعاصر للأمة العربية، لا كما هو الحال في الاستشراق التقليدي الذي يركز على التاريخ العربي الوسيط)[٤٢].

وهذا هو السرّ في تفوّق الاستشراق الأمريكي وتغلبه على الاستشراق الأوربي، وذلك لصلته الوثيقة بالهيمنة التي مارستها الولايات المتحدة على شعوب العالم بأسره، والشرق في مقدمته[٤٣].

الاستشراق البريطاني:

يعود الاستشراق البريطاني إلى القرون الوسطى، إذ اشتغل عددٌ كبيرٌ من علماء تلك الفترة بدراسة اللغة العربية وآدابها، ومنهم: (إدواردز أف باث)[٤٤]، الذي ترجم أعمال الفلاسفة اليونان. كما تأسس أول كرسي للدراسات العربية في جامعة كمبرج سنة ١٦٢٣م، وأول كرسيّ للدراسات العربية في جامعة أُكسفورد سنة ١٦٢٦م.

كان الاستشراق البريطاني في بداية أمره ذا طابع ديني، ولكنه أخذ في العصور المتأخرة منحىً سياسياً استعمارياً صارخاً، إذ اشتهرت الدولة البريطانية بانتهاج سياسة (فرق تسد)، للاستيلاء على مقدّرات الشعوب، وتجزئة أراضيها، وتقطيع أوصالها، وقد ركزت لإنجاز مشروعها هذا على نشر الدراسات الطائفية، ونجحت من خلالها في الاستيلاء على معظم أرجاء الكرة الأرضية، حتى باتت إمبراطوريّتها تعرف بـ(الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس).

وكان المستشرقون البريطانيون يعملون في كلّ المجالات التي تخدم الاستعمار البريطاني، ومن بينها شركة الهند الشرقية البريطانية، التي كان المستشرق الإنجليزي (كلود لويس جيمس)[٤٥]، ممثلاً لها في بغداد. وكان المستشرق (وود برتشرد)[٤٦] قنصلاً بريطانياً في تونس. كما قام المستشرق (بالمر) الذي أرسلته جمعية استكشاف فلسطين، بدراسة الصحراء

في سيناء وفلسطين، وفي سيناء واجه مصيره الأسود، فقد اغتيل على يد البدو الذين طمعوا بأكداس ما كان في حوزته من الأموال التي كان يحملها لشراء الضمائر والذمم، وبناء العلاقات المشبوهة[٤٧].

الاستشراق الإسباني:

إن لإسبانيا صلة وثيقة بالعالم الإسلامي والعربي، فقد زحفت الحضارة العربية والإسلامية وامتدت في ربوع الأندلس واستقرت فيها لأكثر من خمسة قرون. الأمر الذي أتاح للمستشرقين من الأسبان أن ينشطوا في دراسة تاريخ العرب والمسلمين، والوقوف على تأثيراته. وعليه فإن الاهتمام الإسباني بالشرق أمر طبيعي، يحتمه الواقع التاريخي الذي ترك وراءه مادة علمية كبيرة، شكلت الدافع الأول الذي حرّك الأسبان نحو الاهتمام بالعلوم الشرقية والتخصص فيها.

يعود تأسيس المدارس العربية في إسبانيا إلى أواسط القرن الثالث عشر للميلاد، وذلك بأمر الملك (ألفونسو العاشر)، وكان أساتذتها من العرب الأقحاح. إلا أن حركة الاستشراق لم تبلغ ذروتها في إسبانيا إلا في القرن التاسع عشر على يد المستشرق (مايكل آسين بلاثيوس)[٤٨]، الذي قام بتأسيس مجلة (الأندلس) الاستشراقية الشهيرة. وأما فيما يتعلق بالمكتبات التي تحتوي على كنوز نفيسة من المخطوطات العربية والإسلامية، فليس هناك أشهر من مكتبة (الاسكوبال)، وكذلك (المكتبة الوطنية) في مدريد.

هذا وتستعين الحكومة الإسبانية ببعض المستشرقين في مجالها الدبلوماسي، ومنهم على سبيل المثال: (اميليو غارثيا غوميث)[٤٩]، الذي عمل سفيراً لأسبانيا في كل من بغداد وبيروت. كما شغل مستشرقون آخرون مناصب علمية كبيرة في البلاد، منهم: (بيدرو مارتينث مونتافث) وهو مختصّ بالأدب العربي الحديث، ويرأس جامعة مدريد[٥٠]. ويمتاز الاستشراق الإسباني بالنقاط الآتية:

١ ـ يكاد الاستشراق الإسباني يكون قريباً من الاستشراق الألماني، في تركيزه على التراث العربي والاهتمام به حفظاً، وفهرسة، وتحقيقاً، ونشراً. ولكنه تقدّم عليه بامتلاكه جزءاً كبيراً من التراث العربي والإسلامي في المكتبات التي خلفها المسلمون في إسبانيا.

٢ ـ مع أن القرن العشرين قد شهد انحساراً واضحاً في العمل الاستشراقي، إلا أننا نجد شذوذاً عن ذلك في الاستشراق الإسباني، إذ نرى عدداً من المستشرقين الأسبان وفي

طليعتهم (آسين بلاثيوس) الذي ألف قرابة ٢٥٠ كتاباً وبحثاً، بعضها في عدّة مجلدات. ومثله (جونثاليث بلانثيا)[٥١]، الذي خلف ما يقارب ٣٢٠ كتاباً وبحثاً. وهذا العدد الهائل من الكتب يذكرنا بما تميز به المستشرقون الألمان في مراحلهم الاستشراقية الأولى.

٣ ـ كانت الفلسفة، والتصوّف، والتاريخ، والآداب، من أبرز الميادين التي ركز عليها المستشرقون الأسبان، فقد أنتجوا فيها مؤلفات كثيرة. ومن البارزين في هذا المجال: (بلاثيوس)، و(رايموندو مارتيني)، و(الأب داريو).

٤ ـ فهرسة المخطوطات العربية من المجالات التي اهتم بها المستشرقون الأسبان، ومن أهم الأسماء فيها: (باسكول جاينجوس)[٥٢]، و(سلفادور غوميث)[٥٣]، و(ألاركون)[٥٤].

٥ ـ كان للقساوسة والرهبان أثر واضح في تنشيط الاستشراق الإسباني، وذلك من طريق انخراطهم الشخصي في هذا الميدان، أو بدفعهم الباحثين الآخرين إليه، ومن أشهر هؤلاء الرهبان والقساوسة يمكننا تسمية: (يوحنا الإشقوبي)[٥٥]، و(بيدرو دي الكالا)[٥٦]، و(ريموندو مارتيني)[٥٧]، و(فرانتشيسكو كانيس)[٥٨].

٦ ـ إنّ الاستشراق الأسباني شديد الشبه بالاستشراق الإيطالي، إذ توجد فيه الكثير من المستشرقات، وخاصة في العصر الحديث، ومن أبرزهن: (رافائيلا ماركيث)[٥٩]، و(ماريا فاثكيث)[٦٠]، و(خواكينا إيبانيث)[٦١]، وغيرهن.

٧ ـ ركز الاستعمار الأسباني على التواجد في أمريكا اللاتينية، ولم يكن له مساهمة واضحة أو ناجحة في النشاط السياسي والاستعماري في الشرق الأوسط والبلدان العربية والإسلامية، كما هو الحال لدى غيرهم من المستشرقين في البلدان الأوربية[٦٢]. ولا غرو في ذلك، فبعد أن كان الأسبان هم الذين اكتشفوا العالم الجديد والقارّة الأمريكية، فقد انحصر اهتمامهم الاستعماري بهذا الجزء الغربي من العالم. أضف إلى ذلك أن المنافسة بين الأسبان والبرتغاليين في مجال الاكتشافات الجغرافية، كانت تحدث بينهما بعض النزاعات. الأمر الذي دعاهما إلى إبرام ميثاق يقتسمان بموجبه العالم فيما بينهما، فكان الشرق من حصة البرتغال، بينما ترك الغربُ للأسبان.

الاستشراق الروسي:

مرّ الاستشراق الروسي بمرحلتين:

المرحلة الأولى: مرحلة ما قبل ثورة أكتوبر عام ١٩١٧م، وقد انطلق الاستشراق فيها من الأمور الثلاثة الآتية:

١ ـ الموقف المتوتر والمشوب بحروب دائمة مع الإمبراطورية العثمانية.

٢ ـ موقف الكنيسة من الإسلام.

٣ ـ الحرص الروسي على عدم التخلف عن ركب أوربا الغربية علمياً وحضاريّاً.

وقد دخلت أول مطبعة عربية إلى روسيا عام ١٧٢٠م، بأمر من (بطرس الأكبر)[٦٣]، كما ظهرت أول مجلة استشراقية في نهاية القرن التاسع عشر، وهي مجلة (المذكرات) التي أسسها (البارون فيكتور رومانوفتش روزن).

المرحلة الثانية: مرحلة ما بعد الثورة الشيوعية، التي أخذ الاستشراق فيها بالاهتمام بواقع القضايا التاريخية، والآيدويولوجيات السياسية والفكرية التي تشغل العالم العربي المعاصر، وتوظيف الاستشراق من أجل تطوير العلاقات الاقتصادية والسياسية بين الاتحاد السوفيتي والبلاد العربية، فصدرت مجلة (الشرق الثوري) عام ١٩٢٩م، وكان الكثير من قادة الأحزاب الشيوعية والاشتراكية في مصر وفلسطين يشرفون على مواد نشرها.

وكان للمستشرق (كراتشكوفسكي)[٦٤] أثر كبير في تطوير حركة الاستشراق السوفيتي، إذ أدت به رحلته إلى سوريا ولبنان ومصر إلى معرفة الأدب العربي الحديث؛ فأصبح من أكثر المتحمّسين له والداعين إلى دراسته.

هذا وتوجد عشرات الآلاف من المخطوطات العربية في الاتحاد السوفيتي. ويعدّ متحف (ابورميتاج) في مدينة لينينغراد من أهمها. وقد أسس في موسكو سنة ١٩٢٠م (المعهد المركزي للغات الشرقية الحيّة). كما أنشئت عام ١٩٢٢م (جمعية المستشرقين الروس) في موسكو، وهي الجمعية التي تصدر مجلة (الشرق الجديد). وفي سنة ١٩٣٠م أنشئ (المعهد الاستشراقي) التابع لأكاديمية العلوم. وأسست أيضاً (جمعية المستعربين) عام ١٩٣٤م في لينينغراد. وفي تشرين الثاني من عام ١٩٣٧م تم عقد مؤتمر المستعربين السوفيت؛ ليفتتح عصراً جديداً لعلم الاستشراق، فأصبح (معهد الاستشراق لأكاديمية العلوم السوفيتية) الذي أنشئ بعد عام ١٩٣٧م، محوراً لحركات الاستشراق في الاتحاد السوفيتي[٦٥].

هذا ويمكن عرض ملامح الاستشراق الروسي فيما يأتي من النقاط:

١ ـ بدأ الاستشراق الروسي بالاهتمام باللغات الشرقية قبل الثورة البلشفية، وكان للاستشراق الألماني تأثيرٌ ملحوظ في تكوينه.

٢ ـ تركيز الاهتمام على الأدب العربي نثراً وشعراً، وكان نتيجة ذلك أن تمخض عن الكثير

من المؤلفات باللغة الروسية، نذكر منها: مئة وأربعة وعشرين كتاباً. ومن أعلام المدرسة الأدبية: (كراتشكوفسكي)، و(كريمسكي)[٦٦].

٣ ـ كان للوجود الإسلامي في بعض المناطق الروسية، الأثر الواضح والملموس في مدّ الاستشراق الروسي بمادة سخيّة نفعته في مجال البحث والتحقيق، وخاصة ما خلفه من مخطوطات كثيرة بالعربية والروسية، ومنها الكثير من مؤلفات أعلام المسلمين، مثل: (الخوارزمي)[٦٧]، و(البيروني)[٦٨]، و(ابن سينا)[٦٩]، و(الفارابي)[٧٠].

٤ ـ نظراً لكثرة المخطوطات الإسلامية في روسيا، فقد اهتم المستشرقون الروس بفهرستها، ويعد (إيفانوف)[٧١] من أبرز المفهرسين من المستشرقين الروس.

٥ ـ ظهور المطابع الشرقية في روسيا مبكراً، الأمر الذي أنتج طبع الكثير من نفائس الكتب، في مختلف المجالات. ومن أشهرها مطبعة: (قازان)، و(بطرسبورغ)[٧٢].

الاستشراق الألماني: _____

بدأت عناية المستشرقين الألمان بحضارة الإسلام منذ أن اتصلت ألمانيا ببلاد الإسلام إثر الحملة الصليبية الثانية في سنة ١١٤٧م، وخاصة بعد أن بدأ رجال الدين بترجمة الكتب العربية. فعندما أنجزت أول ترجمة للقرآن الكريم بين عامي (١١٤١ ـ ١١٤٣م) إلى اللغة اللاتينية، نجد الألماني (هرمان الدلماشي)[٧٣] قد أسهم فيها، إلا أن هذه الترجمة لم تبصر النور إلا بعد أربعة قرون من إنجازها.

وفي عام ٩٥٦م، قام (أوتو الكبير)[٧٤] إمبراطور ألمانيا، و(عبد الرحمن الناصر)[٧٥] بالأندلس بتبادل السفراء فيما بينهما، وكان هدف الإمبراطور الألماني من وراء ذلك على ما يبدو معرفة اللغة العربية لتساعده على ترجمة التوراة؛ وذلك لاشتراك العربية والعبرية في أصلهما السامي.

كما بدأت محاولة تدريس العربية مع الألماني (يعقوب كريستمان: ١٥٥٤ ـ ١٦١٣م)، وهو الذي وضع فهرسة موجزة لبعض المخطوطات العربية، ووضع كراساً لتعليم كتابة الحروف العربية، كما ترجم بعضاً من أجزاء الإنجيل إلى العربية للتمرّن على القراءة. وقد أعد بنفسه الحروف العربية في قوالب خشبية للمطبعة التي كان (جوتنبرغ) قد اكتشفها حديثاً. وفي عام ١٥٨٥م عُيّن (كريستمان) أستاذاً في جامعة هايدلبرج، واقترح إنشاء كرسي للدراسات العربية فيها، بغية نقل الفلسفة والطب

مـن مصـادرها العربيـة. ولكنـه للأسـف الشـديد مات دون تحقيق غايته.

وقد كان لألمانيا قصب السبق فـي طباعـة أول مصـحف كتـب لـه البقـاء والنجـاح علـى الإطـلاق، فقـد طبـع القـرآن للمـرّة الأولـى فـي مدينـة البندقيـة الإيطاليـة عـام ١٥٤٣م، إلا أن السلطات الكنسية أمرت باتلافـه مباشـرة، وبعـد ذلك بأكثر من قرن من الزمن بـادر (هنكلمـان) لطبع القـرآن فـي مدينـة (هـامبورغ) الألمانيـة، وذلك في سنة ١٦٩٦م[٧٦].

وكان المستشرقون الألمان في مطلع القـرن الثـامن عشـر يقصـدون هولنـدا لـتعلم اللغـات الشـرقية، ومـن ضـمنها العربيـة. وبعـد عـودتهم أخرجوا الدراسات في جامعاتهم من نطاق التوراة إلى ميدان الثقافة العامة.

وكـان (يوهـان جـاكوب ريسـكه: ١٧١٦ ـ ١٧٧٤م) أبرز مستشرق ألماني أسـس الدراسـات العربية في ألمانيا، وهو أول مستشرق ألماني نذر حياتـه للدراسـة العربيـة والحضـارة الإسـلامية، ورأى إمكانية دراسة العربيـة لـذاتها، وذلـك فـي زمنٍ لم يكن فيه من يهـتم بالدراسـات العربيـة، وقد اهتم بالمخطوطات العربية، وكان له اهتمام واسع بالشعر العربي، حتـى اعتبـر نفسـه (شـهيد الأدب العربي). وقد ذهب ريسكه ـ كما جاء فـي ترجمته لمقدّمة كتاب (تقويم التـواريخ) لحـاجي خليفة ـ إلى أنّ ظهور النبي محمد وانتصار دينـه هما من أحداث التاريخ التـي لا يسـتطيع العقـل الإنسـاني إدراك مـداها، ورأى فـي ذلـك برهانـاً على تدبير قوّةٍ إلهية مقتدرة، كما ذهـب إلـى أنّ عليّ بـن أبـي طالـب هـو الأحـق بالخلافـة بعـد النبي مباشرة، ورأى أنه أحسن أميرٍ عرفه العـالم الإسلامي. ورأى في صراع علي ومعاوية نموذجاً لانتصار الشرّ على الحق[٧٧].

وربمـا كـان (رايسـكه) أول مستشـرق واجـه علماء اللاهوت، ودعا إلى دراسة العربية بصـورة مستقلة، ووقف في وجـه مـا أشـاعه المستشـرق الهولنـدي (أدرينـوس غولنـدوس، ت: ١٧١٨م) من كون اللغة العربية لهجة عبرية، وتابعـه علـى ذلك المستشرق الهولندي (ألبير شولتز: ١٦٨٦ ـ ١٧٥٠م).

وفي مطلع القرن التاسع عشر انتقل الألمان إلـى فرنسـا، حيـث كـان (سلفسـتر دي ساسـي: ١٧٥٨ـــ ١٨٣٨م)، أسـتاذ اللغتـين العربيـة والفارسية في مدرسة اللغات الشرقية في باريس، فـدرس الألمـان علـى يـده وتـأثروا بـه، ومـنهم (فلايشـر: ١٨٠١ ـ ١٨٨٨م) و(هـانريش إيفالـد)[٧٨]، اللـذين اعتبـرا مـن المؤسسـين للدراسات العربية في ألمانيا.

ومنذ أواسط القرن التاسع عشر ـ وهي الفترة التي نبغ فيها ثيودور نولدكه ـ حاول الاستشراق أن يكتسب صفة العلمية، وبدأ يتحلى بروح الموضوعية ولو بصورة نسبية، وذلك عندما تحوّل الاستشراق إلى علم قائم على النقد التاريخي. وهذا ما لاحظه المستشرق الألماني (رودي باريت)[٧٩]، إذ قال:

(إن الاستشراق لم يتوفر على هذه العلمية إلا عندما تأكد استعداد الناس للانصراف عن الآراء المسبقة، وعن كلّ أنواع الانعكاس الذاتي، والاعتراف للعالم الشرقي بما له من طابع خاص، ولكنهم حين جدّوا في نقل صورة موضوعية له، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً)[٨٠].

وقد تميّز الاستشراق الألماني بجمع المخطوطات، ونشرها، وفهرستها، مع اهتمام خاص بالجانب الصوفي والأدبي. وعنى أيضاً بوضع معاجم باللغة العربية، ودراسته لجوانب الفكر العربي الإسلامي في القديم خاصة. وكان الانشغال بالنصّ القرآني ممّا تميّزت به الجهود الألمانية من سائر جهود المستشرقين الآخرين.

وقد ذكر الدكتور عبد الرحمن بدوي أن أقدم ترجمة ألمانية عن النص العربي مباشرة، هي ترجمة (ديفد فريدريتش ميجرلان) وهو أستاذ في جامعة (فرانكفورت)، وقد ظهرت هذه الترجمة سنة ١٧٧٢م[٨١].

هذا ويصل مجموع عدد ترجمات معاني القرآن إلى الألمانية إلى ما يزيد على الأربعين ترجمة.

ويلاحظ أن الاستشراق الألماني تميّز بحضور الكثير من أعلامه في جامعة القاهرة، ومنهم على وجه الخصوص: (برجشتريسر)[٨٢]، و(إينو ليتمان)[٨٣]، و(جوزيف شاخت)[٨٤].

وفي أواخر الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات من القرن العشرين، بدأ اليهود بالهروب من النازية، والوفود على القاهرة. فكان منهم: (بول كراوس)[٨٥]، و(ماكس مايرهوف)[٨٦]، وكانت لهما عناية خاصة بالفلسفة والعلوم الإسلامية.

وعيّن إلى جانب هؤلاء في مجمعي اللغة العربية بالقاهرة ودمشق كلّ من: (هارتمان)[٨٧]، و(أوجست فيشر)[٨٨]، و(كارل بروكلمان)[٨٩]، و(هلموت ريتر)[٩٠].

وتولّى المستشرق الألماني (فولهايم شبيتا)[٩١] إدارة دار الكتب المصرية، وذلك في سنة ١٨٧٥م، وبادر إلى فهرسة مخطوطاتها في نحو أربعين صفحة.

هذا وقد تميّز الاستشراق الألماني بما يأتي:

١ ـ حياده وبُعده النسبي عن الغايات السياسية أو الاستعمارية أو الدينية؛ فهو بشكلٍ

عـام لا ينطلـق مـن خلفيـات آيدولوجيـة واستعمارية. فألمانيا لم تكن لها مستعمرات في البلدان العربية أو الإسلامية، كما أنها لم تعن بالجانب التبشيري ونشر المسيحية، أو بالأحرى لم يترك لهم غيرهم حرية العمل في هذا الحقل. ومع هذا يصعب وصف الجهود الألمانية بالحياد المطلق والموضوعيّة النزيهة؛ فها هو المستشرق الألماني (رودي باريت) الذي توفي عام ١٩٨٣م، يعترف قائلاً:

(من التعسف أن يظن المرء أن في إمكانه معالجة جهود الألمان على أنها مطلقة، وأن يفصلها عن ارتباطها بالأوشاج والأربطة العالمية)[٩٢].

وقد قام المستشرق الألماني (كارل هاينريش)[٩٣] مؤسس مجلة (الإسلام)، بدراسات تخدم الغايات الاستعمارية الألمانية في إفريقيا.

٢ ـ اهتمامه بالقديم والتركيز على دراسة التراث الإسلامي العربي وتاريخ الحضارة الإسلامية، وإذا كان الإسلام قد استقطب اهتمام المستشرقين، فإن ما ميّز الاستشراق الألماني أيضاً، هو أنه أصبح مصدراً معتمداً في الدراسات القرآنية لدى المستشرقين الأوربيين عامة.

الهوامش:

[١] أنظر: الزيادي، محمد فتح الله، الاستشراق أهدافه وغاياته، ص٦٩، ط١، ١٩٩٨م.

[٢] أنظر: المصدر المتقدم، ص٧٠.

[٣] المصدر المتقدّم، ص٦٩ ـ ٧٠.

[٤] ماريا نللينو (Maria Nallino): كريمة المستشرق الكبير كارلو نللينو، وواحدة من أشهر المستشرقات الإيطاليات، ولدت سنة ١٩٠٨م، ودرست على يد والدها واستأنفت نشاطه العلمي بعد وفاته، اختيرت عضواً مراسلاً في المجمع اللغوي في مصر، لها عدد من الأعمال، منها: (مجموعة آثار كارلو نللينو)، و(الإسلام والأقليات الدينية في الدستور السوري الجديد). أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج١، ص٣٩٧.

[٥] أولجا بنتو (Olga Pinto): مستشرقة إيطالية مغمورة، شغلت منصب أمينة المكتبة الوطنية بروما، وخلفت عدداً من الآثار العلمية، منها: (الكتب العربية في مكتبة روما)، و(المخطوطات العربية غير المفهرسة في المكتبة الوطنية بفلورنسا).

[٦] انجيلا كوداتزي (Angela Codazzi): مستشرقة إيطالية، خلفت آثاراً محدودة، منها: نشر مخطوط (آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كلّ مكان) لابن حنين، و(رسالة في القياس المسطح) لليون الإفريقي. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج١، ص٤٠٣.

[٧] ايستر بانيتا (Ester Panetta): مستشرقة إيطالية تخصّصت في تتبع التراث الليبي، ومن ضمن ما خلفته:

(تقاليد وعادات شعبية من ليبيا)، و(الأمثال العربية في بنغازي)، و(الملابس الشعبية في بنغازي)، وغيرهما. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج١، ص٤٠٣.

[٨] سيبويه، عمرو بن عثمان (٧٦٠؟ ـ ٧٩٦؟ م): عالم نحوي عربي، فارسي الأصل. ولد في شيراز، ونشأ في البصرة، أخذ العلم عن الخليل بن أحمد الفراهيدي. وهو صاحب (الكتاب في النحو) والذي يعرف بـ (الكتاب) فحسب، إعظاماً لشأن صاحبه، أو لأنّ سيبويه مات قبل أن يضع عنواناً خاصّاً لكتابه هذا. أنظر: منير البعلبكي، موسوعة المورد، ج٩، ص٤٨.

[٩] الكسائي، أبو الحسن (٩٥٣ ـ ١٠٠٢م): نحوي، كوفي. أحد القرّاء السبعة. تعلم على الرؤاسي، والخليل بن أحمد. مؤدّب الأمين والمأمون ولدي الرشيد. له (رسالة في ما يلحن فيه العامة). أنظر: المنجد في اللغة والأعلام.

[١٠] هو العلامة الدكتور مهدي المخزومي، ولزيادة الاطلاع، راجع كتابه القيّم (مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو).

[١١] المخزومي، مهدي، الدرس النحوي في بغداد، ص٧ ـ ٨، دار الرائد العربي، ط٢، بيروت، ١٩٨٧م.

[١٢] أوليفي شتراوس (Strauss، E.): مستشرق نمساوي. تخرّج من جامعة فيينا، وعني بالمماليك وأهل الذمّة، من آثاره: (المجلة المشرقية النمسوية) عن مماليك مصر سنة ١٩٣٦م. وله بالعبرية (اليهود وفتوحات المغول). أنظر: نجيب العقيقي، ج٢، ص٦٤٢.

[١٣] غريغوريوس الثالث عشر (Gregory XIII: ١٥٠٢ ـ ١٥٨٥م): بابا رومة منذ عام ١٥٧٢ حتى وفاته عام ١٥٨٥م. وضع برنامجاً طموحاً لإصلاح الكنيسة. أسس الجامعة الغريغورية (Gregorian University)، وعدداً من الكليات مُسنِداً مهمّة الإشراف عليها إلى اليسوعيين، وبذل جهداً كبيراً لإعادة بعض البلدان البروتستانتية إلى الحظيرة الكاثوليكية. أصلح التقويم اليوليوسي(Julian calendar)، وأقر بدلاً منه تقويماً جديداً عُرف بـ (التقويم الغريغوري) نسبة إليه. أنظر: منير البعلبكي، موسوعة المورد، ج٥، ص٣٣.

[١٤] أنظر: الزيادي، محمد فتح الله، الاستشراق أهدافه ووسائله، ص٨١، ١٩٩٨.

[١٥] انظر: الساموك، سعدون محمود، مناهج المستشرقين، ص٤٤، نقلاً عن ميشال جحا، الدراسات الشرقية في أوربا، ص٥٦ ـ ٥٨.

[١٦] طه حسين (١٨٨٩ ـ ١٩٧٣م)، أديب وناقد مصري. اعتبر أحد أبرز رواد التجديد في الأدب العربي الحديث. فقد بصره وهو طفل صغير. اشتهر بآرائه الجريئة في الأدب والحياة وبحمله لواء الثورة على التقليد. أشهر آثاره: (في الشعر الجاهلي)، و(الأيام)، و(المعذبون في الأرض)، و(من تاريخ الأدب العربي). أنظر: منير البعلبكي، موسوعة المورد، ج٥، ص١٣٥، دار العلم للملايين، ط١، بيروت، ١٩٨١.

[١٧] كارلو الفونسو نللينو (Carlo Alfonso Nallino: ١٨٧٢ ـ ١٩٣٨م): من أشهر المستعربين في ايطاليا، ولد في تورينو، رغب كما يقول بنفسه في معرفة كلّ شيء؛ فعنى بالجغرافيا والفلك والأدب والتاريخ والتصوّف والفلسفة والفقه بل وحتى اللهجات، وطار له فيها صيتٌ بعيد، درّس في الجامعات المصرية، ومن أبرز تلاميذه فيها، عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين، اختص باللغة العربية والحضارة الإسلامية، ومن أشهر مؤلفاته: (تاريخ الأدب العربي)، و(تاريخ الفلك عند العرب في العصور الوسطى). تولت ابنته ماريا نللينو نشر أبحاثه بعد وفاته في ستة مجلدات تناول فيها العرب لغة وعقيدة وتاريخاً وحضارة. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج١،

ص٣٧٧ ـ ٣٨٠.

[١٨] فرانتشيسكو غبريالي (Francesco Gabrieli): مستشرق وابن أحد المستشرقين الكبار (جوزيف غبريالي)، اهتم بالشعر العربي القديم، والتاريخ العربي، شغل مناصب علمية متعددة، منها: عضوية المجمع العربي في دمشق، والمجمع اللغوي في القاهرة. من مؤلفاته: (تاريخ الأدب العربي)، و(عالم الإسلام)، و(خصائص الحضارة العربية الإسلامية) وغيرها.

[١٩] إغناطيوس جويدي (Ignazio Guidi: ١٨٤٤ ـ ١٩٣٥م): أحد أبرز أعلام المستشرقين الإيطاليين، ولد في روما. وعيّن أستاذاً للأدب العربي في الجامعة المصرية، ودرس على يده عدد من قادة الفكر العربي في مصر. عدّ شيخ المستشرقين في اللغات السامية، وأتقن اللغة العربية وحاضر بها، ونشر عدداً من الأعمال، منها: قسم من تاريخ الطبري، وفهرس العديد من المخطوطات في مكتبة فيتوريو ايما نويل، ومكتبة انجليكا اكسندرينا، أشهر كتبه: (تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام). أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج١، ص٣٧٥.

[٢٠] أنظر: الزيادي، محمد فتح الله، الاستشراق أهدافه ووسائله، ص٨٢ ـ ٨٤، ١٩٩٨.

[٢١] المصدر، ص٨٣.

[٢٢] المصدر، ص٨٤.

[٢٣] انظر: الساموك، سعدون محمود، مناهج المستشرقين، ص٢٧، نقلاً عن ميشال جحا، الدراسات العربية والإسلامية في أوربا، ص٨٤.

[٢٤] رينهارت بيتر ان دوزي (Rinhart Pieter Ann Dozy): مستشرق هولندي من أصل فرنسي، ولد وتوفي بليدن، ودرّس في جامعاتها قرابة ثلاثين سنة، تخصص في اللغة العربية، ونال عضوية الكثير من المجامع العربية، من أشهر ما خلف: معجمه الذي سمّي باسمه (Supplement aux dictionnaires Arabes)، و(تاريخ المسلمين في اسبانيا)، و(الألفاظ الاسبانية والبرتغالية المنحدرة من أصول عربية)، إلى غير ذلك من الآثار العلمية الشهيرة. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٦٥٨ فما بعد.

[٢٥] أرينت جون فنسنك (Arent Jan Wensinck: ١٨٨٢ ـ ١٩٣٩م): مستشرق هولندي، درس على يد كبار المستشرقين من أمثال: هوتسما، ودي خويه، وإسنوك، وهوخرونيه، وسخاو. وخلف سخاو في كرسيه بجامعة ليدن سنة ١٩٢٧م. نال شهادة الدكتوراه في رسالته (محمد واليهود في المدينة) سنة ١٩٠٨م. وضع المعجم لألفاظ الحديث، وإلى جانب ذلك أصدر متناً سهل التناول للأحاديث النبوية مرتباً ترتيباً هجائياً، وقد نقله إلى الحروف العربية الدكتور محمد فؤاد عبد الباقي تحت عنوان (مفتاح كنوز السنة) سنة ١٩٣٤م.

[٢٦] أنظر: الساموك، سعدون محمود، مناهج المستشرقين، ص٢٨، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد.

[٢٧] جوهان غوتنبرغ (Gohann Gutenberg: ١٤٠٠؟ ـ ١٤٦٨؟ م): طابع ألماني، إخترع طريقة للطباعة بالحروف المعدنية المنفصلة أو المتحرّكة (١٤٣٦ ـ ١٤٣٨م)، واستخدمت من غير أن يطرأ عليها تغييرٌ جذريّ حتى مطلع القرن العشرين. يعتقد أنه أتمّ طبع (الكتاب المقدّس) عام ١٤٥٥م، ولم تبق لنا الأيام من هذه الطبعة الفريدة غير عشرين نسخة، وقد وجدت أولاها في مكتبة الكاردينال (مازاران) في باريس؛ فنسبت إليه. أنظر: منير البعلبكي، موسوعة المورد، ج٥، ص٤٨ ـ ٤٩.

[٢٨] أنظر: تاريخ إيران وجهان (١)، من كتب النظام التعليمي المقرّرة في إيران للمرحلة الثانية من الإعدادية، ص٢٢٢، ط٩، ١٣٨٧هـ ش.

[٢٩] أنظر: الزيادي، محمد فتح الله، الاستشراق أهدافه ووسائله، ص١٠٣ ـ ١٠٤، ١٩٩٨.

[٣٠] انظر: الساموك، سعدون محمود، مناهج الاستشراق، ص٣٢ ـ ٣٣، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد.

[٣١] أنظر: الزيادي، محمد فتح الله، الاستشراق أهدافه ووسائله، ص٨٤، ١٩٩٨.

[٣٢] دي ساسي (Antoine Isaac Selvester De Sacy: ١٧٥٨ ـ ١٨٣٨م): شيخ المستشرقين الفرنسيين، يحيط الغموض بالكيفية التي صار بها مستشرقاً، كما يقول (هرتفج دارنبور) في ترجمته: (لا نعرف أسماء أساتذته، ولا الغاية التي كانت في اختياره التخصص في الدراسات العربية والشرقية بعامّة)، ويقال إنه بدأ تعلم العبرية وهو في الثانية عشرة من عمره، وإنه كان يلتقي بعض رجال الدين وبعض اليهود، فكان في أحاديثه معهما فرصة لتبادل الآراء، ولم يبد اهتماماً باللغة العربية إلا بعد سنة ١٧٨٥م حيث أدرك أهميّتها بالنسبة إلى دراسة الكتاب المقدّس وتاريخ الأديان. أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٣٣٤ فما بعد.

[٣٣] جورج وليم فرايتاج (Geaorg Wilhelm Freytag: ١٧٨٨ ـ ١٨٦١م): مستشرق ألماني ذائع الصيت، ولد في لونبرج، وتلقى مبادئ العربية في ألمانيا، ورحل في طلبها إلى باريس، حيث تضلع بها على يد (دي ساسي)، عينته جامعة بون أستاذاً للغة العربية فيها سنة ١٨١٩م؛ حيث وافاه أجله. اهتم بالأدب العربي القديم، ونشر منه قصائد كثيرة، من أشهرها: قصيدة البردة لكعب بن زهير بن أبي سُلمى، ومرثية تأبط شرّاً. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٦٩٧ ـ ٦٩٨.

[٣٤] فلايشر (Fleischer. H. L.: ١٨٠١ ـ ١٨٨٨): مستشرق ألماني ذائع الصيت، عرف بأنه مؤسس الدراسات العربية المنظمة في ألمانيا مجارياً بذلك فرايتاج وفلوجل، شغل كرسي اللغة العربية في جامعة (ليبزيج) مدة خمسين عاماً حتى وفاته، خلف آثاراً كثيرة، منها: (تاريخ العرب قبل الإسلام)، و(فهرس المخطوطات الشرقية في مكتبة درسن الوطنية)، و(فهرس المخطوطات الشرقية في مكتبة مجلس الشيوخ). أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٧٠٦ ـ ٧٠٧.

[٣٥] جاكو (Jacquat. Cl.): أحد الضباط في الجيش الفرنسي الذين استشرقوا، خلف دراستين، هما: (دولة العلويين) سنة ١٩٢٩م، و(أنطاكية مركز سياحة) في ثلاثة أجزاء، سنة ١٩٣١م. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج١، ص٢٤٢.

[٣٦] روبرت مونتاني (Robert Montagne: ت: ١٩٥٤م): مستشرق فرنسي، كان أستاذاً في الكوليج دي فرانس، ومديراً لمركز الدراسات العليا للإدارة الإسلامية، وعنى بالدراسات الاجتماعية المتصلة بشمال أفريقيا والشرق الأدنى.

[٣٧] ليون برشيه (Leon Bercher: ١٨٨٩ ـ ١٩٥٥م): مستشرق فرنسي، كان في البدء ضابطاً مترجماً، ثمّ تدرّج في عدّة وظائف إدارية في تونس، وعمل فيها مديراً للدراسات في معهد الدراسات العليا سنة ١٩٥٠م، من أعماله: ترجمة (طوق الحمامة) لابن حزم، وترك بعد وفاته ترجمة كتاب (التحفة) لابن عاصم، وهي في الفقه المالكي. أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٩١.

[٣٨] أنظر: الزيادي، محمد فتح الله، الاستشراق أهدافه ووسائله، ص٨٥ ـ ٨٧، ١٩٩٨.

[٣٩] كريستوفر كولومبوس (Christopher Columbus)، ملاح إيطالي، ولد عام ١٤٥١م، وتوفي عام ١٥٠٦م، عمل في خدمة إسبانيا، مهّدت رحلاته الأربع إلى العالم الجديد السبيلَ لحركة الاستكشاف والاستعمار الأوربية، وغيّرت مجرى التاريخ. آمنَ بأنّ في إمكانه الوصول إلى الشرق من طريق الإبحار غرباً. فقام بأولى هذه الرحلات في الثالث من أغسطس عام ١٤٩٢م مبحراً من ميناء بالوس (Palos) بسفنه الثلاث؛ فوصل إلى جزر بهاما (Bahama Islands) في الثاني عشر من أكتوبر عام ١٤٩٢م، وبذلك اكتشف أمريكا، من غير أن يدري أنه فعل. أنظر: منير البعلبكي، موسوعة المورد، ج٣، ص٦١، دار العلم للملايين، ط١، بيروت، ١٩٨٠.

[٤٠] أمريكو فسبوتشي (Amerigo Vespucci)، (١٤٥٤ ـ ١٥١٢م): بحّار ايطالي، راد سواحل العالم الجديد بعد كولومبوس، وذلك بعد رحلتين رئيستين: (١٤٩٩ ـ ١٥٠٠)، و(١٥٠١ ـ ١٥٠٢م)، وقد قادته رحلته الثانية إلى استنتاج أنّ العالم الجديد قارّة مستقلة، وليست جزءاً من آسيا كما تصوّر كريستوفر كولومبوس، ومن هنا دعي العالم الجديد بأمريكا تخليداً لذكرى هذا الملاح. أنظر: موسوعة المورد، منير البعلبكي، ج١٠، ص٩١، دار العلم للملايين، ط٢، بيروت، ١٩٩٢.

[٤١] أنظر: تاريخ إيران وجهان (١)، من كتب النظام التعليمي المقرّر في إيران للمرحلة الثانية من الإعدادية، ص٢٢٠، ط٩، ١٣٨٧هـ ش.

[٤٢] انظر: الساموك، سعدون محمود، مناهج الاستشراق، ص٣٤، نقلاً عن عبد الجبار ناجي، تطور الاستشراق في دراسة التراث العربي.

[٤٣] انظر: الزيادي، محمد فتح الله، الاستشراق أهدافه ووسائله، ص١٠١ ـ ١٠٢، ط١، ١٩٩٨م.

[٤٤] إدواردز أف باث (A. B ،Edwards.): مستشرق بريطاني. من آثاره: (النيل)، و(إحصاءات سياسية واقتصادية عن الشرق الأوسط) لندن سنة ١٩٥٠م. أنظر: العقيقي، ج٢، ص٤٩٠.

[٤٥] كلود لويس جيمس (G. L ،James.): ممثل شركة الهند الشرقية، ثمّ المقيم البريطاني في بغداد. من آثاره: (رحلة رايس في العراق) سنة ١٨٢٠م، وقد نشرته أرملته، ونقله إلى العربية اللواء بهاء الدين نوري. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٤٧٦.

[٤٦] وود برتشرد (W ،Brecherd.): قنصل إنجلترا في تونس. من آثاره: (الأدلة الجلية في موافقة الشريعة الإسلامية لقواعد الإنسانية)، الإسكندرية سنة ١٨٧٨م، و(الإسلام والإصلاح) سنة ١٨٧٨م. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٤٨٢.

[٤٧] أنظر: الساموك، سعدون محمود، مناهج المستشرقين، ص٢٩، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد.

[٤٨] مايكل آسين بلاثيوس (Miguel Asin ،Y. Palacios).: ١٨٧١ ـ ١٩٤٤م): مستشرق إسباني، ولد في مدينة سرقسطة. التحق بالمعهد المجمعي لتخريج رجال الدين، وظلّ يتابع دراسته هناك حتى تخرّج قسيساً، وبدأ عمله الكهنوتي سنة ١٨٩٥م في كنيسة سان كيتانو، تلقى اللغة العربية على (ريبيرا) سنة ١٨٩١م. نال شهادة الدكتوراه من جامعة مدريد سنة ١٨٩٦م، ونشر رسالته عن العقيدة والأخلاق والتصوّف لدى الغزالي سنة ١٩٠١م. أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص١٢١ فما بعد.

[٤٩] إميلو غارثيا غوميث (Garcia Gomez، E.): ولد في مدريد سنة ١٩٠٥م، وتخرّج في جامعتها سنة ١٩٢٦م. سُمّي أستاذاً بجامعة غرناطة ومدريد، ومديراً للمعهد الثقافي الأسباني العربي. قصد لبنان وسوريا ومصر، وانتخب عضواً في مجامع عديدة، منها. اختير سفيراً لإسبانيا في كلّ من بغداد وبيروت. من آثاره: (رواية عربية ـ مصدر مشترك لابن الطفيل وجراثيان)، و(نصّ عربي من أسطورة الإسكندر)، وهما رسالتاه للدكتوراه. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٦١٠.

[٥٠] أنظر: الساموك، سعدون محمود، مناهج المستشرقين، ص٤٤ ـ ٤٥.

[٥١] أنجل جونثاليث بلانثيا (Angel Gonzalez Palaencia: ١٨٨٩ ــ ١٩٤٩م): من أشهر المستشرقين الأسبان، اهتم بالفلسفة الإسلامية والأدب العربي في الأندلس. حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة مدريد في سنة ١٩١٥م في رسالة هي تحقيق كتاب (تقويم الذهن) لأبي الصلت الداني. خلف عدداً من الآثار، منها: كتابه الذي ضمن له شهرة واسعة: (تاريخ الأدب العربي في إسبانيا)، و(المخطوطات العربية والإسبانية المكتوبة بالخط العربي)، كما اهتم بتاريخ المستعربين، وهم (الأسبان النصارى الذين اعتنقوا الإسلام في طليطلة)؛ فأصدر عنهم كتاباً بعنوان: (المستعربون في طليطلة إبان القرن الثاني عشر والثالث عشر). أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٧٢.

[٥٢] باسكول جاينجوس (Pascual Gayangos: ١٨٠٩ ـ ١٨٧٩م): مستشرق إسباني، درس العربية على يدي المستشرق الفرنسي الشهير سيلفستر دي ساسي، ورحل إلى شمال أفريقية لإتقان اللغة العربية. أسهم في تحرير دائرة معارف تدعى (Penny Cyclopaedia)، شغل مناصب متعدّدة، منها: رئيس كرسي اللغة العربية في جامعة مدريد، ومديراً للتعليم العام، وعضواً في مجلس الشيوخ. له آثار عديدة، منها: ترجمة (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) إلى الإنجليزية في مجلدين أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص١٧٠.

[٥٣] سلفادور جوميث Salvador Gomez Nogales))؛ راهب إسباني، ولد سنة ١٩١٢م، اهتم بالجوانب الفلسفية، والفلسفة الإسلامية بوجه خاص، وله أعمال حول ابن رشد وابن حزم، ومن أعماله: ترجمة (تهافت التهافت)، لابن رشد إلى الإسبانية، و(ما وراء الطبيعة عند العرب)، و(نظرية الاستسلام في صوفية الإشراق) الخ. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٦١٣.

[٥٤] ألاركون سانتون (Alarcon Y. Santon: ١٨٨٠ ـ ١٩١٣م): مستشرق إسباني، تمكن من اللغة العربية، خلف عدداً من الأعمال، منها: (فهرس المخطوطات العربية والأعجمية المكتوبة بلغة عامية في مدينة العرائش). أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٥٩١.

[٥٥] يوحنا الإشقوبي (Juan Alfonsi De Segobia): لاهوتي إسباني، ولد في السنوات الأخيرة من القرن الرابع عشر للميلاد في إشقوبية، وتوفي بعد سنة ١٤٥٦م. أرسله الملك يوحنا الثاني إلى بازل لحضور مجمعها الذي انعقد سنة ١٤٣٣م وما تلاها، فمارس فيه نشاطاً كبيراً. صار كاردينالاً سنة ١٤٤٠م، ثمّ تخلى عنها واعتزل في دير (إيتون) في سافويا بفرنسا، وفي خلوته هناك فكر في الدفاع عن المسيحية ضدّ الإسلام، إذ تبيّن له عدم جدوائية مقاومته عسكرياً؛ فلجأ إلى سلاح الكتابة. واستعداداً لذلك رأى ضرورة ترجمة القرآن إلى اللاتينية، ثمّ كتب ردّاً على الإسلام بعنوان (طعن المسلمين بسيف الروح)، وقد ضاع هذا الرد، كما ضاعت

ترجمة القرآن. لكن (أنطونيو) قرر في كتابه (المكتبة الإسبانية القديمة) أنه رأى مخطوط كتابه في الردّ على الإسلام. أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٤١.

[٥٦] بيدرو دو الكالا (Pedro de Alcala): من الرعيل الأول من المستشرقين الإسبان، عاش في القرن الخامس عشر، تعلم العربية وأتقن الخطابة بها؛ فأوفده رئيس أساقفة طليطلة (فرناندو دي تالابيرا) للتقريب بين المسلمين والنصارى في مملكة غرناطة سنة ١٤٩٩م، ومن آثاره: (الإرشادات) بالأسبانية والعربية، وهو أول مصنف لقواعد اللغة العربية في أوربا، ويعزى إليه أنه أوّل من وضع قاموساً بلغة أوربية ـ عربية. أنظر: عبد الحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٤٩، نقلاً عن الزيادي، ص٩٣.

[٥٧] رايموندو مارتيني (R. Martint: ١٢٣٠ ـ ١٢٨٤م): من طلائع الرهبان المستشرقين، حيث كان في طليعة العشرين راهباً الذين أتقنوا العربية وعلمها في تونس، وأتقن إلى جانبها لغات شرقية أخرى، وقد تبحّر في القرآن، وحفظ صحيحي مسلم والبخاري، خلف بعض الآثار، منها: (خنجر الإيمان) في الردّ على المسلمين واليهود، اعتمد فيه حجج الغزالي وغيره ممن تصدّوا لمجادلة المشائين، وظلّ هذا الكتاب طوال قرون نموذجاً رفيعاً للجدل الديني بين فقهاء المسيحية والإسلام واليهودية. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج١، ص١٣١.

[٥٨] فرانتشيسكو كانيس (Francisco Canes: ١٧٣٠ ـــ ١٧٨٩م): راهب فرنشسكاني من الحفاة (dascalzo)، عمل في كلية الآباء المبشرين الإسبان في دمشق، وعضواً في أكاديمية التاريخ، له من الأعمال: (قاموس إسباني ـ لاتيني ـ عربي)، و(النحو العربي العامي والفصيح). أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٤٥٩.

[٥٩] رافائيلا ماركيث (Rafaela castrillo Marques): مستشرقة إسبانية، ولدت سنة ١٩٣١م، تخصّصت في اللغة العربية، وحصلت على شهادة الدكتوراه في تاريخ شمال إفريقيا، أنظر: ميشال جحا، الدراسات العربية، ص١٦١، نقلاً عن الزيادي، ص٩٤.

[٦٠] ماريا فاثكيث (Maria Vazquez): مستشرقة إسبانية، تخصّصت في اللغة العربية، وزارت عدداً من البلاد العربية، عملت في المعهد الإسباني العربي للثقافة. أنظر: ميشال جحا، الدراسات العربية، ص١٦١، نقلاً عن الزيادي، ص٩٤.

[٦١] خواكينا إيبانيث (Joaquina Ibanez): مستشرقة إسبانية، تخصّصت في اللغة العربية، ودرست في معهد الدراسات العربية في جامعة غرناطة، نالت الدكتوراه في أشعار (ابن ليون) حول الزراعة، أنظر: ميشال جحا، الدراسات العربية، ص١٦٢، نقلاً عن الزيادي، ص٩٤.

[٦٢] أنظر: الزيادي، محمد فتح الله، الاستشراق أهدافه ووسائله، ص٩٢ ـ ٩٥، ١٩٩٨.

[٦٣] بطرس الأول، المعروف بـ (بطرس الكبير أو الأكبر) (Peter the great) also (peter I: ١٦٧٢ ـــ ١٧٢٥م): قيصر روسيا (١٦٨٢ ـ ١٧٢٥م). عدّه بعض المؤرخين أعظم قياصرة روسيا بلا استثناء، أعاد تنظيم الجيش، وأنشأ أسطولاً بحرياً، وأقام مئات المصانع، وبذلك جعل من روسيا دولة أوربية ذات شأن. عزز السلطة الملكية على حساب سلطة النبلاء ورجال الكنيسة الأرثوذوكسية، وعمل من أجل بسط سلطان روسيا حتى سواحل بحر البلطيق والبحر الأسود. أنظر: منير البعلبكي، موسوعة المورد، ج٨، ص١٦.

[٦٤] إغناطيوس يوليا نوفيتش كراتشكوفسكي (Ignatig Julianovic Krackovskij: ١٨٨٣ ـــ ١٩٥١م):

من أبرز المختصين بالدراسات العربية من بين المستشرقين الروس. نصحه أستاذه شيخ المستشرقين الروس (البارون فيكتور رومانوفتش روزن) صاحب الفضل الأكبر على الاستشراق في روسيا، باختيار مهنة التدريس في الجامعة. عنى بالعلاقات بين الآداب المسيحية والآداب الإسلامية في الشرق. ارتحل إلى سوريا ولبنان ومصر، فعقد أواصر الصداقة مع بعض الأدباء هناك، منهم: (أمين الريحاني)، و(محمد كرد علي)، و(جرجي زيدان). وفي مصر عثر على رسالة لأبي العلاء المعرّي تحت عنوان (رسالة الملائكة) هاجم فيها تصوّر الفقهاء والمفسّرين للملائكة. ومنذ ذلك الحين اهتم بجمع مخطوطات أبي العلاء المعرّي بواسطة التصوير الفوتوغرافي، ومن ثمرات أبحاثه في هذا المجال، بحث بعنوان (في نشأة وتأليف رسالة الغفران لأبي العلاء المعرّي). للمزيد أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المورد، ص٤٦٨ فما بعد.

[٦٥] انظر: الساموك، سعدون محمود، مناهج المستشرقين، ص٤٥ ــ ٤٧، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد.

[٦٦] كريمسكي (Krymsky. A. E.: ١٨٧١ ـ ١٩٤١م): مستشرق روسي شهير، اهتم باللغة والتاريخ والأديان، شغل مناصب علمية عديدة، أهمها: سكرتير مجمع العلوم الأوكراني، خلف عدداً من الأعمال، منها: (العالم الإسلامي ومستقبله)، و(تاريخ الإسلام)، و(الشاعر الزنديق أبان اللاحقي) الخ. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٣، ص٩٤٧.

[٦٧] الخوارزمي، محمد بن موسى (٧٨٠ ـ ٨٥٠م): فلكي وعالم في الرياضيات، واضع علم الجبر، ترجمت كتبه إلى اللاتينية؛ فكانت مرجع الدارسين في أوربا فترة طويلة من الزمان، أشهر آثاره كتاب (الجبر والمقابلة)، وله كتاب في علم الحساب لم يحفظ لنا إلا في ترجمته اللاتينية، وهي بعنوان (Algoritmi de numero Indorum)، ومن هذا العنوان نشأت لفظة (algorism)، التي تعني في الإنجليزية (علم الحساب). منير البعلبكي، موسوعة المورد، المجلد الأول، ص٨١، ط١، بيروت، ١٩٨٠م.

[٦٨] البيروني، أبو الرّيحان محمد (٩٧٣ ـ ١٠٤٨م): مؤرّخ ورياضي وفلكي، وضع معادلة لاستخراج مقدار محيط الأرض، وقال: إنّ الأرض تدور حول محورها، وإنّ سرعة الضوء أعظم من سرعة الصوت. ومن مصنفاته (الآثار الباقية عن القرون الخالية)، وقد ترجم إلى الإنجليزية، و(القانون المسعودي) وهو كتاب مهم في الفلك، ألفه للسلطان مسعود بن السلطان محمود الغزنوي. منير البعلبكي، موسوعة المورد، المجلد الثاني، ص٧٠، ط١، بيروت، ١٩٨٠م.

[٦٩] ابن سينا، أبو علي الحسين بن عبد الله (٩٨٠ ـ ١٠٣٧م): فيلسوف وطبيب، لقب بـ (الشيخ الرئيس)، ويُعدّ منظم الفلسفة والعلم في الإسلام، كما كان أرسطو في اليونان، تجاوزت مصنفاته المئة مصنف. من أشهرها كتاب (القانون) في الطب، وقد نقل إلى اللاتينية، وظلّ يدرّس في معاهد الطب الأوربية حتى القرن السابع عشر. وقد برع ابن سينا في الشعر أيضاً، وله قصيدة مشهورة في (النفس). منير البعلبكي، موسوعة المورد، المجلد الأول، ص٢٢٣ ـ ٢٢٤، ط١، بيروت، ١٩٨٠م.

[٧٠] الفارابي، أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ (٨٧٨ ـ ٩٥٠م): فيلسوف مسلم، يعتبر أحد ألمع النجوم الساطعة في تاريخ الفكر العربي، وأحد أوائل المفكرين الذين عرفوا العرب بفلسفتي أرسطو وأفلاطون. حاول التوفيق بين الشريعة الإسلامية والفلسفة اليونانية. تأثر به كلّ من ابن سينا وابن رشد. لقب بـ (المعلم

الثاني) باعتبار أن أرسطو هو المعلم الأول. اتصل ببلاط سيف الدولة الحمداني في حلب، ابتداءً من عام ٩٤٢م، حيث قضى بقية حياته. أشهر آثاره (آراء أهل المدينة الفاضلة).

[٧١] إيفانوف (Ivanow، W.): من أعلام المستشرقين الروس الذين وقفوا علمهم على دراسة العقيدة الإسماعيلية. من آثاره: (المخطوطات الإسماعيلية في المتحف الآسيوي)، و(فهرس المؤلفات الإسماعيلية). أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٣، ص٩٧٠ ـ ٩٧١.

[٧٢] انظر: الزيادي، محمد فتح الله، الاستشراق أهدافه ووسائله، ص٨٤، ١٩٩٨.

[٧٣] هرمان الدلماشي (Hermann Alemanus: ت: ١١٧٢م): زميل روبرت في رهبانيته ودراساته وترجماته، عيّن رئيساً لشمامسة (سرباييلون)، ثمّ راعياً لكنيسة (شيني)، ثمّ أسقفاً على (إستورجة). نقل (إصلاح المجسطي) للمجريطي، وعلم الأخلاق، وبعض الرسائل في الكيمياء، وصنف في كتاب البلاغة والشعر لأرسطو، مستعيناً بشرح الفارابي على البلاغة، وبتلخيص ابن رشد للشعر. كما ترجم تلميذه (رودلف دي بروجس) شروح مسلمة المجريطي على النظام الرياضي لبطليموس. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج١، ص١٢٤.

[٧٤] أوتو الأوّل (Otto I: ٩١٢ ـ ٩٧٣م): ملك ألمانيا (٩٣٦ ـ ٩٧٣م)، رأس الإمبراطورية الرومانية المقدّسة (٩٦٢ ـ ٩٧٣م). قوّى دعائم (الرايخ) الألماني بسحقه عدداً من الثورات الداخلية وانتصاره الحاسم على المجر. نشب صراعٌ عنيفٌ بينه وبين البابا يوحنا الثاني عشر. شهدت ألمانيا في عهده فترة انبعاث ثقافي. يعرف بـ (الكبير: the great). أنظر: منير البعلبكي، موسوعة المورد، ج٧، ص١٨٢.

[٧٥] عبد الرحمن الناصر (٨٩١ ـ ٩٦١م): أمير قرطبة (٩١٢ ـ ٩٦١م) وأوّل خليفة أمويّ في الأندلس (٩٢٩ ـ ٩٦١م)، بنى قصر الزهراء في قرطبة، وجعل من عاصمته (قرطبة) أهم مراكز الثقافة في أوربا كلها. وقيل: إنها اشتملت في عهده على مئة وثلاثة عشر ألف دار، وواحدٍ وعشرين ربضاً (أي ضاحية)، وسبعين مكتبة عامة، ومساجد وقصورٍ لا تكاد تحصى. أنظر: منير البعلبكي، موسوعة المورد، ج١، ص٢٢.

[٧٦] أنظر: معرفت، محمد هادي، تاريخ قرآن، ص١٣٨، وزارت فرهنك وإرشاد إسلامي، ط٩، طهران، ١٣٨٦ش.

[٧٧] بدوي، عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، ص٣٠٠، دار العلم للملايين، ط٣، بيروت، ١٩٩٣.

[٧٨] هانريش إيفالد (Ewald، H.: ١٨٠٣ ـ ١٨٧٥م): بدأ دراسته الاستشراقية في ألمانيا، ثمّ قصد (دي ساسي) مع فلايشر؛ فأخذا عنه، وسمّيَ إيفالد أستاذاً في جوتنجين؛ فوجّهها وجهة تاريخ العرب وأديانهم وآدابهم. وكان من جملة أساتذة ثيودور نولدكه، الذي أخذ عنه اللغة الفارسية والتركية والسنسكريتية. ترجمت آثاره إلى الإنجليزية وغيرها من اللغات. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٧٠٣.

[٧٩] رودي باريت (Rudi Paret: ١٩٠١ ـ ١٩٨٣م): مستشرق ألماني، ترجم القرآن إلى الألمانية، ولد في أسرة يكثر فيها القساوسة المسيحيون. درس على يد صهر ثيودور نولدكه المستشرق (إينو ليتمن)، وشغل كرسي علوم الإسلام والساميات في جامعة بون خلفاً لـ (باول كاله) سنة ١٩٤١م. عمل في قوات (رومل) في ليبيا، وأسر في سنة ١٩٤١م. من آثاره: رسالة صغيرة بعنوان (محمد والقرآن)، وقد تميّز بقوّة التعاطف مع الإسلام. أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرق، ص٦٢.

[٨٠] الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، (المستشرقون الألمان منذ نولدكه)، رودي باريت، نقلاً عن مقال للدكتور عباس أرحيلة، من موقعه على الأنترنيت، موقع تفسير: شبكة التفسير والدراسات.

http: //www. Tafsir. org/vb/showthread. php؟t= ١١٣٦٧

[٨١] بدوي، عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، ص٤٤٤، دار العلم للملايين، ط٣، بيروت، ١٩٩٣.

[٨٢] جوتهلف برجشترسر (Gotthelf Bergstrasser: ١٨٨٦ ــ ١٩٣٣م): مستشرق ألماني، مسيحي بروتستانتي (لوثري)، برز في نحو العربية، واللغات السامية، وعنى بدراسة اللهجات العربية، وبقراءات القرآن. درس على يد المستشرق الكبير (أوجست فيشر)، ونال شهادة الدكتوراه في (رسالة حنين بن إسحاق ومدرسته) سنة ١٩١٢م. وفي سنة ١٩١٨م كلفته وزارة الحربية الألمانية بالقيام برحلة استكشافية لسوريا وفلسطين. أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٨٥.

[٨٣] إينو ليتمان (Enno Littmann: ١٨٧٥ ـ ١٩٥٨م): مستشرق ألماني، عني بالنقوش العربية القديمة، واهتم بالأدب الشعبي، درس على يد ثيودور نولدكه فصلاً كاملاً (١٨٩٨ ـ ١٨٩٩م) في جامعة إشتراسبورج، وتزوج من حفيدته، وفي سنة ١٩٠٤م دعته جامعة برنستون ليشترك في بعثة أثرية للتنقيب عن الآثار السامية في سوريا وفلسطين، وبعد تقاعد ثيودور نولدكه خلفه في جامعة اشتراسبورج سنة ١٩٠٦م، وظلّ في هذا المنصب حتى سنة ١٩١٤م. أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٥١٢.

[٨٤] جوزيف شاخت (Joseph Schacht: ١٩٠٢ ـ ١٩٦٩م): مستشرق ألماني متخصص في الفقه الإسلامي، انتدب عام ١٩٣٤م للتدريس في الجامعة المصرية واستمر أستاذاً فيها حتى عام ١٩٣٩م، ولما كان ناقماً على النازية، فقد انتقل من مصر مباشرة إلى لندن، ليعمل مع الإذاعة البريطانية لحساب بريطانيا والحلفاء ضد النازية، وقد تزوج أثناء إقامته فيها، فمنح الجنسية البريطانية، ثمّ غادر إلى الولايات المتحدة، ولم يعد إلى وطنه ألمانيا وظلّ خارجها إلى آخر يومٍ من حياته. أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٣٦٦.

[٨٥] بول كراوس (Paul Eliezer Kraus: ١٩٠٤ ـ ١٩٤٤م): مستشرق ألماني من أصول يهودية، رحل إلى فلسطين سنة ١٩٢٢م، ثمّ عاد إلى جامعة برلين سنة ١٩٢٨م؛ ليحصل على شهادة الدكتوراه منها. ولما جاءت النازية إلى الحكم سنة ١٩٣٣م، قرّر مغادرة ألمانيا والسفر إلى باريس، وأعانه على ذلك (لوي ماسينيون). وفي سنة ١٩٣٦م، عيّنته كلية الآداب في الجامعة المصرية مدرّساً للغات السامية. عني بدراسة رسائل جابر بن حيّان في الكيمياء. وبين عامي (١٩٤٣ ـ ١٩٤٤م)، شغل بفكرة خطرت بباله قادته إلى نظرية مفادها إنّ جميع نصوص أسفار الكتاب المقدّس إنما هي نظمٌ شعريّ، وليست نثراً، ولكنه واجه بسببها هجوماً عنيفاً في القدس. انتحر لأسباب سياسية وعائلية وفكرية. وقد شهد له أعلام المستشرقين من أمثال: ماسينيون، وديمومبين، وبيكر بالعمق والشمول والتفرد، وكانوا يتوقعون له مستقبلاً باهراً. أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٤٦٤ ـ ٤٦٧؛ ونجيب العقيقي، المستشرقون ج٢، ص٧٦٣ ـ ٧٦٥.

[٨٦] ماكس مايرهوف (Max mayerhof: ١٨٧٤ ـ ١٩٤٥م): متخصص في طبّ العيون، ولد في أسرة يهودية عريقة أنجبت كثيراً من العلماء الأعلام، مثل إبن عمّه: أوتو مايرهوف، الحائز على جائزة نوبل في الطب، وابن عمّه الآخر عالم المصريات: فولهايم اسبيجلبرج. قرّر الإقامة في القاهرة سنة ١٩٠٣م، وأخذ هناك يزاول مهنة الطب، ويعالج الفقراء بالمجان، ومن النوادر التي رواها عنه (إينو ليتمن): إن أحد زبائنه المصريين إمتنع عن دفع أتعابه قائلاً: (ضاعف الله لك الأجر)؛ فأجابه مايرهوف: (ولكني لا أعرف أين يقع بنك الله!). ولما جاءت النازية إلى الحكم تخلى عن جنسيته الألمانية، وتجنس بالجنسية المصرية. توفي عن عمر يناهز السبعين إثر مرض

عضال. أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٥٤٠ ـ ٥٤١؛ ونجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٧٦٦.

[٨٧] مارتين هارتمان (Martin Hartmann: ١٨٥١ ـ ١٩١٨م): مستشرق ألماني عني خصوصاً بالإسلام في العصر الحاضر. درس على يد المستشرق اللغوي الكبير فلايشر، اشتغل مترجماً رسمياً في وزارة الخارجية الألمانية. وفي سنة ١٨٧٨م أنشئ معهد اللغات الشرقية في برلين لغرض إعداد موظفي وزارة الخارجية؛ فدعي ليكون أستاذ اللغة العربية فيه، فاستمرّ يعمل هناك حتى وفاته سنة ١٩١٨م. أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٦٠٧. ونجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٧٢٥ ـ ٧٢٦.

[٨٨] أوجست فيشر (August Fischer: ١٨٦٥ ـ ١٩٤٩م): مستشرق ألماني، تخرّج باللغات الشرقية على يد (توربكه)، وخلف (سوسين) في ليبزيج سنة (١٨٩٩ ـ ١٩٣٠م)، وقد تخرج على يديه كبار المستشرقين من أمثال: شاده، وجراف، وبجشترسر، وقد نحا نحو فلايشر في العناية بفقه اللغة كأسٍّ لدراسة النصوص وتحقيقها. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٧٧١.

[٨٩] كارل بروكلمان (Karl Brokelmann: ١٨٦٨ ـ ١٩٥٦م): مستشرق ألماني، ولد في روستوك. تخرّج باللغات السامية على يد أعلام المستشرقين، ومنهم نولدكه. طارت له شهرة في فقه العربية والتاريخ الإسلامي، وتاريخ الأدب العربي، حتى عدّ إماماً من أئمتها. اشتهر بالموضوعية والعمق والشمول، مما جعله مرجعاً للمصنفين في التاريخ الإسلامي. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٧٧٧ ـ ٧٧٨.

[٩٠] هيلموت ريتر (Hellmut Ritter: ١٨٩٢ ـ ١٩٧١م): مستشرق ألماني. تتلمذ من بين المستشرقين على يد ثيودور نولدكه، وكارلمان. ولما قامت الحرب العالمية الأولى عمل مترجماً في الجيش الألماني المحارب في العراق وتركيا. وفي سنة ١٩١٩م، عيّن خلفاً لتشودي في معهد هامبورغ للمستعمرات حتى سنة ١٩٢٦م. أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٢٧٧.

[٩١] فولهايم شبيتا (Spitta، W.: ١٨٥٣ ـ ١٨٨٣م): مستشرق ألماني. تخرّج باللغات الشرقية عي يد فلايشر من ليبزج، ونال الدكتوراه برسالة عن تاريخ أبي الحسن الأشعري ومذهبه (١٨٧٥م)، ثمّ عيّن مديراً بدار الكتب المصريّة. ولما قامت ثورة عرابي أُبعد عن مصر؛ فخلفه فيما بعد كارل فوللبرس. توفي ولما يتجاوز عقده الثالث متأثراً بداء السل. أنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٧٠٥.

[٩٢] الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية (المستشرقون الألمان منذ نولدكه)، رودي باريت، عن مقال للدكتور عباس أرحيلة من موقعه المتقدّم على شبكة الأنترنيت.

[٩٣] كارل هاينريش بيكر (Karl Heinrich Bekker: ١٨٧٦ ـ ١٩٣٣م): مستشرق وسياسي ألماني. ولد في أسرة برجوازية، وقد دفعته نزعة البحث في تاريخ الأديان إلى ناحية الاستشراق. زار مصر سنة ١٩٠١م، وفيها توطدت علاقته بالإمام محمد عبده. دعي إلى التدريس في (معهد هامبورغ الاستعماري)، ثمّ تقلب في المناصب السياسية، فعمل وكيل وزارة سنة ١٩١٩، ثم وزيراً للمعارف سنة ١٩٢١م، ووزيراً لها للمرة الثانية سنة ١٩٢٥م. أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص١١٣ ـ ١١٥.